# عذراء الهند
# أو
# تمدن الفراعنة



أمير الشعراء: أحمد شوقي

تقديم

أحمد إبراهيم الهواري

رواية

# عـــــــذراء الهنـــــد

# أو

# تمــــدن الفراعنـــــة



أمير الشعراء: أحمد شوقي

## تقديم

أحمد إبراهيم الهواري

أستاذ النقد الأدبي – كلية الآداب – جامعة الكويت

# الفهرس

# إهــــــداء

إلى من تعانق في قلبه الفن والعلم،

في تفاضل وتكامل لا يبغيان.

إلى الشاعر سعد عبد العزيز مصلوح

أحمد إبراهيم الهواري

## شكـــــــر

أشكر مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي – دولة الإمارات العربية المتحدة؛ فقد بعث لي بصورة ضوئية من رواية أحمد شوقي المفقودة "عذراء الهند أو تمدن الفراعنة".

والمركز حين يحرص على أن يقيم جسورًا ثقافية بين المشتغلين بالثقافة وسدنة التراث؛ وأن يكون عضدًا لمن ينشد مظان المعرفة؛ إنما يؤكد أن العلم رحم بين أهله.

**أحمد إبراهيم الهواري**

# "عذراء الهند" أو تمدن الفراعنة
# قراءة في خطاب النهضة/ الخطاب القومي

**أ. د. أحمد إبراهيم الهواري**

أستاذ النقد الأدبي

كلية الآداب – جامعة الكويت

يلوح للمتأمل في عنوان رواية أحمد شوقي (١٨٦٨ – ١٩٣٢) "**عذراء الهند**" **أو تمدن الفراعنة**، عمق ما تشير إليه كلمة "تمدن" من دلالات.

والناظر في هذا العنوان الفرعي، في سياقه الثقافي الذي ظهرت فيه هذه الرواية ينبغي ألا يغفل عن حقيقة أن العمل الأدبي هو عطاء فني لبيئة معينة. وكما يعلمنا علم اجتماع المعرفة sociology of knowledge لا تصدر أي أفكار أو مذاهب أو نظريات جديدة من فراغ. ولا يمكن فهم هذه الأفكار والنظريات فهمًا صحيحًا إلا بمعرفة المناخ الفكري والسياسي الذي ساد قبل ظهورها في مجتمع بعينه، كما لا يمكن تفسير الأفكار والنظريات الجديدة بمعزل عن الخلفية الاجتماعية والثقافية لأصحابها.

وينبئ تراث تاريخ الأفكار في القرن التاسع عشر في مصر، بأن فكرة "**التمدن**" كانت من الأفكار التي شاعت في فضاء المشهد الثقافي آنذاك. وهي الفترة التي وقف الخلق جميعًا ينظرون كيف تبني مصر قواعد مجدها القومي في عصر "محمد علي" و"إسماعيل".. وهي الفترة التي مضت تبحث فيها عن **هويتها الحضارية**، وما آلت إليه أحوالها.

إبان تلك الفترة شهد المجتمع الثقافي في مصر ترجمة "أحمد فتحي زغلول" لكتاب: "**سر تقدم الإنجليز الساكسون**" ١٨٩٨ وهو نفسه يكتب مقدمة لكتاب "محمد عمر": "**حاضر المصريين أو سر تأخرهم**" ١٩٠٢ بما يكشف عن جانب من حوارات النهضة بين "**الأنا**" و"**الآخر**". وفي الوقت نفسه يشرع "جورجي زيدان" في كتابه "**تاريخ التمدن الإسلامي**".

من هنا تبدو أهمية الإشارة إلى السياق الثقافي، في بعده التاريخي الذي عاشته مصر في القرن التاسع عشر، والذي جاءت فيه "**عذراء الهند.. أو تمدن الفراعنة**" تجليًا فنيًا لقضايا ذلك العصر. وهو ما يأتي بيانه حين الحديث عن تجليات السياق الثقافي/ التاريخي.

في مستهل هذه القراءة الاستشرافية لـــ"**عذراء الهند**" أشير إلى أهمية استعادة الســـياق الثقافي/ التاريخي الذي عاشته مصر في القرن التاسع عشر، وهو العصر الذي ظهـــرت فيـــه الطبعة الأولى من "**عذراء الهند**" (١٨٩٧) – مطبعة الأهرام بالإسكندرية.

وهذا العصر كان عصر استعادة الحضارات المفقودة، فمع بداية القرن التاسع عشـــر، وعندما غزا بونابرت مصر، أخذ فريق من علماء الحملة الفرنسية في البحـــث والاستكشـــاف والمسح، وسجلوا الآثار المصرية، ثم اكتشف حجر رشيد، وهو مرسوم ملكي كتبه بطليمـــوس الخامس بثلاثة خطوط، وقام علماء الآثار منهم: أكر بلاد وينج بمحاولة فك شـــفرة الرســـوم الهيروغليفية، وفي ٢٢ سبتمبر ١٨٢٢ أفلح "شامبليون" (١٧٩٠ – ١٨٣٢) في تفسير نقـــوش حجر رشيد. وكان كشف ذلك الحجر، هو المفتاح الذي به ولج العالم المعاصر إلـــى غياهـــب الماضي.. ماضي مصر القديمة.

عرف العالم أن مصر في تلك الفترة من الزمن كانت قوة سياسية كبرى حلقـــت فـــي آفاق عالية من المجد، وبلغت ما لم تبلغه في تاريخها من قبل من القوة والمكانـــة؛ فأصـــبحت القوة السياسية الكبرى في عالمها المعاصر؛ فقد وصل نفوذ مصر إلى النوبة بأسرها والحبشة وسنار ومجموعة الأقطار الواقعة في جنوب إفريقيا وقبائل الصحراء الشرقية والغربية للنيـــل وسوريا وبلاد العرب، وجزء كبير من الأناضول وآسيا الصغرى وجزيرة قبرص وكثير مـــن جزر الأرخبيل، إضافة إلى فارس. كما بلغت الحضارة والفنـــون أقصـــى درجـــات التقـــدم، وازدهرت مبادلات مصر الخارجية، واهتم رمسيس بسلاح البحرية. ولـــم تكـــن إنجازاتهـــا الحضارية والمعمارية أقل شأنًا.

وفي ذلك العصر، عصر رمسيس الثاني أماطت الكشوف الأثرية اللثام عـــن طبيعـــة العلاقة بين **السلطة السياسية والسلطة الدينية**؛ فقد آمن سيتي الأول وابنه رمسيس الثاني أن "آمون" مهما بلغ من القوة والعظمة فلا ينبغي له أن يطغي على الوظيفة العليا فـــي الدولـــة – الملكية [1]. ورواية "**عذراء الهند**" تعرض لهذا الصراع بين السلطتين: **السياســـية والدينيـــة**، ودور حزب الأحرار برئاسة الأمير "آشيم" في هذا الصراع.

من هنا نضع الخطاب الروائي في نص "**عذراء الهند**" بوصفه صـــدى مـــن أصـــداء الوعي القومي أو الخطاب القومي الذي لاحت بوادره في كتيب "حســـين المرصـــفي" "**الكلـــم الثمان**" "سنة ١٨٧٩ م" وفي هذا الكتيب شرح المرصفي بعض المصطلحات التـــي ظهـــرت لأول مرة في تاريخ مصر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وهو في تحديده لمدلول كل مصطلح: **الوطن، الحرية، الأمة، العدالة، الظلم، السياسة، الحكومة، والتربية**" [2] يعكس مفاهيم عصره ويشير إلى اتجاه التفكير في ذلك الوقت اتجاهًا قوميًا. في هذا السياق الثقـــافي

يكشف "أحمد شوقي" في مشروعه الروائي عن وعي ناضج بمهمة الفن فهو يسعى أن يجعل "... ما همّ وجلّ من حوادث وادي النيل ماضيها وحاضرها، وما بينهما من الفترات، في عقد من الروايات واسطته الحقيقية ونظامه الخلق والتخييل" (٣).

ورجل هذا مفهومه عن فن الرواية يصعب، عند تأمل إبداعه، قبول رأي من يقف بهذا الإبداع الروائي عند تخوم مهمة "التسلية والترفيه" (٤) بل الأقرب إلى الصواب أن نقول: إن "شوقي" قد خرج من عباءة "الحريري" (٤٤٦ – ٥١٦ هـ) في مقاماته؛ من حيث إن كليهما كان يتغيا التنبيه لا التمويه، ويقصد التهذيب لا الأكاذيب (٥)، كما أنه يلتقي مع رصيفه "محمد المويلحي" (١٨٥٨ – ١٩٣٠) في تقديمه لفن يصبو إلى تصوير الحقيقة، وإن توسل بالتخييل، بحيث يأتي حقيقة متبرجة في ثوب خيال، لا خيالاً مسبوكًا في قالب حقيقة (٦).

والمتأمل في عنوان الرواية يلمس الدلالة السينمائية التي يرشح بها الخطاب الروائي(٧)؛ فثمة مضمون، يتوجه به شوقي إلى المتلقي من خلال شكل سردي. ومحتوى هذا الخطاب ينهض على **العلم، والعدالة، والصناعة، والفن**، وقبل كل هذه الدعائم، على جيش قوي.

**شوقي وتكامل الخطاب:**

ويلمس القارئ لرباعية شوقي الروائية:" **عذراء دنشواي ١٩٨٧، لادياس ١٨٩٩، دل ويتمان ١٨٩٩، ورقة الآس ١٩٠٤**"، أنها تنسجم مع مرحلة من مراحل تطور الرواية التاريخية في مصر، ارتبطت في وجه من وجوهها، بعصر الرومانسية. وهي هنا تتماس مع ازدهار الفكر القومي وعصر القوميات، والإيمان بالفرد العظيم. ومن هنا ندرك مغزى أو مضمون الخطاب الذي يلح عليه شوقي عبر الأنواع الأدبية: الشعر الرواية (المسرحية والنثرية).

وفي "الشوقيات" يتجلى احتفال "شوقي" بالفرد العظيم، ودوره المؤثر في تغيير مجتمعه؛ بما ينبئ عن موقفه من القوى المؤثرة أو الفاعلة في التاريخ والمحرِّكة لأحداثه، أو قل: البطولة الفردية في التاريخ؛ وهي نظرة تجعل من مقدرات الأمم رهنًا بظهور البطل الفرد، بدلاً من أن ترى في ظهور القائد أو الزعيم تعبيرًا عن ثورة الأمة، لا سببًا من أسباب قيامها. ووفق هذا المفهوم، فهو ممن ينتمون إلى المدرسة المثالية في التاريخ (٨)، وهي المدرسة التي ترى أن تطور مجتمع من المجتمعات رهن بتطور الأفكار التي تسود تلك المجتمعات، وإن هؤلاء العباقرة هم المبادرون (٩). وفي تصويره لجوانب العظمة في هؤلاء العظماء يرى أن التاريخ هو في التحليل الأخير – الحَكَم العَدل.

**واخــدع الأحيــاء مــا شــئت فلــن تجــد التــاريخ فــي المنخــدعين**

ويظهر في الشوقيات وعي "شوقي" بالسنن الحضارية، على نحو ما بدا في تصويره الروائي لصعود الحضارة المصرية القديمة أو بزوغها في: "**عذراء الهند أو تمدن الفراعنة**"، و"**دل ويتمان**"، و"**الادياس**" أو "**آخر الفراعنة**".

فالعنوان يشف عن الوعي بقوانين الحضارة وازدهارها، أو أفولها أو انهيارها.

وقد خص "شوقي" آثار مصر وحضارتها، البائدة بست قصائد هي من غرر الشعر: همزيته المشهورة "كبار الحوادث في وادي النيل"، وذكرى كارنارفون، و"أبو الهول"، و"أنس الوجود"، و"توت عنخ آمون وحضارة عصره"، و"توت عنخ آمون والبرلمان"، فضلاً عن رواياته ومسرحياته التاريخية وأبيات متفرقة في مواطن كثيرة من قصائد.

وفي رائعة "شوقي": "كبار الحوادث في وادي النيل" وقد ألقاها في المؤتمر الشرقي الدولي في جنيف في أيلول "سبتمبر" ١٨٩٤ م تطالعنا الصورة الشعرية التي رسمها شوقي لرمسيس الثاني؛ حيث يعرض لما شهده عصره من **تمدن** يتجلى في سيادة السلطة القضائية والتشريعية، واحترام العلم والعلماء والحكماء. وفي رواية "**عذراء الهند**" يصور "شوقي" شخصية رمسيس الثاني.

وفي كلتا الصورتين: الشعرية والروائية تتحدد أبعاد الشخصية والفضاء الذي فيه تتحرك بطاقة الفن الذي تقدم من خلاله: الفن الذاتي أو الغنائي "الشعر"، والفن الموضوعي "الرواية". والعلاقة بين ذاتية الموضوعية وموضوعية الذاتية بحاجة إلى دراسة نقدية ليس هذا مجالها. لكننا نشير هنا إلى أننا ينبغي أن نكون على وعي بشفافية العمل الروائي أو المسرحي، حين يبين عن عواطف صاحبه أو شخصيته؛ أو آرائه متمثلاً في الجانب الغنائي المبثوث في القالب الموضوعي، أو لنقل: شعرية الرواية.

ومن المهم أن نؤكد أن كل عمل أدبي هو دعوة، وإدراك خاص للحياة، واتخاذ موقف حيالها. فلا سبيل إلى أن تختفي شخصية الكاتب، وتمحي معالم ذاته في خلقه الأدبي، فهو خبئ وراء عمله الموضوعي.. ولكن موقف الكاتب وآرائه وأفكاره الذاتية في قصصه ومسرحياته.. يجب أن يكون لها ما يسوغها في العمل الأدبي مستقلة عن شخصية خالقها، وإلا ضاع النضج الفني، كما ضاع الأثر المقصود للعمل الأدبي في وقت معًا (١٠).

## التاريخ: الوجه والقناع:

حين يوظف شوقي التاريخ، فهو يستخدمه بما هو قناع ومرآة؛ فالتاريخ قناع، به يتقي بطش المستعمر البريطاني، وهو قد شهد مصر مستقلة حوالي اثنتي عشرة سنة ثم جاء

الاحتلال بعد معركة التل الكبير والشاعر له اثنتا عشرة سنة. وكان الاحتلال الواقع الكبير في حياته، وتاريخ مصر شغله الشاغل (١١):

**وأنـــا المحتفـــي بتـــاريخ مصـــر      من يصـن مجـد قومـه صـان عرضًـا**

* * *

**وإذا فاتـــك التفـــات إلـــى المـــا      ضي فقـد غـاب عنـك وجـه التأسـي**

وكان شوقي بحكم وظيفته في القصر قريبًا من الرجـال الـذين يصـنعون التـاريخ المصري والإسلامي، أي حكامه وسلاطينه. ومن ثم، ينبغي أن نتفهم موقفه وما يشف عنه من فطنة وكياسة في تصوير القضايا القومية التي يسعى أن يجسدها في رواياته، من خلال قنـاع التاريخ، وهو موقف ينبئ عن أزمة المثقف وعلاقته بالسلطة. وشـوقي هنـا – مثـل سـلفه الحريري – لا يريد أن يكون كالباحث عن حتفه بظلفه، على نحو مـا تـورط ابـن المقفـع (ت ١٤٢ هـ) من قبل.

إن هذا الوعي بالتاريخ الذي يجسده شوقي في رباعيته الروائية التاريخيـة – قـرين للوعي القومي ونتيجة له، وثمرة لمقولته أن **الشعر ابن أبوين: التاريخ والطبيعـة**، ومنهمـا تتجلى صورة الإبداعية بأطيافها (١٢). وهو يشرع في هذه الاستراتيجية الفنية حتى تظل الصلة بين الماضي والحاضر صلة الماء المتجدد، لا صلة الثلج المتجمد.

فليس التاريخ الصحيح عند "شوقي" – سوى تصوير ما وراء الوقائع والأخبار، ومـا ينطوي تحت الأسماء والسير والآثار من عواطف البشرية، ليس التاريخ الصحيح سوى نشور الماضي حيًّا نابضًا كما كان في حياته الأولى حيًّا نابضًا. فمـا يعنـي الإنسـانية الحاضـرة الشاعرة بوجودها؛ إلا أن تستمد الحكمة والعلم والعبرة والطمأنينة؛ مما تعرفـه عـن حيـاة الإنسانية الماضية وتجاربها ومشاعرها، وما تستلهمه من مباهجها ومآسيها.

إن قارئ التاريخ لن يستطيع أن يعرف شيئًا عن عصر من العصور إذا هو لم يهتـد أولاً إلى من يكشف له عن أهل ذلك العصر: كيف كانوا يفكرون؟ وكيف كانوا يحسون؟ ومـا كانت عقائدهم الأولى؟ وما كانت مثلهم العليا؟ وما كانت غاياتهم في الحياة؟ وما كانت متاعبهم فيها؟ (١٣).

## شوقي وتجربة الرواية التاريخية: قراءة استشرافية:

لم يبدأ "شوقي" تجربته الإبداعية الروائية من فراغ. وقد تحدث عن شغفه بفن القصة، فذكرت "جريدة الصباح" أنه طالع في فجر شبابه أعمال القصصي الفرنسي بلـزاك (١٧٩٩ – ١٨٥٠)، وإسكندر ديماس (١٨٠٢ – ١٨٧٠). وقرأ أعمالهما الروائية بقصد الدراسة والتأمل

في أسرار هذا الفن الأدبي. وعن هذين الكاتبين تلقى "شوقي" فن القصة.. ولما كان يميل بطبعه إلى دراسة التاريخ؛ فقد عمد إلى الموضوعات التي لها صلة وثيقة بتاريخ الفراعنة وبتاريخ العرب ليستقي منها قالبه القصصي (١٤).

* * *

والروائي المؤرخ تلزمه صفتان: عقلية تاريخية تستطيع أن تستخلص الصور من صحائف الماضي، وتكوّن الأفكار عن حقيقته.

الصفة الثانية: قوة الخيال الخالق الذي يستطيع استحضار الأحاسيس والمشاعر التي ألمّت بنفوس أهل تلك العصور الغابرة" (١٥).

وهكذا فعل شوقي في "**عذراء الهند**"، فهو يفصح في "التنبيه" [= المقدمة] لخطابه الروائي عن مصادر مادته التاريخية، وما هو حقيقي منها وما هو من وضع الخيال.

فمن مهام الرواية التاريخية، على نحو ما يشير "إدوار الخراط" "أن تنقل لنا روح العصر الذي تتناوله، بمعنى أن تأتي بالتاريخ فتبعث فيه الحياة، ولا تجعل التاريخ مجرّد ثوب أو استعارة لإسقاطه على الواقع، عليها أن تتواضع أمام التاريخ؛ وتحاول اكتشاف العنصر الحي أو ماء الحياة الذي يجري في التاريخ الذي تحجر بانصرامه وجفافه ومواته.

إن بعث ماء الحياة ليرف في شرايين التاريخ، هو من المهام الأولى، بل الأولوية لها، بحيث تعرف – كاتبًا وقارئًا – كيف كان الناس يعيشون ويتكلمون، وما هي ظروف الحياة التي أحاطت بهم، والمناخ بكل معانيه المختلفة، وهل تجد نفسك الآن قادرًا على شم التاريخ... كيف كان الناس يلبسون... أنواع الأطعمة... أنواع التجارب – الصناعات.. الأسلحة والمعدات.. وهكذا. كل هذه من مهام الرواية التاريخية الأولية" (١٦).

ويشعر القارئ أن تلك المهام التي ينشدها الناقد والقارئ في الرواية التاريخية كانت في واعية "أحمد شوقي" وأنه اجتهد أن يقدم لوحات روائية – في ضوء الممكن والمتاح من مادة تاريخية وأثرية مكتشفة، فالتاريخ القديم لم يزل في مرحلته الطفولية – على حد تعبيره – لكن الفقه بالنصوص الروائية التي أبدعها في رباعيته تنم عن حرص شوقي على أن يُسمعنا "**أصوات العصر**". وهو هنا يختلف – إلى حد كبير – عن رؤية جورجي زيدان في رواياته التاريخية التي كادت تلك المهام تغيم في فضائه الروائي، على العكس من شوقي. إن هدف شوقي في رباعيته الروائية هو تصوير النفس البشرية التي يصطرع في جوانحها الحق والواجب، والحب والغريزة، والتضحية والفداء من أجل الوطن، والغدر والخديعة. وكل تلك الثوابت من القيم.

والقارئ في ريب مما ذكر "تاصيف اليازجي" في نقده لرواية "**عذراء الهند**" "من أن مؤلفها لم يقصد من وضعها إلا تمثيل ما كان عليه أهل ذلك العصر من الخرافات والترهات. ولذلك أكثر فيها من ذكر الجن والعفاريت والسحرة والكهان والمنجمين والرقي والطلاسم، ووصف عجائب المخلوقات الوهمية والصور الخيالية من نحو ثعابين خضر الألوان تنتصب على أطراف أذنابها في صورة أمهات الموز، وأخرى صفراء تعانق الأشجار، وتتدفق بالأنوار، وأفيال عراض طوال، في أجرام الجبال، تتخذ الطير في آذانها وظهورها أوكارًا، وناسٍ في صورة القردة، ولهم خفة المردة. وشيخ كلما وقعت عينه على جماعة منهم راحت نائمة، وهي قائمة، إلى ما شاكل ذلك مما لا نطيل بتعداده ولا نتعرض لما وراءه من قصص الرواية وتلخيص وقائعها". (انظر الملاحق: "**عذراء الهند**"، ص ٢٠٠).

إن ما حفلت به الرواية، مما أطلق عليه "اليازجي" من أقاصيص episodes يسودها الخرافة والسحر.. إلخ. ينبغي أن يوضع في سياقه من تاريخ الحضارات القديمة حيث كان السحر يقوم بوظيفة تماثل وظيفة العلم في الحضارة الحديثة. وهذا التأويل ينسجم مع ما يطرحه شوقي في خطابه من توجيه orientation لشروط النهضة والتمدن. هذا جانب.

ومن جانب آخر، تكشف هذه المادة عن إفادة شوقي من الموروث الشعبي، لا سيما ألف ليلة وليلة في العناصر التأليفية في بناء الرواية؛ حيث نسمع أصداء صوت شهرزاد يتناهى لمسامعنا وهي تحكي لشهريار عن هذا العالم السحري العجيب والغرائبي.

وقد جاء توظيف "شوقي" لهذا العالم السحري في صورة بسيطة هي أشبه بكارنفالية، وهذا المنحى في التغريب حيلة فنية من حيل الشاعر "شوقي"، وهذه الحيلة تصادفنا كذلك حين يعمد لاستخدام مسميات عصرية إمعانًا في التغريب والمفارقة التاريخية anachronism للحدث كاستخدامه تعبير "وزير الخارجية": "وما هو إلا أن فرغ الملك وأبناؤه وأصحابه من تناول طعام الغداء؛ حتى بدأ الوزراء والرؤساء يتواردون على القصر، منصرفين عن مصالح الحكومة ودواوينها ليعرضوا حوادث اليوم وأحواله على صاحب الحكومة؛ فأنهى وزير الخارجية فيما أنهى أن ملك الصين قُتِل، وأن هذه الدولة آلت إلى شعوب الشمال المتبربرة"(١٧)، على أن الإفادة من الموروث الشعبي، ومن ألف ليلة خاصة جاء – من بعد – على يد روائي أمريكا اللاتينية، (بورخيس) الأرجنتيني، (ماركيز) الكولومبي، وقد اعترف الأخير بتأثير ألف ليلة وليلة في بناء عالمه الروائي؛ حيث يمزج الغرائبي بالواقعة، فيما أطلق عليه النقاد "الواقعية السحرية"، وفيها يحيا المتلقي، وهو يقلّب الطرف بين فضاء النص والواقع.

والنص السابق المقتبس من نقد اليازجي هو المقدمة المنطقية التي يمهد بها، أو يقدم بها حيثيات حكمه النقدي على الرواية. "... لم نجد شيئًا مما يتوخاه واضعو الروايات في هذه الأيام، من المغازي الحكمية، أو الأغراض الأدبية، أو الحقائق التاريخية" (م. ن).

أما قراءة كاتب هذه السطور فقد اجتهد أن يتعرف إلى خطاب شوقي في الرواية، مؤمنًا أن كل ناقد أو مشتغل بالنقد يأتي ومعه أسئلة عصره. وهذا هو الفارق بيننا وبين عصر "اليازجي". وأترك الحكم في هذا للقارئ.

وقبل أن أقف أمام الشخصيات التاريخية التي صورها في "**عذراء الهند**" وإسقاطاتها التي تتمرأى في عظماء العصر ورجاله، وللقيم القومية التي يسعى "شوقي" أن يصورها في سرده الروائي، من المهم أن أشير إلى البُعد السياسي في الخطاب الذي تحمله الرواية التاريخية، لا سيما وأن منحى هذه القراءة لرواية "**عذراء الهند**". تعتمد التأمل في فرائد خطاب النهضة/ الخطاب القومي الذي تشكل "السياسة" عموده الفقري.

أما البُعد السياسي لمحتوى الخطاب الروائي في "**عذراء الهند**" فيتلاقى مع رأي النقاد في تأسيسهم لمهمة الرواية السياسية، فالقارئ لها، بوصفها مرآة للشخصية القومية، يلمس مدى ما تكشف من وجهة نظر الروائي تجاه جماعته القومية التي تجيء منها شخصياته. فضلاً عن أنها تشف عن الخط السياسي لشخصياتها التي ترمز لشخصيات المجتمع... ومن ثم، فهي تتميز – بالإضافة إلى كونها سجلاً فنيًا لأحداث مضت – بأن شخصياتها تتسم بنفاذ البصيرة؛ مما ينبئ عن طبيعة النظام السياسي لمجتمع ما، كما تكشف عما يرقد في ذهن شخصياتها من وجهات نظر تعكس مواقف تلك الشخصيات" (١٨).

في ضوء ما سبق من ملاحظات النقاد حول "الرواية السياسية" ومفاهيمها، ومن منظور القراءة السياسية؛ فرواية شوقي "**عذراء الهند** أو تمدن الفراعنة تصور في خطابها القومي الفكرة المصرية ببعدها الفرعوني، وتلك بدت من خلال السرد الروائي – رافدًا يغذي حاضر الشخصية المصرية العربية، بما يضفي عليها طابع "**التواصل الحضاري**".

وهنا يكون الإحياء القومي، أو لنقل: التوجيه القومي orientation، هو إحياء لذاكرة الأمة وتوجيهها إلى ذلك المجد الأثيل. وتأتي "**عذراء الهند**" لتصور الحاضر، في ماضيه، ليكون عَضدًا يستمد منه المتلقي، العون والمدد في شحذ الهمة المصرية، لتتجاوز مرحلة الانكسار القومي، ولتصوير الكبرياء الجريحة بعد الاحتلال البريطاني لمصر (١٨٨٢ م).

والدرس الذي يؤكده "شوقي" في "**عذراء الهند**" أن الشرق هو مهد الحضارات الفرعونية؛ وأننا إذا كنا قد حققنا إنجازًا حضاريًا في "**الماضي**" فبوسعنا أن نستأنف النهضة القومية في "**الحاضر**"، بأن نجعل "**الماضي**" في خدمة "**الحاضر**".

وإذا كان "شوقي" يصور في "**عذراء الهند**" عصر الرعامسة، وشخصية رمسيس الثاني سيزوستريس وولي عهده الأمير "آشيم"، فإن القارئ يستدعي صورة "محمد علي باشا" مؤسس مصر الحديثة، وابنه إبراهيم باشا وحفيده "الخديو إسماعيل" وتوفيق وعباس حلمي الثاني؛ فالتوسع في الفتوحات في هذا العصر تكاد تتماثل إلى حد كبير مع ما تم في عصر الرعامسة. كما أن المؤرخين يرون أن "محمد علي" كان شديد الإعجاب بشخصية رمسيس الثاني وبالتاريخ المصري القديم، وكان طموحه أن يستعيد هذا المجد. فما تم إنجازه في الماضي "[جاء] بواسطة همم واجتهاد أناس من أبناء جنسنا وكذلك نحن إذا تعودنا على الاجتهاد" (١٩).

وشوقي يضع القارئ على عتبة الخطاب الروائي: خطاب النهضة/ الخطاب القومي؛ حيث يتراءى في إهدائه رواية "**عذراء الهند**" التي تتناول "سيرة رب طيبة ومنفيس، رمسيس الثاني آمون رع سيزوستريس خير ملك لخير جيل رأى وادي النيل" (٢٠).

والإهداء هنا يتوجه به شوقي – وإن لم يُصرح باسم الخديوي – للخديو عباس حلمي الثاني (١٨٧٤ – ١٩٤٤) الذي خلف والده الخديو توفيق (١٨٥٢ – ١٨٩٢) والطبعة الأولى منا لرواية صدرت في ١٨٩٧ أي في عهد الخديوي عباس حلمي.

وليس من شك أن الحملة الفرنسية أسهمت في بعث مصر القديمة من جديد، بقدر ما أسهمت في مولد مصر المعاصرة. كما تم في سنة ١٩٢٣ الكشف عن آثار "توت عنخ آمون". في ذلك الوقت الذي كانت مصر تبحث فيه عن قوميتها وشخصيتها، وعن ماضيها، وعلاقتها بذلك الماضي، حدثت التنقيبات الأثرية، وتمت اكتشافات الأمجاد التي كانت مطمورة، والحقائق التي كانت مجهولة.

إن بعث شخصية مصر وحضارتها، كان الفكرة الأثيرة لدى البورجوازية المصرية البازغة؛ حيث كان إيقاع العصر، ينبض بدم جديد، متدفق من روح الغرب ومنبعث من آثار الأقدمين.

في ضوء هذا السياق، نستطيع أن نفهم أبعاد خطاب النهضة/ الخطاب القومي الذي جاءت هذه الرواية، تصويرًا فنيًا يجسّد قيم هذا العصر.

إن الخطاب الروائي في رباعية "شوقي" "عذراء الهند أو تمدن الفراعنة"، "ورقة الآس"، "دل وتيمان" "لادياس أو آخر الفراعنة" تنويعات أو تجليات فنية تصور خطاب النهضة والهمّ القومي.

وحين يتعرف القارئ على مشروع شوقي الروائي، يلمس أنه يقدم أمثلة للسلوك الإنساني؛ فالخطاب الروائي في روايته "ورقة الآس" يقوم على تصوير قضية الخيانة. وتنم

عن الدروس التي يمكن أن تكون قوة من قوى التوجيه للشعب نحو مُثل عليا يتأثر بها في مستقبله. وقد تابع في روايته هذه إظهار "النضيرة" بمظهر المرأة الخائنة المتقلبة التي تحوك الدسائس إشباعًا لشهوتها وإرضاء لعاطفتها.

فتوجيه المتلقي هنا هو المقدمة المنطقية، والفكرة الرئيسية للعمل الفني وتوعيته للمتلقي. وهو حين أنشأ قصته هذه كان يعيش في جو بلاده، فقد كانت مصر – في ذلك التاريخ – في مرحلة كفاح تفرض على المكافحين الحذر من الخيانة، ومن الدسيسة، ومن أصحاب المطامع الذين يتراءون في مجال الكفاح أبطالاً ونفوسهم ملوثة بإثم الخيانة؛ فهي قصة تسجيل وتوجيه في وقت معًا.

هي قصة تسجيل من حيث هي تاريخ يروي على وجهه أو على وجه قريب من وجهه، ليسجل الواقع الذي كان في يوم ما حادثة من حوادث التاريخ كما وقع أو تخيله المؤلف. وهي قصة توجيه من حيث هي عرض لصورة بشعة من صور الخيانة والغدر، يمكن أن يعتبر بها أهل الصلاح وأهل الخيانة على السواء؛ أما أهل الصلاح فيحذرون ويتشددون في الحذر ليتوقَّوا أسباب الكيد، وأما أهل الخيانة فيعرفون كيف يمكن أن يصير إليه أمرهم وأمر من يحبونهم من قومهم إن استرسلوا فيما هم فيه من إثم وشر، فلعل المعرفة أن تهب لهم الموعظة فتردهم إلى يقظة الضمير وإلى التوبة مما هم فيه من إثم وشر" (٢١).

* * *

أما الخطاب الروائي في "لادياس" أو آخر الفراعنة، فيعكس الواقع المصري إثر فشل الثورة العرابية ودخول المحتلين، وتمجد، في جانب منها، البطولة المصرية في شخص "حماس" الذي يتفوق على أقرانه من أبناء الأمم الأخرى (٢٢). وفي "دل وتيمان" يستوحي الواقع الهابط الذي آلت إليه مصر إثر فشل الثورة العرابية، وفيها يصور غزو "قمبيز" لمصر. وهذه الرواية حولها شوقي، فيما بعد، إلى مسرحية "قمبيز".

## تجليات خطاب النهضة في "عذراء الهند":

يحفل الخطاب الروائي في "**عذراء الهند**" بكثير من القضايا التي تلامس الفكرة القومية، القضاء والعدالة، القوة العسكرية، الثقافة، الوعي بخطورة تضخم دور المؤسسة الدينية، ممثلة في سلطة الكهنة، مقومات النهضة أو "التمدن"، الصناعة.

واللافت في هذه الرواية، ما يطرحه شوقي من أفكار سياسية تحذر من خطورة أن تصطبغ الدولة بصبغة دينية، بحيث تعلو سلطة الكهنة وتتحول من سلطة دينية إلى سلطة

سياسية. ومن المبادئ التي أعلنها "**حزب الأحرار**" برئاسة الأمير آشيم ولي عهد رمسيس الثاني وحاكم منفيس هي في أن يحرر الوطن من سيطرة الكهنة.

وهنا تتآزر الشعرية البصرية من خلال لوحات من فن الرسم تصافح عين المتلقـــي، وهو يجوس في أبهاء السرد الروائي. ويكشف "شوقي" في تعليقاتـــه المعنونـــة عـــن الدلالـــة السيمائية للصور التي تدعو لمبادئ "**حزب الأحرار**" ووقوفه ضد طغيان الكهنة وصراعهم مع الملك رمسيس الثاني سيزوستريس: من نحو: "**الوطن محجوب مدى المستقبل بالكهنـــة**" (٢٣)، "**شكر الوطن لحزب الأحرار**" (٢٤)، "**فرعون يبذل أشياء الأمة للكهنة**"، "**حزب الأحرار يرد إلى الأمة أشياءها**" (٢٥) "**منفيس تتوج مدائن النيل بتاج الحرية مبتدئة بطيبة**" (٢٦)، "**لتحيا جمعية الأحرار**" (٢٧) وتعرض الرواية لمؤامرات الكهنة ودسائسهم، وأصابعهم الخفية التي تحرك، من وراء ستار، الأحداث.

ويصور الخطاب الروائي القوات المصرية وسيطرتها على مياه المحيط الهندي، فـــي ظل حماية الأسطول المصري "الذي ليس على المياه الأجنبية في هذه الأيام غيره، وآشيم هو أميره الذي بيده زمامه" (٢٨). وقد ذهب لإخماد الثورة التي قامـــت فـــي الهنـــد ضـــد الحكـــم المصري. وهو في إنذاره لملك الهند: "تعلم أيها الملك ما أنا آت في بعض قواتنا البحرية مـــن أجله، وتعلم كذلك أن الرماسسة إذا قالوا قالوا صادقين،... فإنني أدعوك لتكف يـــد المســـاعدة عن الولايات الثائرة، وإلا عددتك عدوًا لمصر ولجلالة الملك فلا أبرح الهند قبل إنزالك عـــن سرير ملكك" (٢٩) ودخل آشيم الولايات فاقتص من كبار الثوار، وأقر فيها الأمن وكان بغيـــر قرار، ثم بارح الهند آيبًا بالأسطول إلى مصر" (٣٠).

إن بسط الأسطول المصري نفوذه على المحيط الهندي وعلى الهند، هو قناع إذ يمكن للمتلقي تأويل دلالة توظيف شوقي لعصر الرعامسة بأنه تعويض فني عن مرحلـــة الانســـكار القومي، والسقوط في قبضة الاستعمار البريطاني الذي كان يسيطر على الهنـــد، ويعـــدها درة التاج البريطاني، وكأنه يوحي لنا بأننا حين نستشرف المستقبل، نكون على وعي بـــأن الأيـــام دول، وشوقي هنا لا يمل من الإلحاح على أن نتخذ من الماضي (التاريخ) عضدًا يشد به أزر الحاضر ويكون في خدمته.

ويصور الخطاب الروائي في "**عذراء الهند**" تجليات دعائم النهضة/ التمدن، وتتمثـــل في العدالة والقضاء. "قال الملك: وعلامة كل هذا الاشتكاء يا إمامنا العزيز. وأنـــت تعلـــم أن القوانين عندي تعلو ولا يُعلَى عليها، وأن لا مسيء إلا آيل يومًا إليها، ولو أنه ابني آشـــيم، أو يخالف الأحكام، فاطلبوا محاكمته، **فإن للقانون**، لا لنا، الانتقام" (٣١).

وحين أجمع الكهنة كيدهم فنالوا من القائد "رادريس": حتى اتهمه للملك لكونه هو محدث الحادثة، ومضيع الأميرة بسبب الأوامر المزورة المرسلة منه إلى الضابط حارس القصر؛ فألقى به من ذلك اليوم في السجن الخصوصي بطيبة حتى ينظر مجلس القضاء الأعلى في قضيته فيحكم له أو عليه (٣٢).

* * *

لا تقوم نهضة بدون جهاز إداري كفء قادر على تنفيذ مشروع النهضة. والخطاب الروائي هنا يصور، على نحو ما أشرت من قبل، قدرة الملك رمسيس الثاني الفذة وفراسته في اصطفاء الأخيار من رجال الدولة. ومن ثم فقط "أخذ رادريس وبنتؤر حقه في الترقي في خدمة المملكة؛ فعهدت إلى الأول قيادة الجيوش الاستعمارية العامة، وعين الثاني أستاذًا عامًّا للأدب والفلسفة في العاصمة، ومؤدبًا للأميرين الشقيقين آشيم وبستموس ابني الملك من الملكة زوجته الشرعية.

وكان ذانك الرجلان من أكبر خصوم الكهنة في السر والجهر، وكانا واحدي عصرهما في عالمي **السيف والعلم**، نافذي السلطان الأدبي على أبناء طائفتهما... فلما تقلدا منصبيهما الجديدين تقلداهما على الفور سلاحًا ماضيًا لمناهضة الكهنة والسعي في رفع نير الاستبداد عن العباد والبلاد" (٣٣).

ولا يمل "شوقي" في خطابه الروائي من تصوير تجليات النهضة/ التمدن". بدا ذلك في تصويره حُسن الصناعة المصرية وجمالها، وحرص العامل المصري على الإتقان... فالإتقان في طباع كل صانع مصري" والأمير آشيم يقول للأميرة عذراء الهند: "... إنك إذا أخذت مثلاً عشرة عشرة من هذه الجعالي وتمعنت فيها، تبادر إلى ذهنك أن الصانع لها جميعًا واحد، مع كون الأمر بخلاف. والجعالي لم تصنعها يد واحدة، بل أيد عشر. وإنما هو الإتقان في طباع كل صانع مصري. وتعلمين أن الإتقان أعظم أسباب العمران، وأكبر دواعي الحضارة والتمدن" (٣٤).

وهذا المشهد يطالعنا في "ليلة القران"؛ حيث يصف استعدادات العاصمة لمناسبة زفاف ولي العهد الأمير آشيم. وهو يعقب على إبداء الإعجاب بهذا الشعب العامل الحي، كيف نهض وقام" (٣٥).

والمشاهد الروائية التي صورت ارتقاء الصناعة في عصر الرعامسة وإتقان الصانع المصري نجد صورتها الشعرية في الشوقيات، على نحو ما تطالعنا في قصيدته "أنس الوجود" وفيها يقول:

**رُبَّ "نَقْشٍ" كأنما نفض الصا ... نع منه اليَدَيْنِ بالأمس نفضا**

| | |
|---|---|
| و"دهان" كلامع الزيت، مرّت | أعصرٌ بالسراج والزيتِ وُضَّا |
| و"خطوط" كأنها هدب ريم | حَسُنَتْ صنعةً، وطولاً وعرضًا |
| و"محاريب" كالبروج، بَنَتْها | عزمات من عزمة الجن أمضى |
| ........................................ | ........................................ |
| صنعة تدهش العقول، وفن | كان إتقانه على القوم فرضًا |

ويصف "دار التحف الرمسيسية" بما تشتمل عليه من ثمين الأشياء وغاليها، وما أهدى إلى الملك في مدة حكمه الطويلة [٣٦]؛ فالإنسان المصري هو صانع النهضة/ التمدن. ما يفضي – في التحليل الأخير – إلى توجيه شوقي لعلة التمدن وشروطه.

إن المتلقي هنا حين يتأمل في خطاب النهضة/ التمدن على نحو ما صوره الخطاب الروائي يستحضر طيف "**رفاعة الطهطاوي**" ذلك الغائب الحاضر، أو لنقل: حضور (الأب) في الابن، فرفاعة (الأب) حين يقول: "**ليكن الوطن محلاً لسعادتنا المشتركة نبنيه جميعًا بالحرية والفكر والمصنع**" يأتي "**شوقي**" ليجسد هذه المقولات في خطابه الفني وسرده الروائي.

### * في لغة "عذراء الهند":

في "**عذراء الهند**" تستمد اللغة خصائصها من رافدين:

**الأول:** يستند إلى رصيد شوقي العميق من التراث، وفيه يكشف الشاعر عن ثقافة عميقة واسعة بالتراث. وفي هذا الإطار يُرصّع شوقي بُرْدة نسج السرد الروائي بأطياف من المحسنات البديعية.

**الثاني:** يتدفق منه السرد تلقائية متحررًا من قيود المحسنات البديعية.

وبين هذين المستويين من مستويات الأسلوب، تساقط بعض التعابير من "**لغة الحياة اليومية المألوفة**" رطبًا دانية قطوفها، فتكسب السرد مذاقًا حميمًا.

على أننا نلاحظ مراعاة شوقي لسياق الموقف الكلامي؛ فالسياق الأول مقام تُنَاجي فيه القلوب، أما السياق الثاني فمقام تخاطب فيه العقول، ومن ثم فالترسل الحر هنا يتغيا أسلوب الإقناع، أما النثر الفني فهو لاعتماده على جماليات الصورة الروائية يتكئ على المحسن البديعي بهدف إمتاع قارئه.

ومن أمثلة **المستوى الأول:** توظيف شوقي للمحسنات البديعية مثل "**التضمين**" من القرآن الكريم. "وإن نفعت فأقضي ما أنت قاض"، "فتبسم الشيخ ضاحكًا" (عذراء الهند ص ٢٨)، ﴿ **فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا**﴾ [النمل: ١٩]، "يقول لصاحبه وهما في المسير

يتحدثان"[٣٧]، ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. (عذراء الهند ص ٢٨)، "... وإذا بلغ من رمسيس الوهن، وابيضّت عيناه من الحُزن، ومات في أرذل السن، غما بابنه خير ابن، فسد أمر هذه الأمة" (عذراء الهند ١٩٠)، ﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]. وهنا يستدعي المتلقي رمسيس الثاني/ يعقوب، آشيم/ يوسف، "وما هو إلا كلمح البصر" عذراء الهند، ص ٩٥، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، "فقبض للحين على الإدلاء، وشد وثائقهم وسيقوا إلى سفينة الرئيس، ثم جيء بسفينة المؤن والذخائر مسحوبة، فركب الجميع وسارت السفينتان حتى بلغنا صخرة للكمون فكمنتا" عذراء الهند ص (٥٨). ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١].

وتحفل "عذراء الهند" باقتباس "شوقي" للشعر ونسجه ضفائر مجدولة في صور روائية من خلال استدعائه بيت الشعر ليكون عنصرًا تأليفيًا في بناء السرد الروائي، من نحو:

**لك يا منازل في القلوب منازل　　　أقفرت أنت وهن منك أواهل**

يعيد إنتاج البيت في سياق السرد الروائي: "وأصبحت منزلتك في القلوب منازل" "عذراء الهند، ٩٩".

ومن نحو قوله: "هي أشد مضضًا من وقع الحسام المهند: "عذراء الهند، ص ١٠٧" يتكئ على "طرفة ابن العبد":

**وظلم ذوي القربى أشد مضاضة　　　على النفس من وقع الحسام المهند**

ولا يخلو المشهد الروائي من ترصيع "شوقي" للسرد بالأمثال والحكم، وتلك بقية من بقايا تقاليد "المقاومة" في "عذراء الهند"، ص ٣٢، وانظر م. ن ص ١٩، ٢٣، ٢٤".

وهو هنا يؤكد على انتفاء القطيعة بين تقاليد الماضي والسرد المعاصر، بل العكس هو الصحيح؛ إذ يأتي الارتباط بالموروث وبتقاليد أساليب البلاغة القديمة، متوافقًا مع إحيائه للقيم المعنوية ليكون الماضي في خدمة الحاضر.

ومع هذا لا يخلو السرد من تعميم في الوصف. (عذراء الهند، ص ١٩).

وفي **المستوى الثاني** يسود الخطاب الروائي، من خلال السرد، متحررًا من المحسنات البديعية من نحو:

".. كان الأمير يقول لصاحبه وهما في المسير يتحدثان: أرى يا بنتؤر أن في الوقت ما يكفي لنذهب فنؤدي الواجب نحو دعوتنا المقدسة، ثم نثني فنستقبل الأميرة. قال: لعل

مولاي يشير **إلى الجمعية** فإنها تنعقد في هذا المساء. قال: نعم إلى ذلك أشير. قال: وهب أن الوقت لم يمكنك من حضورها هذه الليلة، **فإن الأحرار** يعذرونك يا مولاي" (٣٨).

ومن نحو قوله: "حدثه أصحابه حديث عذراء الهند من أوله إلى آخره، وأن الكهنة لم يكتفوا بهذه الضربة القاسية، بل نالوا رادريس أيضًا، حتى اتهمه الملك لكونه هو محدث الحادثة، ومضيع الأميرة بسبب الأوامر المزورة المرسلة منه إلى الضابط حارس القصر، وأنه من ذلك اليوم في السجن الخصوصي بطيبة حتى ينظر مجلس القضاء الأعلى في قضيته فيحكم له أو عليه".

وبين هذين المستويين من مستويات بناء الأسلوب في الرواية؛ يلمس القارئ اقتراب شوقي اقترابًا حميمًا من لغة الفن وما يتطلبه المشهد السردي من مراعاة السياق، ويتراءى ذلك حين يستخدم "**لغة الحياة اليومية**" من نحو: "ولا أن تموت عليه" (عذراء الهند ص ١٩)، "..فإن القوم أوشكوا أن يميلوا رأسه" (م. ن ٩٢)، و"استقل عقله" (م. ن، ص ١٣٠)، "أقامت علينا قيامة الحكومة" (م. ن، ص ١٣٤)، "توقعه في شر أعماله" (م. ن، ص ١٥٥)، "سيد العارفين" (م. ن، ص ١٥٩)، "علمي كعلمك في أمره" (م. ن)، "تحوش" (م. ن، ص ٩٥).

وهذا المستوى من مستويات بناء أسلوب الرواية تعرض لهجوم من "اليازجي"؛ فقد عاب على شوقي استخدامه لغة الجرائد – على الرغم من أنه يدعو في جريدة مجلته إلى الوضع – فاستشهد بوصف شوقي: "وأجذبهم بأزمة الرأي العام وأمتنهم أعلاقًا في القلوب" يريد بالأعلاق: العلائق، وهي لا تأتي بهذا المعنى، إنما الأعلاق جمع عِلق بالكسر. وهو الشيء النفيس. وقوله: "وأجذبهم بأزمة الرأي العام" يريد وأجمعهم لأهواء النفوس نحو ذلك. فجاء بهذه العبارة الغريبة، وإنما هي من المواصفات الإفرنجية درجت عليها لغة الجرائد العربية في هذه الأيام. وليس كل ما تأتي به الجرائد يجوز أتباعه.

وفي حديث الأميرة آثرت يلتقط "اليازجي" عبارة "وإن الملك مدين لنصحها الثمين" وهي من الألفاظ المعربة عن كلام الإفرنج. يقولون: أنا مديونٌ لفلان في هذا الأمر؛ أي له عليّ الفضل فيه.

وفي صفحة ٢٩ [من الطبعة الأولى] "قد رؤيا (أي الرجلان) على نُقطٍ من المملكة؛ أي رؤيا في مواضع منها. وفي صفحة ٤٣: "باحوا بسر المأمورية" بسر ما أمروا به.

ويضيف اليازجي: "بل ربما تنازل إلى استعمال أشياء من اللغة العامية كقوله في صفحة ١٤: "فأطرق المنجم برهة" يعني هنيهة من الزمان، وإنما البرهة الزمن الطويل، واستعمالها للزمن القصير من أوهام العامة. وفي صفحة ٢٤ "تساعفه الصدفة" يريد بالصدفة الاتفاق أو المقدور، وهي من الأوضاع العامية، كأنهم أخذوها من المصادفة، ولم ترد في

شيء من كلام العرب ولا المولدين. وفي صفحة ٢٦: "عائلة بشرية" "عيلة". وكلتاهما لا تأتي بهذا المعنى، إنما يقال: عيال الرجل وعيّله بالتشديد، بمعنى الذين يتكفَّل بهم ويعولهم. وفي صفحة ٢٩: "ويرى جيئة الهوادس وذهابها في فؤاده" يريد بالهوادس خطرات الهموم، وما يتخالج منها في الصدر، وإنما هي من تحريفات العامة، وصوابها الهواجس بالجيم إلى غير ذلك" الملاحق ص ٢٠٥.

وهذه الفسيفساء من المفردات اللغوية التي التقطها "اليازجي" تنسجم مع رؤية النقاد التقليديين: فقد وقف نقاد هذه البيئة – واليازجي أبرز هؤلاء النقاد الكبار – أمام الكلمة المفردة، لا لينظروا إلى دورها في تصوير الحديث ووصف المشاهد أو المواقف التي تحيا فيها الشخصية، بل لينظروا إلى مطابقتها للمعنى المعجمي. ولا يقيم الناقد وزنًا – أو يكاد – للموضوع الروائي، أو لمطابقة اللغة لطبيعة الشخصية، وحقيقة وجودها الاجتماعي. فلم يلتفت كثيرًا إلى أبعاد الشخصية الروائية ومدى إسهام اللغة في تحديد ملامح الشخصية الروائية بحيث نتعرَّف على "**منطقها**" وملامحها الفكرية من خلال "**منطوق**" كلامها.

فالطابع العام في نقده بيئة اللغويين هو الارتكاز على المدلول اللغوي. أما مراعاة بقية العناصر فتأتي في المرتبة الثانية وبطريقة عرضية (٣٩).

إن "عذراء الهند" أو سر تمدن الفراعنة، هي جزء من مشروع أحمد شوقي في الرواية التاريخية، سعى فيها لرأب الصدع بين الماضي والحاضر، بهدف إعادة بناء أو تركيب تاريخنا الثقافي. وذلك معناه إعادة تأسيس "**ثقافة الماضي**" في وعينا، بل إعادة بنائها بما هي تراث نحتويه بدلاً من أن يحتوينا، نتمثله بدلاً من أن نمتثل له.

ومن حيث الشكل فإن "**عذراء الهند**" تقف على الأعراف بين تقاليد شكل "**المقامة**" القديم، وشكل "**الرواية**" الحديث. ومن ثم، فهي مرحلة من مراحل تطور السرديات القديمة في اقترابها من عالم الرواية بمفهومها الحديث.

* * *

## على هامش النص

## شوقي ورباعيته الروائية ـــ إضاءة ببليوجرافية

استهّل "أحمد شوقي" رحلة إبداعه في فن الرواية النثرية، بنشر روايته الأولى: "**عذراء الهند أو تمدن الفراعنة**" منجمة في جريدة "الأهرام" من ٢٠ يوليو إلى ٦ أكتوبر ١٨٩٧ م. ثم ظهرت في صورة كتاب في أواخر نوفمبر من السنة نفسها عن مطبعة الأهرام بالإسكندرية.

وتكاد هذه الروية – في نظر الباحثين والنقاد – أن تكون مفقودة؛ إذ إنها استترت في خدرها، متمنعة على طلابها من القراء والباحثين، بعد أن خرجت بصحبة أحد الأدباء من رواد مكتبة طلعت بالقلعة، ولم تعد. كما روي هذه الواقعة "محمد صبري السوربوني" في الجزء الأول من الشوقيات المجهولة. (انظر، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦١).

أما رواية "**لادياس أو آخر الفراعنة**" فقد نقل "محمد صبري السوربوني" عن مجلة الصباح (١٩٤٨) تحت عنوان "شوقيات مجهولة" أن الرواية طبعت حوالي سنة ١٨٨٩، (انظر: محمد صبري: الشوقيات المجهولة، جـ ١، الطبعة الثانية، دار الكتب المصرية، ص ٤٨، وفي هامش الصفحة التالية (م. ن) ص ٤٩ أورد بيانًا دقيقًا لمؤلفات شوقي وتاريخها فذكر أن رواية "**لادياس**" نشرت سنة ١٨٩٩ وهو ما أكده "حمدي السكوت" (انظر: الرواية العربية: ببليوجرافيا ومدخل نقدي ١٨٦٥ – ١٩٩٥)، المجلد الرابع، قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، سنة ٢٠٠٠ ص ٢١٩٣، ورواية "**دل ويتمان**" (١٨٩٩) وهي تتمة رواية لادياس. وكتبها شوقي متأثرًا برواية جورج إيبرس عالم الآثار المصرية ووصف فيها حالة مصر في عهد الملك أحمس (أمازيس) ونوّه فيها إلى استبداد اليونان بشئون مصر. والرواية النثرية الرابعة "**ورقة الآس**" على خلاف في تاريخ النشر؛ إذ ذكر "محمد صبري (م. ن) أنها صدرت سنة ١٩٠٤ في حين حدد "حمدي السكوت" تاريخ نشرها بـــ ١٩٠٥.

والباعث على الاهتمام بالبحث عن هذا النص الضائع، هو جزء من مشروع ثقافي يبحث في "نسق تاريخ الأفكار" حفاظًا على ذاكرة الأمة. ومن هنا جاء الاحتفال بمعرفة الماضي؛ وبأركيولوجيا المعرفة، وأنا أستعير مصطلح "ميشيل فوكو" للدلالة على أن الأصل في المعرفة (والفن والفلسفة) هو الدهشة أو الاندهاش، الذي يثير التساؤل والتأمل والتفكير، ويدعو إلى البحث، وإلى التفتيش والتنقيب في التراث.

ومن هنا بدأت رحلتي في البحث عن "**عذراء الهند**". وقد أثار انتباهي أثناء جمع المادة العلمية للنشاط النقدي حول الرواية المصرية، أن شهدت الحركة النقدية معركة أدبية بين الشيخ ناصيف اليازجي صاحب مجلة البيان والأمير شكيب أرسلان.

وبحثًا عن النص الضائع، فقد طرقت أبواب دار الكتب القومية بالقاهرة، ومكتبة البلدية بالإسكندرية، والمكتبة الظاهرية بدمشق، لكن ذهبت جهودي أدراج الرياح.

ثم اتصلت بالدكتور جابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة، ملتمسًا بذل مساعيه الحميدة لدى الدكتور يونان لبيب رزق بصفته مشرفًا على مركز الأهرام الذي يصدر الأهرام ديوان الحياة المعاصرة، وذلك ليأذن لي بتصوير الرواية، وقد نشرت منجمة بالأهرام، وتابعت سكرتارية مكتب الدكتور جابر عصفور الاتصالات بمكتب د. يونان لبيب، وكان الحصاد بلاغة الصمت. وخرجت من ذلك كله بتقليب الكفين على ما أنفقت من وقت.

وحين سافرت معارًا لجامعة الإمارات العربية المتحدة، تجدد الأمل في العثور على النص المفقود؛ فبعثت لمركز جمعية الماجد للثقافة والتراث بدبي بدولة الإمارات العربية المتحدة، راجيًا تصوير نسخة ضوئية من الأهرام – إن كانت مجموعة الأهرام من مقتنيات المركز – لكن المفاجأة السارة بدت حين بعث المركز بصورة نسخة ضوئية للرواية وموافاتي بها على مقر جامعة الإمارات بالعين.

ويسعدني الآن، بعد مراجعة النص وتدقيقه، أن أقدم النص الروائي الأول لـ"**عذراء الهند أو تمدن الفراعنة**" باكورة نتاج شوقي في الرواية التاريخية – لشداة الأدب وعشاق فن شوقي.. وأرجو أن تتاح لي الفرصة، لنشر رباعيته الروائية النثرية الكاملة في مجلد يكون مأدبة للباحثين والدارسين. بقدر ما يكون إحياء لذاكرة الأمة.

# هـــوامش

(١) انظر: كنت أ. كتشن، **رمسيس الثاني فرعون المجد والانتصار**، ترجمة أحمد زهير أمين، مراجعة محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٣١٣، ٣١٤، م. ن، ص ٣١٦، ١٧٩، ويرى المؤلف أن المقايضة كانت هي أساس الدفع، م. ن ص ١٨٠، وعن حياة العمال اليومية في عهد رمسيس الثاني، م. ن، ص ص ٢٥٧، ٢٥٨.

(٢) أنيس صايغ: **الفكرة العربية في مصر**، بيروت، ١٩٥٩، ص ص ١٣٠ – ١٣٤. وانظر: أحمد الهواري، **الفكرة العربية في عودة الروح**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ط ١٩٨٣ م، الهوامش ص ٥٧.

(٣) انظر: **رواية دل ديتمان أو آخر الفراعنة**، ط. مطبعة المؤيد، القاهرة، سنة ١٨٩٩، المقدمة، ص ٣، وطبعة "الموسوعة الشوقية، ص ٢٩٣".

(٤) انظر: إبراهيم الفيومي: "**أحمد شوقي ناثرًا**"، الأردن، أربد، دار قدسية للنشر والتوزيع، ١٩٩١، ص ٢١.

(٥) انظر: شرح **مقامات الحريري** للشريشي، الجزء الأول، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، المؤسسة العربية الحديثة، ص ١٥ – ١٦.

(٦) انظر: المويلحي: **حديث عيسى بن هشام**، المقدمة، ص ف.

(٧) انظر: بسام قطوس، **سيميائية العنوان**، إربد، الأردن، ٢٠٠٢، ص ٥٠، الفصل الثالث.

(٨) انظر: إسحق عبيد، **معرفة الماضي**، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١، ص ص ١١٧ – ١٢٣، ٥٥، ٥٩ وقارن كارلايل، **الأبطال**، ترجمة محمد السباعي، طبعة كتاب الهلال.

(٩) وهذا المفهوم المثالي لا يحول بين شوقي وتنديده بحكم الفرد وبالطاغية:

**وقام مقام الفرد في كل أمة ... على الحكم جم يستبد غفير**

**محق الفرد وألغى حكمه ... إن حكم الفرد مرذول لعين**

**زمان الفرد يا فرعون ولّى ... ودالت دولة المتجبرينا**

وكما في رائعته "توت عنخ آمون والبرلمان" ومطلعها:

**قُمْ، سابق (الساعة)، وأسبق وعدها ... الأرضُ ضاقت عنك، فاصدع غِمْدها**

وفي خاتمة القصيدة تنديد بالمستبد الفرد:

**واملأ بألبان النُّبُوغ نَهْدَها ... ولا تَدَعْها تُخْي مُسْتَبِدَّها**

**وتنتحت براحتيها فردها**

(١٠) محمد غنيمي هلال: **موضوعية الذات وذاتية الموضوعية**، المجلة، مايو ١٩٦٣، ص ص ٣٨، ٣٩.

(١١) عرفان شهيد: **العودة إلى شوقي**، بيروت، ١٩٨٦، الأهلية للنشر والتوزيع، ص ٤٧٤.

(١٢) عبد الحميد العبادي: **في معابد التاريخ**، مجلة الكتاب، أكتوبر ١٩٤٧، ص ١٥٩٠.

- محمد صبري: **الوطن والتاريخ في شعر شوقي**، مجلة المجلة، ديسمبر ١٩٦٨، ص ٧.
- بدر الدين أبو غازي، **الآثار الفرعونية في شعر شوقي**، الهلال، نوفمبر ١٩٦٨، ص ١٤٦.

انظر: محمد عبد الغني حسن، **أسفار**، مجلة الكتاب، م. س، ص ١٦٤٣.

(١٣) محمد فريد أبو حديد، **مؤرخا العصر**، مجلة الكتاب، م. س، ص ١٦٠٤.

(١٤) **شوقي القصصي** "جريدة الصباح": ١٠ شعبان ١٣٥٦ هـ – ١٥ أكتوبر ١٩٣٧ م.

(١٥) انظر: علي أدهم: **الرواية التاريخية**، الثقافة، ١٨ أكتوبر ١٩٥١، ص ٦، وانظر: قاسم عبده قاسم، أحمد الهواري، ملحق **الرواية التاريخية**، دار المعارف، ١٩٧٩، ص ١٨١، وقارن: محمد سعيد العريان، **العصر والبيئة في الأدب والتاريخ**، الثقافة، ٢٣ ديسمبر ١٩٤٥، ص ٧، **والرواية التاريخية** م. ن، ص ١٧٤.

(١٦) من ملخص ورقة بحث إدوار الخراط: "**في الرواية التاريخية**"، ملتقى القاهرة الثالث للإبداع الروائي "**الروية والتاريخ**" دورة (عبد الرحمن منيف) ٢٦ فبراير – ٢ مارس ٢٠٠٥ القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ص ٢٦.

(١٧) عذراء الهند، ص ٢٤٠، ويلاحظ أن الفترة التي صدرت فيها الرواية (١٨٩٧ م) ساد فيها تعبير مجلس النظار (= الوزراء). وكان إنشاء أول مجلس للنظار (= الوزراء) في تاريخ مصر الحديث في الثامن والعشرين من أغسطس ١٨٧٨ م. وبانتهاء الحماية البريطانية على مصر في الثامن والعشرين من فبراير عام ١٩٢٢ والاعتراف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة، أصدر السلطان فؤاد مرسومًا بتكوين حكومة جديدة ضمت أول وزارة خارجية مصرية. وكان أول من شغل منصب وزير الخارجية آنذاك عبد الخالق ثروت باشا في الفترة من "١/ ٣/ ١٩٢٢ – ١٩٩٢/١١/٢٩".

وفي الخامس عشر من مارس ١٩٢٣ تغير الاسم الرسمي لمصر إلى "المملكة المصرية" وكان أول من شغل منصب وزير الخارجية في العهد الجديد "أحمد حشمت باشا" في الفترة من "١٩٢٣/٣/١٥ – ١٩٢٣/٨/٦".

انظر: http:www.mfa.gov.eg,Arabic/ministry/history.as?ph=7

(١٨) See: Blontner, Joseph, The political Novel, Double 8 Company, INC. Gorden City, N. Y. 1995, pp. VI, 10, 48, 63.

(١٩) انظر: **مصر في عصر محمد علي**، تحرير: رؤوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة سنة ٢٠٠٠، ص ص ٤٩٦ – ٤٩٧، ٤٩٨.

(٢٠) أحمد شوقي، **عذراء الهند**، مطبعة الأهرام بالإسكندرية، ١٨٩٧، ص ٤.

(٢١) انظر: مقدمة محمد سعيد العريان لرواية "**ورقة الآس**" ص ٦. وقارن: محمد حسن عبد الله، **الواقعية في الرواية العربية**، دار المعارف ١٩٧١ م، ص ١٨٧ حيث رأى أن القصة تعكس الواقع المصري في تلك الفترة، وأن شوقي قام بعملية إسقاط ذهني. م. ن ص ٤ وقارن إبراهيم الفيومي، م. س، ص ٢٩٨.

(٢٢) انظر: إبراهيم الفيومي: م. س، ص ١٩.

(٢٣) عذراء الهند: ص ١٦٣.

(٢٤) م. ن، ص ١٦٤.

(٢٥) م. ن. الصفحة نفسها.

(٢٦) م. ن. الصفحة نفسها.

(٢٧) م. ن، ص ١٦٥.

(٢٨) م. ن، ص ١٠٦.

(٢٩) م. ن، ص ١٣٧.

(٣٠) م. ن، ص ١٣٨.

(٣١) م. ن، ١٣٨.

(٣٢) م. ن، ١٣٩.

(٣٣) م. ن، ص ١٠٩.

(٣٤) م. ن، ص ١٨٦.

(٣٥) م. ن، ص ١٩٣.

(٣٦) م. ن، ص ٩٩.

(٣٧) م. ن، الصفحة نفسها.

(٣٨) وم. ن، ص ص ١٠٨، ١٠٩، ١٦٠، ١٨٦، ١٨٧؛ حيث تحرر شوقي قيود المحسنات البديعية.

(٣٩) أحمد إبراهيم الهواري؛ **نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر**، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٧٧.

رواية

# عذراء الهند

# أو

# تمدن الفراعنة

# إهداء

إلى سدة سيدنا ومولانا ولي النعم الأكرم، الجناب الخديوي المعظّم.

مولاي..

الكاتب وما كتب غراس نعمائك، وجني ظلك ومائك؛ فإذا وُفّق ليرفع إليك عملاً، فقد أسند أفعالك في الفضل إلى أسمائك.

بقي القبول يا مولاي، وهو عندك مأمول، فتفضل زاد الله في فضلك، واجعل هذا القليل الحقير في ذَراك وفي ظلك، كرامة لما تناول من سيرة رب طيبة ومنفيس، رمسيس الثاني أمون رع سيزوستريس، خير ملكٍ لخير جيل رأى وادي النيل.

**خادم السدة**

**(شوقي)**

# (تنبيه)

أشخاص الحقيقة في هذه الرواية أربعة وما سواهم، فمن وضع الخيال – **رمسيس الثاني سيزوستريس** ملك مصر، وهو أكبر ملوك الزَّمن الأول نصيبًا من مدحة الأحاديث، وقد كان معظم اعتمادي فيما وصفت من مفاخر أيامه، وعرفت من أحوال البلاد تحت أحكامه على كتاب نفيس مرصد لسيرة رمسيس عنوانه: "**رمسيس الأكبر**" أو مصر منذ ٣٣٠٠ سنة، لجامعه العالم المحقق "**فرديناند دي لانوا**" وعلى مؤلف ظهر في هذه الأيام هو خير المصادر في هذا المقام أريد (الأثر الجليل) لواضعه الأستاذ الفاضل والعالم العامل "**أحمد نجيب بك**" مفتش عموم الآثار المصريَّة.

– والأمير **كميوم أو شميوم** المحرَّف اسمه في الرواية **آشيم** أكبر أولاد هذا الملك، ومبلغ العلم في أمره أنه كان حاكم **منفيس** وولي عهد **رمسيس**، وأنه مات في السنة الخامسة والخمسين من حكم والده، عن ثلاثين سنة، كان في أواخرها أحب إخوته الكثيرين إلى الأمم والشعوب، وأجذبهم بأزمَّة الرأي العام، وأمتنهم أعلاقًا في القلوب. وأن لهذا الموت المعجّل أسبابًا لا يزال علمها في جانب الغيوب.

– والأميرة **آثرت** كريمة الملك، وجملة الخبر عنها أنها كانت ساحرة ماهرة، وأن الملك مدين لنصحها الثمين بفتوحاته الأربعين.

– **وبنتؤر** ونصيبنا من أنبائه أنه كان صاحب المَلِك وشاعره، وأن له فيه مدائح وأشعارًا قالها على لسانه في خطاب الآلهة والضراعة إليهم عند كل أزمة.

وجملة القول: إن التأريخ المصري القديم لا يزال في عهد الطفوليَّة الأولى، إذا نحن قسناه بمعاصرات العلوم والفنون، وما صارت إليه من تمام الوضوح وكمال الثبوت، وأن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر؛ فهي عين تارة وأثر، تحيي بحجر وتموت بحجر؛ فالمستند إليه فيما هو قائل، إنما يستند إلى ظلام زائل، أو جدار مائل، وهذا ما أُنبّه إليه المؤرخ الذي أعوذ بالله بين يديه أن أكون من الجاهلين.

**(شوقي)**

# الباب الأول

## (الحوادث في الهند)

# الفصل الأول

## (جزيرة العذارى)

كم لنا من عجيبةٍ ... طي هذي البسيطةِ
أُممٌ قد تغيّرت ... وبلادٌ تولّت
وبحارٌ تحوّلت ... من مكان لبقعةِ
ثم نابت جزيرة ... عندها عن جزيرة
أيها الأرض خبّري ... عن شباب الخليقةِ
حدّثينا حديثهم ... وصفي القومِ وانعتي
دولٌ قد تصرّمت ... دولةٌ إثر دولةِ
وقُرون تلاحقت ... وعصورٌ تقضّتِ
ذهب الدهر كلّهُ ... بين يوم وليلةِ

(مجزوء الخفيف)

كانت إلى جنوب الهند الشرقيَّة، وعلى مسيرة أيام من تلك الشواطئ القديمة الأزليَّة، جزائرٌ شتى صغار منتشرة ههنا وهناك، كما عامت اللآلئ أو طفت على الماء الشباك، تنهض بالجلاجل والجمال خلال زرق الماء، نهوض نجوم الجوزاء في القبة الزرقاء.

وكانت كلها أبكارًا، لم تؤْوِ من قبل نزيلاً ولا ديارًا، إلا واحدة كان يقال لها جزيرة العذارى، وكانت يتيمة ذلك العقد المأنوس، المنتثر بالمنظر الضاحي على لبات الأقيانوس، وهي التي نلقي عليها المراسي الآن، في ابتداءِ قصتنا التي وقعت حوادثها من نحو خمسين قرنًا من الزمان.

وكان يسكن هذه الجزيرة مائة فتاة وفتاة، كلهنَّ ملك كريم، ومثال عالٍ غالٍ لنعيم الجمال، وجمال النعيم.

وكنَّ كلهنَّ أبكارًا، بين الرابعة عشر والخامسة عشر أعمارًا، إذا رأيتهنَّ حسبتهنَّ أقمارًا، طالعة ليلاً ونهارًا، تملأ المكان والزمان أنوارًا، وكن يأوين جمعاء إلى قصرٍ، هنالك مشيد على الماء، يضمهنَّ مثلما ضمّت نجومها الجوزاء، وذاك القصر مبني بالبلور والمرمر،

مفرش بصنوف الجوهر، مترب بالنَّد والعنبر، وكان يحمل مفاتيحه ويحرس أشياءَه رجل شيخ كاهن، لا عمل له إلا تطبيب البنات، إن مرضت واحدة منهنَّ، والصلاة بهنَّ في الميقات، وتعليمهنَّ ما تجب معرفته من أصول العبادات.

وكان الزاد يُحمل إلى البنات في كل ثلاثة أشهر مرة، فتأتي سفينة كبيرة مملوءة من الذخيرة، فتودع ذلك كله في الجزيرة، بدون أن ينزل أحد من رجالها إلى البر، ثم تنثني آخذة عريض البحر.

أما حراسة الجزيرة شرقها وغربها وشمالها وجنوبها، فكان يقوم بها مائة نمر ونمر، من أندر ما أخرجت هاتيك الأصقاع، من هذا النوع من السباع، كلها من حجم واحد، وشكل واحد، كأنما دفعها رحم واحد، صُفر الأحداق بازرقاق، صُفر الجلود بيسير بياض، فيما دون الأطواق، مخططة الظهور بمخطاط قدرة الخلاق، خفاف رشاق، مطلقة الوثاق، لها هنالك على سائر الحيوان الحكم ذو الإطلاق.

وكان في عنق كل واحد منها طوق من الذهب، منقوش عليه بالمينا اسم الفتاة التي هو لها خاصة دون سائر البنات.

وكان بين هاته النمورة واحد، وكان أبيض نقي البياض، ياقوتي الحدقتين، عقيقي حواشي الفكين، دقيق الرأس مستديره، غليظ العنق قصيره، رشيق القامة النضيرة، له سيقان الغزال، وأخفاف الجمال، وإلى مجموع خلقته ينتهي الجلال والجمال. وكانت في عنقه قلادة من الياقوت الأحمر بقفل من ذهب منقوش عليه بالجواهر، هذه العبارة وهي: "ذو الفك العقيقي، خادم عذراء الهند".

وعذراء الهند هذه، هي إحدى الفتيات، ولكنها في الحقيقة مولاتهنَّ، والسبب في وجودهنَّ في الجزيرة على تلك الحال. وهي بنت الملك **دهنش** ملك ملوك الهند الشرقية، جعلها أبوها هنالك في مائة عذراء من أترابها كريمات الملوك والأمراء، وبنات الوزراء والكبراء. وضرب لإقامة الجميع بالجزيرة أجلاً سبع سنوات كوامل، مضى منها ست وبقيت السابعة التي نحن بصدد حوادثها الآن. وكان فعل الملك هذا صادرًا عن نصيحة أحد كبار المنجمين له وإشارته عليه. ولذلك حديث عجيب نسوقه للقارئ مجملاً في هذا الفصل، ليعلم أسباب الغرام المبنية عليه الرواية؛ كيف نشأت وأسرار حوادثه، كيف بدأت فنقول:

كان لـ"**دهنش**" مُلك الهندين يسوسه وينهض به جميعًا. وكانت أعلام سيادته منشورة على ملوك القطرين أجمعين، إلى أن ارتاح **رمسيس الثاني سيزوستريس** ملك مصر، فيما كانت ترتاح إليه همته العلية من كبار المشروعات الفتحية، إلى الاستيلاء على هاتيك الأقاليم،

واتخاذها أسواقًا لتجارات وطنه الفخيم، ومستعمرة جسيمة يُعز بها آية ملكه الجسيم، فغشـيها بالجحافل برًا والأساطيل بحرًا، حتى تملّكها قسرًا، وأخذ **دهنش** في جملة الأسرى.

غير أن فرعون لم يلبث أن شاور في الأمر عقله، ونظر في العواقب نظـر حكمتـه، فرأى أن مُلكًا كملك الهندين محتاج إلى مَلِك يتفرّغ لتدبيره، أو يكون سريره على الأقل قريبًـا من سريره، وأن بقاءِ الهندين في قبضة مصر واستمرار تبعيتهما لملوكهـا العـالين أمـران لا يمكن أن يكونا إلا إلى حين؛ فانتهج تلقاء هذه التأملات سياسة حسنة، بأن جعل الهند الغربيَّة التي هي أقرب إلى البلاد المصريَّة، وأيسر منالاً على سفنها حربيَّة كانت أو تجاريَّة، ممالـك شتى صغيرة من نظام واحد، بملوك مستقلين بعضهم بإزاءِ بعض، ومستظلين تحـت لوائـه، يقدمون له الجزية، ويمهدون السبيل لمتاجر النيل. ثم أنعم على **دهنش** بالهند الشرقية جمعاء، يستقل بملكها ويحكم بلادها كيف شاء.

وكان **رمسيس** قد استصحب معه في تلك الحملة الكبرى ابنه ولـي عهـده الأميـر **آشيم**. وكان في بداية صباه، وكانت مع **دهنش** فتاته عذراء الهند، وكانت طفلة كذلك، فلما رد فرعون عليه مُلْكه، وأعاد إليه بلاده. دخل عليه في آله ورجاله يؤدون شكر إحسـانه الـذي لا يؤدي. فكان أول من ابتدر لثم نعاله، عذراء الهند على صغر سـنها، وقصـور إدراكهـا. فأعجبه ذلك منها واستلطف روحها ومنظرها، فطلب إلى والدها أن تبقى مع **آشـيم** تؤنْسـه ويؤنسها مدة إقامته القصيرة بالهند.

فكان من عواقب هذا الاجتماع، أن الطفلين انجذب أحدهما إلى الآخر انجذابًا شـديدًا. وصادف الهوى فؤادين ناشئين خاليين، فدب، فدرج، فتمكن. فلما افترقا لم يفترق، بـل وجـد حافظًا من مزاج الفتى والفتاة، فراح ينمو في فؤاديهما مع الحياة. وهكذا الحب بعضـه مـن المهد إلى اللحد، ومنه ما يلبث يومًا أو بعض يوم (الخفيف):

**نظـــرةٌ فابتســامةٌ فســلامٌ فكــلامٌ فموعــدٌ فلقــاءُ**
**ففــراقٌ يكــون منــه دواءٌ أو فــراقٌ يكــون فيــه الــداءُ**

نعم كان من الفراق لذينك العاشقين داء. ومن ملحقاته ألف داء. خصوصًـا عـذراء الهند؛ فلقد كان يزيدها ألف هم على همومها، أن والدها لما ذهبت السيئات عنه، وعاد فاطمأنّ بالملك والأحباب والوطن، بدأ يقتني **لرمسيس** الموجدة والعداوة، ويذخر له الضغائن والأحقاد. فكان كلما تجدد تذكار ذلك العار، عار الهزيمة والانكسار، تجدد في نفسه الأمل بأخذ الثأر، ثم يدرك أنه يروم المستحيل، فيركن للحقد مطيَّة غير الـراكبين، وسـلاح العُـزّل المغلـوبين (المتقارب):

**رأيــت الجُنــون جــديرًا بــه حريّــا أخــو المهجــة الحاقــدة**
**ســلاح ثقيــل بــلا مضــربِ وحمــلٍ ثقيــل بــلا فائــدة**

وكانت الفتاة تلحظ ذلك من أبيها، وكلما أَلْفَتْه مملوءًا من البغضاءِ نحو والد الحبيـب، راحت مملوءة القلب من اليأس، تخفي في نفسها وتكتم في صدرها وتضغط على سرائرها في هوى الأمير أن تنهك. ولكن النفس البشرية وإن كان دُونها في كثير من قواها الأدبيَّـة، تلـك القوة الهائلة السارية بالوجود، المتدفقة بالبروق والوعود، فإنها تصطدم باليأْس، فتنخذل، كمـا تصطدم بالمرض فتموت (الكامل):

**شَـيئان فَـوق قِـوى النُّفـوس كِلاَهُمـا رَدْعٌ لَهَـا وَوَقّـى مِـنَ الطُّغْيـانِ**
**اليـأْسُ وهـو لَهُـنَّ مَـوْت أَوّلٌ والـدّاءُ وهـو لَهـا الحسـام الثـاني**

وفي الحقيقة، فإن عذراء الهند لم تلبث أن غلبتها بوادر اليأس على كل ذلك الثبـات، فذهب الصبر عنها وبان، والجلد المدخور ولّى وخان، فمرضت فطالت أيام المرض وخفيـت أسبابه، واشتكلت أعراضه، وشاع الخبر، وأراب الأمر وتكلم الناس.

وكانت الأميرة واحدة **دهنش**، التي لم يكن يُعطى عنها صبرًا، ولا يقبل فيها ولا ملك النيل مهرًا؛ فكيف إذا علم أنه ابن عدوّه الظافر، وخصمه القوي القاهر، الذي لا يدري إن هو خطبها لفتاة، أعطيها عفوًا أم أخذها قسرًا؟

فكانت كل هاته التأملات تملأ قلب الفتاة مهابة من الأمر، وتجسم بعينيهـا العواقـب، فتستصعب الإقرار، وتُشفق من تبعاته، ولا تُقدم عليه تاركة والدها الأسيف يشـقى ويعـذّب، ويذهب من مداواتها في غير مَذْهب، فكلما عرضها على أطباءِ الهندين حار الأطباء، وخانتهم العقاقير، فيلوي على السحرة فيستفتيهم، فيحيلون على أصحاب الجن، وهؤلاء يبرئون الجـن ويتهمون الأفلاك، فيجاءُ بالمنجمين، فلا يزيدون المَلك بالأمر علمًا.

ثم ما زالت الأيام تتعاقب، والليالي تختلف سودًا على ذاك الوالد المحزون، والمـرض ما زال، والبنت بحالتها غادية على خطرين، من موت وجنون إلى أن أخطر بعـض النـاس على بال الملك **شنو** أكبر أطباءِ الصين، وإمام منجميها الراسخين، وكان مغضوبًا عليـه مـن ملكه مودعًا في السجن من سنين، فتذكّر **دهنش** أن **شنو** هذا كَثُرَ مـا صَـدَقَهُ الروايـةَ فـي جسيمات المسائل. وقام له في المهمات، بالخدمات الجلائل؛ فأنفذ إلى صاحبه ملـك الصـين رسالة يقول فيها:

"من **دهنش** سلطان القطرين وملك ملوك الهندين... إلى ابن السماء وسلالة الخـواقين العظماء، ذي الملك الواسع والعرش المكين، الملك **تيتو** ملك ملوك الصين:

"أما بعد، فإن الملوك بالملوك، وإن العلماء نجوم الإشراق، التي لا تختص بها آفاق دون آفاق، وقد علمت أن **شنو** إمام منجمي الصين. مغضوب عليه منك مودع في السجن من سنين. فجئتك شافعًا له، وطالبًا أن تسيّره إليَّ، فإني مستفتيه في علة عذراء الهند التي تشتد بها، وتتهدد أيامها والسلام.

**التوقيع**

**دهنش ملك ملوك الهندين**

فحين وردت هذه الرسالة على ملك الصين، عفا عن طبيبه ومنجمه **شنو**، ثم حمَّله الجواب على ذلك الكتاب، ورحَّله معززًا مكرمًا إلى عاصمة المملكة الهندية؛ حيث بولغ له في الحفاوة، وقوبل بمجالي الاحتفال اللائق بمقام العلماء، وأُنزل في قصر الملك ضيفًا كريمًا عليه، فعكف أيامًا يخبر أحوال الداء، ويسبر أغوار تلك العلة العسراء، بدون أن يدرك غايتها علمه، أو يصل إلى كنهها فهمه، وهو كلما خلا إلى الأميرة احتلال. وأكثر السؤال، عسى أن تقر أو لعلها تبوح بالسر، والفتاة لا تزداد إلا تماديًا في الجحود وتصميمًا على الكتمان.

فلم يجد **شنو** بدًا من الركون للتنويم الذي كان أبرع أهل آسيا في معرفته، وأخذ سرائر الأميرة غصبًا، فلم يزل بها ينومها المرة بعد المرة، وهو يجدها أشد عنادًا في حال النوم منها في حال اليقظة، حتى كلّت روحها وخارت أعصابها وأذعن للقوة عصيُّ العنان، فتحركت الشفتان، وانطلق اللسان، وصادف دخول **دهنش** في تلك اللحظة المكان، ففاجأ ابنته إذ هي منوّمة إذ تقول بأفصح بيان (المنسرح):

**آشيم يا من بحبه نعلو — ومن أديم السهى لهل نعلُ**

**عزت مع الشوق نحوك السبل — وبات صعبًا لقاؤك السّهلُ**

**يا لَيت شعري والبُعد مجلبةٌ — للتَركْ والعيش كله شغلُ**

**أذاكر أنْت أم نسيت لَنا — إذ نحن طفلان والهوى طفلُ**

**إذ تعجب الهند والديار بنا — ويعجب الناظرون والأهلُ**

**وإذ يدب الغرام مجتهدًا — ونحن لا فكرة ولا عقلُ**

**ما نحن قلنا فالحب قائله — وما فعلنا فللهوى الفعلُ**

**وإن نقلنا لبقعة قدمًا — فللهوى لا البقعة النقلُ**

**فإن تكن يا أمير ناسينا — فنحن ما ننسى وما نسلو**

**تلك سماء الهند شاهدةٌ — وأرضها والجبال والسهلُ**

**وأنجم الهند ما طلعن لنا — وما رعتنا عيونها النجلُ**

**إني على العهد ما حييت فإن — خلوت تبقى العهود لا تخلو**

فكان الملك يسمع هذا الإقرار الصريح، وهو حنق هائج، لذكر اسم **آشيم** ابن الخصم الأشد، والعدو الألد، الذي ما من صداقته بُد. وكلما همَّ أن يقطع على النائمة كلامها، أو يكدر عليها أحلامها، منعه الطبيب مخافة أن يعجل ذلك للفتاة حمامها، إلى أن باحت بسرائرها من أولها إلى آخرها. ولم يبق سوى تنبيهها ورد الإرادة إليها، فالتفت **شنو** إلى الملك قائلاً: إن كنت يا مولاي تريد حياة الأميرة ولا تريد قتلها في هذا الشباب الغض، والعمر النضير، فاكتم عنها خبر ما رأيت وما سمعت، لأنها إنْ علمت أن أحدًا وقف على سيرتها، أو اطلع في الغرام على سريرتها، راحت بِشَرِّ حالة، ثم هلكتْ لا محالة. قال: ولكنني يا **شنو** لا أطيق أن تعيش ابنتي على عشق ابن عدوي، ولا أن تموت عليه. فصف لي بحقك حيلة، فحيلتي اليوم قليلة. قال: إن الغرام المتمكن يا مولاي لا ينفع فيه إلا العزلة وجوار البحر. قال: إذن فاختر لي مكانًا أجعلها فيه ينفع صحتها ويعصمها من يد **آشيم** إلى حين؛ فأطرق المنجِّم برهة ثم قال: قد وجدت يا مولاي المكان الذي تكون فيه كالشمس في سماء الوجود، ولا تستطيع إلى معشوقها النزول، ولا يستطيع معشوقها إليها الصعود. قال: أين؟ وكيف؟ قال: يوجد يا مولاي على مسيرة أيام من الساحل الجنوبي الشرقي لهذه المملكة، أرخبيل منعزل خشن اللمس من جميع الجهات لكثرة الحجر في مياهه، عزيزة منال المداخل على السفن، ولو أنها من حديد. فلتنتقل الأميرة إلى إحدى جزره، ولتقم هناك سبعة أعوام كاملة، وليرافقها في كل هذه المدة طبيب ماهر ممن تعهد فيهم العلم، وتعرف لهم الإخلاص. لأني أرى الداء متمكنًا من هذا الجسم الناعم، محتاجًا إلى عناية فائقة، وسهر من طبيب حكيم؛ فأطرق الملك برهة ثم قال: اعفني يا مولاي بفضلك، وانظر في أمري بعين عدلك. إنني خرجت من السجن إلى بلادك لم ألوِ على أهلي وأولادي، ولم أتمتع من شميم نسيم بلادي. قال: كل هذا مضمون لك في المستقبل، مأمون ميسور، مع الزمن يهون، وأما الآن فلن يكون إلا ما شئتُ أن يكون. قال الطبيب واحتد بالغضب: إنَّ مولاي وسيدي **تيتو** أولى بي منك أيها الملك، وإنه سوف يعوزه مُنَجِّمه وطبيبه فيسأل عن أمري فبماذا أنت مُجِيبُه؟ قال: ولكنه سامح بك يا **شنو**، إذ وهب لي عقوبة ذنبك، وإن كنت في ريب مما أقول فهذه رسالته أقرأها تخرج من ريبك. فلما اطلع الطبيب على الرسالة أطرق امتثالاً، وانحنى خشوعًا وإجلالاً. ثم قال: الآن أنا لك وإليك، وَوَقْفٌ يا مولاي عليك. قال: إذن فإني ناظر في أمر السفر وتهيئتكم له، تارك لك أنت تدبير الخروج من مياه المملكة، وقيادة الأسطول الذي يسير بكم واختيار الجزيرة الصالحة للمقام.

ثم إن الملك أخذ في العمل بكل خفاء وتستر، ومداراة وتنكر، بحيث لم يمضِ أُسبوع حتى صار الأُسطول على قدم الاستعداد التام، لا ينتظر إلا الإشارة بالقيام. حتى إذا صدرت إليه خفية خرج فأدى المأمورية ثم رجع بسلام.

# الببغاءُ الأسود

كان الفصل شتاءً، وكانت أقطار الهند تتقطر ماءً، أرضًا وسماءً، وأكنافًا وأرجاءً. وقد تملك الضباب الآفاق فأدجت أدجاءً. وتلاه الليل فأضفى عليها من ظلامه رداءً.

وكانت على بعض النواحي الشمالية من أطراف الهند الشرقية غابة عذراء، مُمَدَّة شمّاء، يضيق عن دائرتها الفضاء، وهي مظلمة الأرجاء أبديَّة الأدجاء، لا تغشاها الشمس بصبح ولا يزورها النجم في مساء.

وكان عند مدخل هذه الغابة رجلان ليس ثمَّ غيرهما إنسان، أحدهما عظيم كتلة الجسد في صورة الأسد ذي الأظفار، واللبد مكشوف الرأس والصدر غائبهما في الشعر، وعليه سربال من كتان بالٍ ممسك بحبال، وفي خاصرته اليمنى خزانة سلاح مستكملة أدوات الكفاح، وفي اليسرى خزانة أخرى فيها عدد وآلات ومواد للاستعمال وأدوات، وهو كأنه سارية من اعتدال قامته الوافية. وكان شيخًا يناهز الستين، وإن يكن يراه الرائي فلا يزيده على الأربعين، والآخر فتى شاب في الثلاثين، له أجمل صور الإنسان، وعليه كذلك ثوب من كتان، وهو قد تقلَّد سلاحه، وحمل جرابًا مملوءًا طعامًا وشرابًا، وكانا يتمشيان على المكان، والشيخ يقول للفتى ها نحن قد بلغنا الغابة يا **هاموس**، غابة الببغاء الأسود، الذي يحج إليه ويعبد فصفحًا للسفر عن إساءاته؛ إذ كان هذا اليوم من حسناته. قال: يا مولاي إن كان كنز لا يفنى فالسفر أو كتاب لا يفرغ من قراءته فهذه الأرض. وإني لأعجب للإنسان كيف يخلق كل هذا المُلك لأجله، ويعيش فيه بعقله ثم يموت. وهو لم يجس أديمه برجله، ولم يعرف وعره من سهله. قال: هذا يا بنيَّ أكبر عيوب الأنام، أو هو نقص القادرين على التمام، فإن أكثرهم يفنون أيامهم بالحضر، ثم يتهمون الأعمار بالقصر. وهيأت هيات ما سدّى قُدرت أيام الحياة، وإنما نتوهمها قليلة من سوء استعمال الأوقات، وإنهم يا بنيَّ ثلاثة لا تجتمع المفاخر لأمةٍ حتى يجتمعوا لها: الكرام، والعلماء، ورجال الأسفار. قال: وأنت هي جملة يا مولاي، فأنت إذن أمة في المفاخر وحدك، فأجاب الشيخ متبسمًا ولكني الشقي **طوس.** قال: إنه من كيد الكهنة يا مولاي، إن كيدهم عظيم. قال: خلنا الآن من هذا يا **هاموس** وانظر هل تطلع النجم بعد؛ فارتجل الفتى نظرة في الأفلاك، ثم قال: نعم ظهر يا مولاي وبان. قال: إذن فهلمَّ على اسمه وببركة مطلعه

السعيد. ثم تقدم نحو المدخل فتبعه الفتى يحمل شريطًا من المعدن مشعل الذبال، حيث الاشتعال يضيءُ لهم خلال الثرى، ويكشف من الغابة الجوانب والذرى، وكان يديره للشيخ حيث دار، ويسير به بين يديه أينما سار. وقد مسك هذا ورقة صفراء من البلى مخرقة وهو منهمك يقرأ فيها. فلما فرغ منها طواها بصيانة وألقاها في الخزانة، ثم أخذ في سيره اليمين، والتفت إلى الفتى يقول: سندخل من حيث دخل **يوقو** الصيني يا **هاموس.** قال: وهل لذلك أثر حي على المكان أم أنت يا مولاي تعتمد على الورقة لا غير. قال: تأدب يا **هاموس** إن **يوقو** كان عالمًا، وإن الزمن الذي يفشو فيه الكذب بين العلماء لم يأتِ بعدْ. وإن كنت في ريب مما اقول: فانظر إلى هذا الجذع وهذا الساق كيف يتفاوتان لدى السنين. فهذا له آلاف من السنين، وهذا لا يتجاوز عمره المئين، فهنا لا شك نزل **يوقو** بالبلط وهشم وقطع وحطم ليفتح له طريقًا بين الأشجار. قال: وكم كانت أيامه في غابة الببغاء الأسود يا مولاي. قال: تسعون شهرًا وشهرًا. قال: إنها لمدة طويلة يا مولاي ونحن لنا شأن غير هذا الشأن يضطرنا إلى أن نختصر من الزمان. قال: ليطمئن قلبك يا بني فورأس **آشيم** لا يكونَّن الشهر عندي إلا يومًا، فنلبث ثلاثة أشهر في هذه الغابة التي لو كانت واحدة لسهل الأمر وهان، ولكنها غابات ثمانٍ فيها من كل موبقة زوجان. وبعد ذلك لنا إلى مياه الشمال طريق مختصر بين الرمال نقطعه في سبعة أيام بليال، حتى نبلغ البحر حيث المركب والصيادون على الشاطئ ينتظرون. ثم نقلع قاصدين جزيرة العذارى مطلبنا الصعب الذي سوف يهون.

ثم إنه ابتدر الدخول من ذلك الموضع فتبعه الفتى يحمل الشريط، واندفعا يصلان السرى حثيثًا بين شجر ألفافًا، وأعشاب تختلف أشكالها وألوانها اختلافًا، إلى أن مضت تلك الليلة وانقضت بدون أن يعتري تعويق، أو يعترض شيءُ في الطريق.

فلما أقبل النهار ولم تكن ظهرت له في الغابة آثار، غير تحوّل النبات من السواد الشديد إلى الاخضرار، التفت الشيخ إلى **هاموس،** فقال: أطفئ يا بنيَّ الشريط، وخذ هذا السائل فادهن به أطرافك. واعلم أننا قادمان بعد لحظة على موطن الثعبان الأخضر، وستصادفه في الطريق جماعات على أبعاد، منتصبًا على أطراف ذنبه في صورة أمهات الموز؛ فإياك أن تحتك به في مسيرك، فتقيم علينا قيامة لا طاقة لنا بها. قال: وهل لأجله صنع هذا العطر؟ قال: نعم وإن نكهته تحدث به من الطرب ما يشغله عن أمرنا.

وفي الحقيقة لم يكن غير يسير زمان حتى قدم الرجلان على أمثال جماعات الموز. وكانت في أتم سكون، فما تخللاها وسرى في جوّها طيب ما كانا يحملان، راحت تموج بالمنظر العجب، كأنما أخذها من تلك الروائح طرب؛ فاستمرا في سيرهما آمنين قريرين ببدائع ما يجتليان، والشيخ يقول لتلميذه: تمتع يا **هموس** من رؤية هذه المناظر، التي لم يشهد

الأوائل لها نظائر، ولا أظن أن سيرى الأواخر، ومدَّ معي لقدمك الخطو، واحتمل للسفر، واحمل مشاقه. واعلم أن المروؤة منه، والصبر منه، والشجاعة منه، وهي الثلاثة القائمة بمكارم الأخلاق.

فتشجع الفتى بهذا الكلام، وازداد إقدامًا على إقدام. إلا أنه استأذن أستاذه في تناول بعض الطعام فأذن له، وطلب هو أيضًا شيئًا من الزاد فأكل، ثم عاودا السير يوغلان فيه إلى أن أخذ النهار في الإدبار. وكانا قد بدآ يبتعدان عن أماكن الثعبان، فأشعل الفتى الشريط واندفعا يُتبعان السير سرى موصولاً، فلم يكن نصف الليل إلا وهما بعيدان كل البُعد عنها وبأمان تام منها. ثم إذا هما بأرض خضراء نقية العشب، كأنما أُمطرت أمطارًا أو غسلت مرارًا. فلما غشياها أعجب الشيخ مرآها، فنظر إلى الفتى قائلاً: توسد يا بنيَّ هذا المهاد الوطئ وخذ لبدنك حصته من النوم، وأنا ساهر عليك أحميك واشتغل بمطالعاتي. قال: سمعًا وطاعة، ثم اضطجع فأخذه النوم فنام. وجلس الشيخ عند رأسه ساهرًا ينظر في بعض أوراقه على ضوء الشريط، حتى طلع النهار؛ فانتبه الفتى من رقاده ناشطًا خفيفاً. وقام الشيخ فمشيا يومهما كله بين أكل وشرب وحديث يسيران في أرض كبسط الخز تأخذ القدم منها ولا تأخذ من القدم.

فلما كان المساء، عادت الأشجار فتنكرت دلالة على زوال النهار؛ فأراد الفتى أن يشعل الشريط ليسريا بهداه وفي سناه، فمنعه الشيخ ونهاه قائلاً: لقد أوشكنا أن نلج الغابة الثانية، غابة الثعبان الوضاء. قال: وهل في الثعابين كما في الدود ذو النور المشهود. قال: ولم لا وليست هذه إلا أصغر عجائب الوجود. قال: وما ذلك الثعبان ذو اللمعان؟ قال: شيءٌ يا بنيَّ في حجم الثعبان الأخضر أو هو أكبر. وأما لونه فأصفر. ويقول **يوقو** الصيني: إنه بالنهار جهنمي ثوَّار، وثاب صفار، جواره شر جوار، وإلى لقائه تنتهي الأخطار، حتى إذا بدا له الليل عانق الأشجار، يتدفق خلالها بالأنوار، ثم نام نومة العاشق الممتع بالأسحار. فلو قامت القيامة عند رأسه ما انتبه حي مطلع النهار.

وما استتم الشيخ حتى قدم الصاحبان على منازل ذلك الثعبان، فإذا نوره التام المحيط، خير من ألف شريط، وهو على الأشجار، يرتجل الأنوار، مختلف الصور والأشكال، آخذ من كل فلك في السماء بمثال، وقد انجلت الغابة في رواءٍ فتان، لم يرَ مثله حالم ولا يقظان، فاندفع الرجلان يسريان في كلاءة الليل، وبذمة من ساكن الغاب وأمان، والشيخ يقول للفتى: انظر يا بنيَّ إلى هذا المكان، كيف يتغير من شأن إلى شأن، فبينما هو النهار مسبعة بغير قرار أو كمساكن الجان، إذا هو كما تجتليه الآن، أفق منير الأهلَّة مزدان، يجتازه الطفل على قدم السكينة والاطمئنان. قال: وهل سُرى ليلة يا مولاي يكفي للابتعاد عن موطن هذا الثعبان؟ قال: لا بل هما ليلة ونهار لمن سرى وسار. قال: فما عندنا له من عدد التوقي، فتبسم الشيخ

ضاحكًا ثم قال: سر يا بنيَّ ولا تخف، فمن كان مليك الوجود له تغلبه هذه الدود. وقد أعددت لذلك مسحوقًا يشمه الثعبان، فلا يستطيع إلينا دنوًّا ولا يملك سببًا.

حتى إذا مضى الليل هب ساكن الغاب من نومته فسمعت لذلك ضجة، راحت بها الأرض مرتجة، وماج الجوُ واضطرب الغاب، وسالت بالمزاحف الأعشاب؛ فالتفت الفتى إلى شيخه كالمذعور فوجده ينثر من ذلك المسحوق في الطريق، والثعابين تنفر عنه نفارًا، وتولي من تلك الرائحة فرارًا، إلا أنها كانت تجتمع من بعيد عن اليمين وعن الشمال، وتسايرهما هائجة حنقة، وهي تموج كالجبال، فجد بالفتى القلق وزاد به الفرق، ورأى الشيخ عليه ذلك فزجره قائلاً: ما هذا الجزع يا **هاموس؟** أتشفق من هذه الديدان، وأنت لو فتشت عن أفئدتها لوجدت أن بها منك فوق ما بك منها، فمهلاً رويدًا بعض هذا الخوف، واعلم أن بالعقل قام هذا الوجود، فمهابته منذ البداية سارية في الأشياء، ممتزجة بالغرائز عند سباع الأرض والسماء، يحملها الحي الذي يرزق، وتتشربها النطف التي لم تخلق. فلما سمع الفتى هذا الكلام تقوى جنانه وثبتت الأقدام على الأقدام، ومسخت الثعابين بعينيه حبالاً وكانت جبالاً، فراح متنشطًا في السير لا يلقى لجمعها بالاً.

واستمر الرجلان كذلك يسيران إلى أن ولَّى النهار وبان، وهجر أكوانًا إلى أكوان. وعندئذٍ انقلبت الثعابين على الأعقاب، آيبة إلى مساكنها من الغاب؛ فكف الشيخ عن إلقاء المسحوق ووقف متبسمًا يقول لفتاة: الآن لا خوف علينا ولا نحن نضجر يا هموس؛ فاشعل شريطك وسر بنا في ظلام الغابة الثالثة، غابة الفيل الكسلان. قال: وما ذلك الكسلان أيضًا يا مولاي؟ قال: إنها يا بنيَّ أفيال عراض طوال في أجرام الجبال، ولكن الكسل منها بمكان، فتراها تقضي الأشهر والأيام في مراكزها، ثابتة لا تتحرك، بل قد تتخذ الطير في آذانها وظهورها أوكارًا، فلا تحرّك خرطومها لتذودها، أو لتمنع الحشرات أن تدمي جلودها. قال: إذًا فتلك غابة سهلة المجاز، مأمونة المذاهب على السالكين. قال: نعم كذلك هي. إلا أنها طويلة مظلمة ثقيلة. قال: ذلك لنا فيه يا مولاي ألف حيلة.

أما في جبال الثعابين فالحيلة قليلة؛ فتبسم الشيخ ضاحكًا ثم قال: صدقت يا **هاموس** إن الأمان ألزم حوائج الإنسان، وأطيب المكان حيث كان، فإن بان لا أهل ولا أوطان، ولا حياة ولا وجدان، وهو في الحضر مِنّه، وفي السفر مَّنة وإحسان.

وما هي إلا برهة زمان حتى بدت لهما أشباح الفيلة من بُعد، تموج بها قباب الظلماء، فهزت رؤية ذلك من الشيخ فقال: ألا تبصره يا **هاموس؟** قال: بلى يا مولاي. وإنه لعلي جرم كما تقول عظيم. قال: إذن فعجِّل بنا فورأس **آشيم** لا بِتنا ليلتنا هذه إلا على ظهر هذا الكسلان. قال: وما لنا وله يا مولاي، وهذا وجه الأرض يغنينا عن متون السباع. قال: إنه يا

بنيَّ جبان، والجبان مضيع الجانب، ومطيَّة كل راكب. فلا تنظر إليه عن صفة السباع، وعد هذه الكتلة الهائلة من سقط المتاع، فلما قابلا بعضها وكان في معزل تأملاه في ضوء الشريط فإذا شيءٌ كالجبل، في الضخامة والثقل، تزدحم الحشرات عليه وتحوم صغار الوحش حواليه، مما لم يريا له أثرًا في الغابة الأولى، ولا الثانية؛ فنظر إليه الشيخ نظرة المستزري الحاقر، وهو يقول: يا ضيعة الغابة التي أنت حاميها، يا جبل الشحم. ثم إنه أخرج ذلك المسحوق؛ فنثر منه في الأرض، فطارت كتائب الحشرات عن جلد الفيل، وانفضت جموع الوحش من حوله فرارًا من كريهات الروائح. وعمد الشيخ بعد ذلك للخرطوم فتعلق، ثم ما زال يتسلق، حتى بلغ ذروة الرأس؛ فانحدر منها إلى العريض الطويل، من ظهر الفيل. وهناك نادى صاحبه، فلبى يصعد على عجل ويفعل مثلما فعل، حتى إذا اطمأن بهما المرتقى، جلسا فشعرا بذلك الجبل يميد، فسأل **هاموس** شيخه: ألا تحس بحركة يا مولاي؟ قال: بلى يا بنيَّ ولكنها حركة الجسم بعد الموت، فإني لا أحسب هذا الكسلان إلا أغضبه سوء صنيعنا به فخطا خطوة.

ولما كان النهار، نزل الرجلان من حيث صعدا؛ فانطلقا يجدَّان في المسير والفِيلة تبدو لهما من كل جانب، كتائب دونها كتائب، إلى أن وافى الظلام، فقابلاه بمثل ما فعلا في الليلة الماضية، واستمرا على هذا الحال ثلاثة أيام بليال. حتى خرجا من غابة الأفيال، ودخلا الغابة الرابعة، غابة النمال، فالتفت الشيخ عندئذٍ إلى **هاموس**، وقال: الآن نحن يا بنيَّ في غابة النمل، فلا تنظر إليه عن صغر. فما كل صغير يحتقر، وانظر إليه كيف يأخذ القوت، ويحمي البيوت، ويثبت أمام العدو، حتى يتم له الظفر أو يموت. قال: وهل هو يا مولاي من النوع المعتاد المألوف في سائر البلاد؟ قال: لا بل هو الأبيض ذو المنشار الذي لو سلطت كتائبه على جبل لأصبح هباءً منثورًا. وهو في حجم الخنفساء، ويذكر **يوقو** الصيني أن فيلاً عظيمًا مما خلَّفنا وراءنا طوح به أجله إلى هذه الغابة، وكان **يوقو** على شجرة ينظر. قال: فلم أشعر إلا بالملايين من هذا النمل قد خرجت إلى لقاء العدو، ثم لم أدرِ إلا بالفيل قد قُضِم قضمًا لحمًا وعظمًا، وانصرف النمل من حيث أتى، فنزلت لأنظر فلم أجد للحيوان أثرًا على المكان. قال الفتى: وما عندنا يا مولاي من السلاح لهذا الأبيض ذي المنشار؟ قال: النار ذات الدخان: وإن **يوقو** الصيني لم يلق في غابة من الغابات، عشر معشار ما لقي في هذه الغابة من الصعوبات، فلقد عمل تجارب شتى أخفق في جميعها.

ولو لم تساعفه الصدفة بإخطار ذكر النار على باله، لأقام بهذه الأرض عمرًا متنقلاً من شجرة إلى شجرة، أو منجسًا في صندوقه الحديدي من خشية الأبيض ذي المنشار. قال: إذن ففيم التأخير الآن؟ وهذا الحطب بين أيدينا حاضر ووافٍ بالحاجة. قال: إننا لم ندنُ بعد من

معسكرات النمل، ولا نبلغها إلا قبيل المساءِ، أما الحطب ففوق حاجة الطلب، وسنجده أين التمسناه.

وفي الحقيقة لم تكن أواخر النهار حتى أبصر الشيخ عشرات من النمل تعدو فارّةً أمامه، فصاح بالفتى قائلاً: أوْقِد يا **هاموس**، أوْقد فهذا المخبر قد سبقنا لينذر، فشرع الفتى في الإيقاد، وما هو إلا أن أشعل الحطب أو كاد، حتى أحدق بهما ذلك البلاء الأبيض من كل جانب كتائب تنهال، غير مكترث بالنار ذات الاشتعال، ولا مبالٍ بضوءِ لهيبها المتعالي؛ فأدرك الشيخ من فوره أن النمل لا يرهب النار، ولكن يكره الدخان؛ فأخرج المسحوق بسرعة، وألقى بشيءٍ منه في النار، فذهب دخانًا كثيفًا يتدجى، فلما شمّت النمل منه ولّت الأدبار، واختفت في مثل لمح البصر عن الأنظار.

فخلا الطريق للشيخ وتبعه الفتى يحمل في كلتا يديه النار، واستمرا كذلك يسريان إلى أن بدا لهما النهار، فاتبعا السرى سيرًا غير ذي قرار، حتى تقضي ذلك اليوم أيضًا. وكان آخر العهد بالأبيض ذي المنشار؛ فألقيا عندئذٍ العصا وعمدا لمكان فجلسا يستريحان من عناءِ ما كان، وهنالك خاطب الشيخ الفتى، فقال: اعلم يا **هاموس** إنني ناوأت الحكومات والممالك، وقطعت على الجحافل الطرق والمسالك، ودبرت للملوك كما دبروا لي المهالك، ودخلت على الأسود غابها، ولقيتُ سباع الأرض وكلابها، وحملت الأمراض لم أحسب حسابها، وجبت وحيدًا كل قفر، ورفعت شراع كل بحر، فلا أذكر أنني عرفت لشيءٍ مهابة، قبل عرفاني هذه الغابة، وذلك لا لأن النمل سلطان الحيوانات، أو أقوى كل هاتيك المخلوقات، ولكن لكونه أمة التعاون، والاتحاد، والثبات. وكل واحدة من هاته الثلاث كافية لتهز الأرض، وتقيم قيامة السموات.

ثم إنهما راقدًا على ذلك المكان، فلم ينتبها إلا وقد ظهر الصبح وبان. فتناولا بعض الزاد ثم خفا يسيران، والشيخ يقول للفتى: اليوم نفد يا **هاموس** على الغاب الأسعد، غاب الببغاء الأسود، فاستعد لذلك، فكل العجائب هنالك. قال: وهل بلغناه بعد يا مولاي؟ قال: بل ندخله والضحى. قال: وما عليه من الحيوان؟ قال: بل قل: من الإنسان؟ فالتفت الفتى كالمستغرب الدهش، فعاد الشيخ فقال: نعم يا بني من الإنسان، فإن غابة الببغاء الأسود تأويها من عهد مجهول للعلم، عائلة بشريَّة متوحشة أورثها أبواها الأولان عبادة الببغاء. ويذكر **يوقو** الصيني أنها كانت من ستمائة سنة؛ أي على عهد نحو ألف. ولكنها كانت مبتلاة في زمن وجوده في الغابة، بنوع من الأوبئة خاص بالقردة. وكان يفتك فيها مسرفًا وهذا أغرب ما سمعت للآن، حتى لقد حِرْتُ فما أدري هل الإنسان من القرد أم القرد من الإنسان؟ قال: لعلها

يا مولاي خطرة من وساوس ذلك العالم؟ قال: إن العلماء لا ينطقون عن الهوى، ولا ينبغي لهم ولا لك أن تتهجم على مقاماتهم يا **هاموس**.

وما هي إلا ساعتان من الزمان، حتى غشي الرجلان المكان، فإذا هما بقبة واحدة عظيمة من الشجر المتشعب الأغصان، المتكاثف الأفنان، غائبة الجوانب في الأفلاك، لاحقة الذرى بالسماك، فلما صارا تحتها واطمأن بهما فضاؤها، سأل الفتى شيخه قائلاً: أين يا مولاي ذلك الإنسان؟ إني لا أجد ريحه على المكان. قال: لعله يا بنيَّ لم يحفظ من خلائقه الأولى سوى الجبن. فلما تنشق نسيمًا غريبًا أخذ لنفسه الحذر، فتوارى خلف هذا الشجر. قال: والآن كيف السبيل إلى الببغاء الأسود، ونحن بين خلق من الطير لا يحصى، ومساكن في هذه الذرى الشم لا ترام؟ قال: لقد سألت يا بنيَّ عن الأمر العظيم، فاعلم أن أوّل من وصل إلى هذه القبة واقتنص الببغاء، هو أبو السياح العالم الشهير **تيحو** المصري المنفيسي المتوفى من نحو عشرين قرنًا، وقد فصّل رحلته الفاخرة، وبيّن علمه العظيم في كراسة من ورق البردي، فوقع النصف الأول منها في قبضة **يوقو** الصيني. وكان كذلك عالمًا مولعًا بالأسفار؛ فسافر خلف دليل من ذلك السفر الجليل، حتى بلغ هذه الغابة التي كان من شقاء **يوقو** أن الكلام ينتهي إليها فيما بيده من الكراسة؛ فاضطر إلى الرجوع خائبًا بعد أن كاد يأتي بالمستحيل، لاستنزال الببغاء من أيكه المنيع فلم ينجح فيما حاول.

أما النصف الأخير من الكراسة، فقد عثرت أنا عليه في مكتبة معبد طيبة الأكبر أيامي قيامي بتوكيل هذا المعبد، فأخذته لنفسي وشرعت من ذلك العهد في البحث عن النصف الأول، ولكن بحث اليائس العارف أنه يروم المستحيل، إلى أن كان ما هو معلوم مشهور، من شرائي لتركة **يوقو** الصيني التي نقدت فيها ملك الصين الجاهل ثلاثين ألف حلقة من الذهب، دفعتها من مالي الخاص. فكان من تمام سعدي أنني وجدت بين أشيائها النصف الأول من الكراسة، ومعه كراسة أخرى كاملة من قلم **يوقو** يشرح فيها رحلته ويذكر خيبته، ويودع الحياة ويزعم أنه لما وصل الصين آيبًا من سفره ذاك، شعر على الأثر بانحطاط القوى، ودبيب الفناء، ويختم بالدعاء لمن يقصد بعده غابة الببغاء الأسود أن ينقلب أسعد منه حالاً، وأحسن منهُ مآلاً.

فلما صار ذلك كله في يدي، ودون بعضه يا بنيَّ ملك الدنيا، رحت أحلم ليلي والنهار، بالرحلة إلى هذه الأقطار، واقتفاء آثار أولئك الرجال الكبار، إلا أن الفرص لم تكن تسنح، ولا الصدف كانت تسمح، إلى أن كان ما كان من اعتزالي الكهانة، وانفصالي عن خدمة الديانة، ودفعت بي الحماسة في ولاء الأمير آشيم، ولي عهد بلادنا المحبوبة إلى أن آتي هذه الديار لأسرق عشيقته الأميرة عذراء الهند، ثم أحملها إليه هديَّة من عبده **طوس**، مصحوبة بالثناء

عليه. فرأيت أن نغتنم فرصة استظلالنا بسموات الهند، لنقتنص ذلك الأسود الذي يلقبه **تيحسو** الصيني بالمغني عن سؤال الأفلاك.

وما فرغ الشيخ من عبارته حتى أخذ أولئك البشر المتوحشون ينهالون عليهما من كل ناحية ومكان، وهم في صورة القردة، ولهم خفة المردة. فلما رآهم الفتى تفرغ لرؤيتهم، واهتز إشفاقًا من كثرتهم؛ فالتفت إليه الشيخ قائلاً: تشجع يا **هاموس**، والصق ظهرك بظهري. ثم در معي كيفما أدور، فإنني مُنيمُهم جميعًا في لحظة؛ فأسند الفتى ظهره إلى ظهر الشيخ وجعل هذا يدور، ويكثر الصراخ كالليث الزؤِر، وكلما وقعت عيناه على جماعة من ذلك الإنسان المتوحش راحت نائمة، وهي قائمة، كأنما سُمِّرت في الهوى، أو كأنّ بها سحرًا، فلم تكن لحظة حتى صار أكثرهم في أسر الشيخ وفتاه، وفرّ الباقون مختفين في جوانب الغاب وزواياه.

وبعد ذلك عمد الشيخ لثلاثة من الأسرى، فأطار أعناقهم بضربة واحدة من سيفه المسلول، ثم التفت إلى الفتى يقول: الآن ينزل ساكن السماء يا **هاموس**. قال: وما يُنْزِله يا مولاي؟ قال: رؤية الدماء، دماء البشر، فإن له بها من الكلف والغرام، فوق ما بالفراش من النار ذات الضرام، وفي الحقيقة ما أتم الشيخ هذا الكلام، حتى نزل طائر صغير، كأضأل العصافير، أسود بإنارة، كفحم الحجارة؛ فجعل يدنو طورًا وينأى تارة، ثم غمس في الدماء منقاره؛ فشرب ما شرب، حتى انتشى وطرب، فتقدم الشيخ عندئذٍ نحوه، وهو لا يكاد يملك من السرور خطوه؛ فقبض على الأسود متلبسًا بالنشوة، وكان قد أعد لذلك سلسلة من الذهب طويلة خفيفة، محكمة ظريفة؛ فشد بأحد طرفيها لحم ساعده، وقيد بالآخر الببغاء، ثم حمله على كفه، وجعل يتأمله ويخاطبه قائلاً:

أهلاً بعاشق الدماء، المغني عن استشارة السماء، الطويل البقاء، المنبئ بالرياح والأنواء، المشير أبدًا نحو المشرق بجبهته السوداء، الزاجر عن نزول الدأماء، إذا كان في ركوبها بلاء، الحافظ الكلم المعيدها لمن شاء، متى شاء، المبشر بالضحك، المنذر بالبكاء، الناتف ريشه إذا أحس من أجل حامله الانقضاء.

* * *

## الاستعداد في الهند لاستقدام الأميرة

لقد مضى على إقامة الأميرة في الجزيرة ستة أعوام وبعض عام، قضاها الملك في أسر القلق والأوهام، لا يعرف الراحة ولا يهنأ المنام، من الفكر فيها وفي أحوال ذلك الغرام، وتوقعًا أن يتم بأخذها لعدوه المرام.

وكأنّما كان **شنو** يتمثل مكان الأسى من الوالد، ويرى جيئة الهوادس، وذهابها في فؤاده المشوق الواجد. فلم يكن يدع سفينة الزاد تعود إلا ويحملها من البريد إلى الملك ما يخفف من كربه، ويعيد السكينة إلى ربوعها من قلبه، حتى ولّت السنة السادسة، وهلّت السابعة؛ فبلغ مسامع الملك أن رجلين غريبين متنكري الزي مريبين، قد رؤيا على نقط من المملكة، ثم في العاصمة؛ حيث كانا يجتمعان بأحد بَحَّارة الأساطيل، فلما بلغ **دهنش** الخبر قام له وقعد، وأحدق به الوسواس بعدما كان ابتعد؛ فأقام حكومة العاصمة وسائر قوات الأقاليم في طلب ذينك الرجلين، طلب قوي قادر مطلق في الأحكام، حتى تفرغ الأهالي وضاقت البلاد بالعيون والأرصاد بدون أن يقبض على الغريبين، أو يبلغ **دهنش** منهما المراد؛ فتحول عندئذ غضب الملك كله نحو ذلك البحار المسكين، فلم يغادر صنفًا من العذاب إلا عذّبه به، فلما فتّش فيه وجد نحو ألف حلقة ذهبيّة من العملة المصريّة، وعدد كثير من أواني النبيذ بين ملأى وفوارغ، وكانت كذلك من صناعة المصريين، فجلّت عندئذٍ التهمة وهالت وبولغ للرجل في التعذيب، ولكنه كان خائنًا شريفًا، فلم يزل مُصرًّا على الجحود حتى قتل كخائن مرتش. وهكذا اشتريت ذمة الإنسان في الزمان الأول بالمال محمولاً من أحد طرفي الأرض إلى الطرف الآخر.

إلا أن بريد الجزيرة كان لا يزال يرد كالعادة منبئًا باستمرار استقامة الأحوال هنالك، ومبشرًا بمصير صحة الأميرة من حسنَ إلى أحسن؛ فكان الملك يطمئن بهذه الأخبار بعض الاطمئنان، ويتكل فيما سوى ذلك على السفن العديدة التي كان بادر من تخوفه فبثها في مداخل المحيط ومخارجه، لتحمي الموارد والمصادر، وتكون بالمرصاد لكل فلك عابر، قادم أو مسافر، ثم على مستيقظة الجنود الساهرة، كذلك للمراقبة على الحدود بين مملكته وبين الهند الغربيَّة من جهة، وبين الأولى والصين من جهة أخرى، حتى إذا كان ما بعد النصف من

العام السابع موعد الإياب، وأوان تشريف ذاك الركاب، أسرع الملك يستعد لاستقدام الأميرة، ويهتم لها بأمر ترحيلها من الجزيرة؛ فاختار لهذا الشأن الجليل، أسطولاً من أحسن الأساطيل، ثم انتقى له أخاير الرجال، من بين صفوف البحارة الأبطال، وشحنه بعد ذلك بالذخائر والمهمات، وما يستلزمه حسن الدفاع من العدد والآلات، حتى تم أمره واكتمل، وصار صالحًا للعمل، ولم يبقَ غير انتخاب القائد الذي يحقق الأمل.

وكان لعذراء الهند قريب من خيرة أمراء العائلة يدعى **ثرثر**. وكان ابن أحد الملوك المستظلين تحت لواء **دهنش**، وكان **ثرثر** يحب الأميرة حبًا شديدًا، ويؤانس من والدها الملك الارتياح لمصاهرته، ويطمع منه بالقبول التام إن هو خطبها إليه، نظرًا من جهة لما كان له من المكانة الخاصة في الحب عند الملك، ومن جهة أخرى لكون نسبه العالي يرشحه لهذا الشرف الرفيع، ويجعل له التفضيل على الجميع.

وكان حب **ثرثر** لعذراء الهند صادقًا ثابتًا جنونيًا إلى حد أنه لم يتأثر مثقال ذرة بسوءِ حال الفتاة، ولا بما شاع وذاع وطرق جميع الأسماع من غرامها الهوسي **بآشيم**، وغضب الملك عليها بسبب ذلك، ونفيه إياها إلى مكان بعيد. كما أنه لم يسله بُعْد الأميرة عن عينه كل هاتيك السنين بجزيرة العذاري.

وإذ كان الملك مطلعًا على سرائر الفتى في الحب من أول يوم، واقفًا تمام الوقوف على حركات هذا الغرام وسكناته في كل تلك المدة؛ فقد رأى أن يغتنم فرصة قرب عود الأميرة، ليظهر له ما طالما عقد عليه النيَّة من تشريفه بالمصاهرة، فطلبه من أبيه ثم سلمه أزمة الأسطول، ووعده أنه إن عاد بعذراء الهند سالمة، زوّجه بها قادمة، بحيث تكون الليلة الأربعون، من عودها الميمون، ليلة الزفاف والمهرجان، التي يتم له فيها بالحبيبة القِران؛ فقَبَّل **ثرثر** الأرض وبالغ للملك في الخطاب حامدًا شاكرًا، ومحدثًا بالنعمة وذاكرًا. واستأذن بعد ذلك في السفر؛ فأذن له فخرج فقبض من فوره على أزمة الأسطول. وكان مؤلفًا من سبع سفن كبار، ومن ثامنة فيها المهمات والذخائر، وعليها الأدلاء العارفون بمداخل هاتيك الجزائر، ثم صدرت الإشارة للأسطول بالإقلاع؛ فتحرك فاندفع يشق العباب والتيار، وهو يقف بالليل وينساب بالنهار، إلى أن شارف في اليوم العاشر أرخبيل الجزر الأبكار، وكان الظلام قد هجم يحول دون الاستمرار، فلم تجد السفن بدًّا من الإرساءِ والانتظار، فلوت على أول جزيرة منه فألقت عصا التسيار.

* * *

## عود للصاحبين في الغابة

لما فرغ الشيخ من خطاب الببغاء، التفت إلى الفتى فقال: لم يبق إلا أن ننظر في الخروج يا **هاموس**. قال: فليكن ذا يا مولاي. قال: ولكني لا أحب أن نكون **لتيحو وبوقو** كلبي صيد نصبر على فضلاتهما، ولا نخرج عن مدى خطواتهما، بل أحب أن نبني مثل بنائهما، فإن المجد في الدنيا اجتهاد، وإن الكريم إذا ورث شيئًا أضاف عليه من عنده وزاد. قال: وما وراء هذه المقدمات يا مولاي. فتبسَّم الشيخ ضاحكًا ثم قال: أريد يا بنيَّ إننا نحذو حذو ذينك البطلين، فكما أن الأول أنشأ طريقًا تلك التي جئنا منها، وكما أن الثاني اكتشف لرجوعه طريق الغابات الثلاث نحو الشمال، فخرج منه آيبًا إلى وطنه الصين، كذلك أصبح دينًا علينا نحن المقتفين لآثارهما أن نبحث لنا عن طريق نخرج منه لا يكون هذا ولا ذاك، ليبقى أثرًا طيبًا بعدنا، وبرهانًا ساطعًا على إقدام المصريين. قال: وإني لا أكره يا مولاي أن أكون من العاملين النافعين. قال: إذن فاتبعني. ثم إنه نظر إلى اتجاه منقار الببغاء، وكان موليه شطر المشرق، فتعين عنده الشمال الشرقي، فسار والفتى يتبعه حتى خرجا من غابة الببغاء الأسود، فإذا هما على أرض ذات شجر ونبات، لا تخرج عن صفات ما مر عليهما من الغابات، إلا أنها عطل من الحيوانات نقية من الحشرات، فمشيا فيها بقية نهارهما حتى جاء الليل؛ فأبرز الفتى الشريط ليوقده كالعادة، فمنعه الشيخ قائلاً: إن النور كما يهديك يهدي إليك. وإن الخمول خير ما ارتدى الجاهل المجهول. فلا تظهر يا بني الساكن الغاب قبل أن يظهر لك واحتجب، فإن تسعة أعشار الهيبة في الحجاب.

وفي الحقيقة ما أتم الشيخ كلامه حتى أخذت سماء الغاب تتنكر لناظرها، وتتدجى قليلاً قليلاً، فإذا هي كتلة هائلة سوداء قائمة في الهواء، ثم إذا بهذه الكتلة تهبط بمقدار حتى انكفأت على الأرض فتركتها بغير قرار. فقال الشيخ عندئذٍ للفتى همسًا: لا يلبث هذا الصخر الهابط أن ينام النومة التي ما بعدها قيام. قال: لعلك تريد قتله يا مولاي. قال: ولِمَ لا وليس هو، إن صدق زعمي، إلا غَوّاص المحيط الأكبر، فبطنه المحيط الأصغر، الحامل لمدهشات الجوهر. وإن لنا لجولة فيه نعلم بها ما يخفيه. وكان الطائر في أثناء ذلك قد نام وعلا له شخير شديد كادت له الغابة أن تميد.

فبادر الشيخ إليه بآنية صغيرة فيها شيءٌ من السوائل، فلم يزل يصب منها في منقاره المنفغر، حتى مال رأسه وانطبق فمه وارتخى جناحاه، ثم انقض يخب على الأرض؛ فالتفت الشيخ إلى **هاموس** وكان خلفه قائمًا ينظر. فقال له: الآن نشرع في العمل، فخذ لك سكينًا وساعدني على فتح هذا البطن الجسام، فجرد الفتى سكينه وانكبا على العمل، فما زالا يعالجان ذاك البطن حتى انفتح، فإذا هو كالشكول أو كبطن النعام يحتوي على المعدن وغير المعدن، ويحمل ما يهضم من الأشياء وما لا يهضم، فأنزلا كل ذلك إلى الأرض ثم ابتدراه بالأيدي يقلبان ويفتشان، فعثرا بين تلك المواد على شيءٍ كثير من الحجارة المختلفة المقامات، المتفاوتة الدرجات.

وكان الفتى يغسل والشيخ ينقد فإما إلى الخزانة وإما إلى الأرض. حتى حصلا على كنز من أنفس الكنوز. ولم يكن بقي سوى الفضلات، فنهضا للرواح، ولكنهما ما همَّا حتى عادت السماء فتكدرت ثانية، وشوهدت تلك الظواهر بعينها؛ فصاح الشيخ حينئذٍ بالفتى قائلاً: هذا الذكر يتنزل يا **هاموس** فاستل أكبر خناجرك وأمضاها، وقِف بجانبي، فإذا رأيته وقد مست مخالبه الأرض وجناحاه مبسوطان من قوة الهبوط يخفقان، فأطعنه تحت أحدهما، وخل الآخر، فإني مُمَكّن منه خنجري قبل أن يتمكن من النظر إلى رفيقه، ورؤية ما حل به، فيهيج فنقع معه في حرب وكرب.

وما فاه الشيخ بهذه الكلمات حتى بلغ الطائر الأرض. فما كاد يطمئن بحيزه العظيم منها حتى سأل الشيخ الفتى: كيف طعنتك يا **هاموس**؟ قال: من المذيبات الحديد يا مولاي. قال: إذن فتقدم فقد هلك هذا الآخر أيضًا وآل إلينا كنز جديد. ثم إنهما انبريا يفعلان به كفعلهما بالأول، فبينما الفتى يلتقط وينقي ثم يناول الشيخ وهذا يأخذ، أو ينبذ، دفع إليه **هاموس** بلؤلؤة صفراء بلمعان الذهب، ولها شكل البيضة الصغيرة وحجمها. فحين وقع نظره عليها لم يتمالك من فرحه أن صرخ قائلاً: أتدري قدر ما ناولتني يا **هاموس**؟ قال: وما عساي ناولتك مما فات التفاتي قدره يا مولاي. قال: يتيمة الصين المحتجبة منذ آلاف السنين. قال: وأين كانت قبل طول احتجابها؟ قال: في صدور الملوك والسلاطين، يحملونها فتكسو وجوههم أزين اللون وأجمله. كما أنها تكسب الثياب لمعانًا لطيفًا، فإذا رأيتها حسبتها مزرَّة على النجم الساطع. وكذلك هي تداوي من عشق الحسان، فإذا حملها إنسان، وكان مصابًا بهذا الداء القتّال، انصرف عنه مع الزمن وزال. فكأنما يتسلى بجمال، عن جمال، ويتعوض باشتغال، عن اشتغال. ويزعمون أيضًا أنها كانت حجاب هيبة وجلال، وسعادة وإقبال، لبيت من البيوت المالكية في الصين قديم خال، فلما فقدت أخذ ملك الصين في الاضمحلال، ووقعت البلاد من ذلك الحين في شر حال. فأنا لو حملتها اليوم إلى ملك الصين لأعطاني بها الجبال، الشم من

المال. فإن استزدت شاطرني ملكه الواسع مرتاحًا غير قال. فمرحبًا بك يا يتيمة الصين وأهلاً وسهلاً بهذا الحباء السماوي الثمين. ثم إنه لف الدرة بصيانة، ووضعها في جانب خاص من الخزانة، ونهض بعد ذلك فسار، ومشي الفتى يحمد مع شيخه الأسفار، وقد ثبت عنده أنها خير الحبائل لصيد محاسن الصدف، واقتناص عجائب الأقدار، إلى أن راح الليل وجاء النهار، وإذا الغابة خالية الجو لهما صفر من الوحوش والأطيار؛ فاستمرا في سيرهما آمنين ناشطي الأقدام، فقضيا نهارهما ذلك في طعام ومدام، ومشي وكلام، حتى وافى الظلام، فقابلاه على ذلك الغاب الأمين بطيب المنام.

فلما أصبح الصبح انتبها من رقادهما، وكانت الغابة قد أخذت تتبدى لهما في مظاهر غير تلك المظاهر، وتتبدّل أمامهما مناظر من مناظر؛ فأدرك الشيخ حينئذٍ أنهما يفدان على غابة جديدة، فنبّه الفتى لذلك ثم قال: لم يبقَ ما لم نصادف غير النمر مع كونه حيوان الناحية، وطامة الهند والداهية. قال: لعل هذه غابته يا مولاي. قال: لعلها يا **هاموس**. وإني أكاد أحس سره في المكان. قال: وهب أنها غابته، وأنه خرج إلينا فبماذا نحن ملاقوه يا مولاي. قال: بالخناجر الماضية يا **هاموس**.

وبينما هما كذلك في ذكر النمر يتوقعان ظهوره، تقضى الشيخ نظره الحديد فرأى حيوانين صغيري الحجم أسودين يقبلان من جوف الغابة؛ فأشار للفتى أن يستعد قائلاً: هذا هو النمر الرهيب يا **هاموس**، لُقب بذلك لأن النمورة على اختلاف أنواعها وأجرامها ترهبه على قلة حجمه، وتجفل عن لقائه، ولا تملك لمفاصلها شدًا أمام نظراته الجاذبة المؤثرة. ولا أحسب هذين إلا ذكرًا وأنثى فتكفل أنت بأصغرهما. [أ] وهي الأنثى وخل لي الآخر. والآن دعني أطعنهما بالرعب قبل طعن الخناجر.

ثم إنه انبرى هائلاً كالصخرة فجعل يهدر يمنة مرة ويسرة، ويبعث الزائرة، بعد الزائرة، والخنجر بيمينه يتوقّد كالجمرة، حتى إذا ظهر الأسودان، وبان كلاهما للعيان، صرخ الشيخ قائلاً: إلق كلبتك يا **هاموس** فطار الفتى نحو الأنثى، وابتدر هو لقاء الذكر فبلغه في وثبة، وكان كأنه الثعبان النافر، استجماعًا وقيامًا يلحظ الشيخ شزرًا بعينيه تتدفقان جمرًا، وبين فكيه جهنم الحمرا، وهو حنق ثائر يزأر زأرًا. فما زال الشيخ به يزائره ويشابه ويداوره، حتى تمكن من ظهره؛ فأنشب فيه خنجره، فخر الحيوان على الأرض هدًّا، فتركه كذلك شيئًا، ليس بالحي، ومشي سريعًا نحو **هاموس** لينظر كيف حاله مع الأنثى، فإذا هو لا يزال معها في قتال عنيف. وقد ظهر على ساعديه الكلال، فأومأ إليه أن يكفّ فكَف. وأخذ هو محله في الصف، وكانت الخبيثة قد وهنت قواها، وأوشكت أن يخذلها ساعداها، فلم يقتلها الشيخ، ولكن أسرها، فاستغرب **هاموس** فعله وسأله قائلاً: ما نفعها يا مولاي حتى تكلفنا عناء سحبها

وحبسها؟ قال: إننا سنطلقها يا **هاموس** إذا حققنا أن لها صغارًا ينتظرون أوبتها انتظارًا. قال: ومتى رؤي أو سمع أن السباع تُؤسر ثم تطلق. قال: ليس الجبن مني بهذا المكان حتى أرهب فريستي أو أهاب أسيري، وليست المروءة بضائعة عندي إلى هذا الحد حتى أظلم صغار هـذا الحيوان: (الخفيف):

**إن تَكُـن ظَـافرًا فَكنـه برفـقٍ — فَشُـجاع بغَيـر رِفـق جبـانُ**
**إنّ عنـدي لكـل شـيءٍ تمامًـا — وتَمـام الشّـجاعة الإحسـانُ**

ثم إنه سار يسوق أسيره بين يديه **وهاموس** خلفهما يكثر التعجب من الأمر حتـى إذا قطعا مسافة عظيمة من الطريق شعر الشيخ بالنمرة تجاذبه الحبل بقوة نحـو اليمـين، فنّبـه **هاموس** لذلك ثم أطلقها، فإذا هي قد أخذت اليسار تعدو عدوًا حتى تـوارت عـن نظريهمـا فتركاها وشأْنها واستمرا في سيرهما. فسأل **هاموس** عندئذٍ شيخه قائلاً: ما بالها يـا مـولاي أخذت اليسار وقد كانت تجاذبك الحبل نحو اليمين؟ قال: إنهـا كانـت تصـرفنا عـن منـاخ صغارها، وهذا يا بني من غريب الحنان عند الحيوان؛ فالشفقة عنده مبصرة بقـدر مـا هـي عمياء عند الإنسان.

وكان النهار قد فني أو كاد ووجوه الغاب قد أخذت تتصور صورًا جديدة، فصـارت الأرض رمليَّة صفراء، وكانت طينة سوداء، وتَحول الشجر من الطول للقصر، وظهـر فـي الصغر بعد مظهر الكبر. وأخذ يقل بعد الكثرة، ويتعوض عـن لـون الأخضـر بالصـفرة، وانكشفت لناظرها السماء، وسري نسيم الدنيا في ذلك الفضاء، فالتفت الشيخ عندئذٍ يقول للفتى: لقد أوشكنا نستقبل سماء الدنيا يا **هاموس**. ولو شئت وشاءت لك القوى فوافقتني على متابعـة التقدم لأصبحنا وليس قُدامنا إلا فضاء البحر طويله وعريضه. قال: هذا ما ابغي يا مـولاي، فسر بنا على اسم السلامة.

ثم إنه أشعل الشريط وسار يتبع مولاه، ولكنهما ما كادا يحوزهما الفضاء حتى سـمعا زئيرًا يردد من بعيد، فتفرغ الفتى والتفت الشيخ فأجهد أُذنيه، ورمي في فحمة الظلماء بشـرر حدقتيه. ثم قال: تلك أسيرتنا التي مننا عليها بالإطلاق، قد زكا عندها المعروف، فأتت تحذّرنا من محذور، وتنبئنا أن الطريق معمور. قال: وما عسى يا ترى أن يكون على هـذه الأرض العراء؟ قال: ليكن ما هو كائن يا **هاموس**، فورأس **آشيم** لا تزعزعنا ولا تزحزحنا ولا امتنعنا عن السرى، ولا استرحنا أو نرى النهار طالعًا. ثم إنه مدّ لقدمه الخطو يصل السرى، وتبعـه **هاموس** مطيعًا ممتثلاً، فما زالا يعتسفان في بوادي الظلام وبين جيوشه والخيام، حتى انتصف الليل فلم يدريا إلا بشيءٍ هائل كالتل قد أقبل من بعد يسعى. فقال الشيخ عندئذٍ للفتى: عجّل يـا

**هـــاموس** فأنل بطنك ظهر الأرض واعتنقها ثم لا تتحرك، وأنا أيضًا فاعل ذلك، حتى نرى لنا مع هذا التل الزاحف أمرًا.

وما هو إلا أن انطرح الرجلان بتلك الصورة على الأرض حتى مرّ بهما حيوان هائل الجثة في عرض الفيل الكبير وطول أربعة من الفيلة مقطورات، وهو يمر مرَّ الريح، فيسـيل بمزاحفه الغاب، وعلى بشرته الحجريَّة خلق لا يحصى من حشرات البر والبحـر، وهـو لا يحس منها بشيءٍ ولا يستشعر لحملها ثقلاً، حتى إذا صار بعيدًا عنهما نهضـا. فقـال الشـيخ **لهاموس**: إن هذا الوحش بحري بري في آن، وهو لا شك قادم من البحر. ولعل له بيضًا على هذا المكان، فهو يغشاه ليتعهد بيضه، ثم يعود إلى عالم الماء.

والآن إذ قد صرنا ولا مقصد لنا إلا البحر، فهذه خير فرصة تغتنم للاختصـار مـن الزمن وتقريب المسافات، لأن ما نسيره نحن منها في أيام، يقطعه هـذا الفلـك البـري فـي ساعات. قال: لعلك ترى لنا يا مولاي أن نمتطي ذاك الجبل المتحرك. قال: ولِمَ لا وقد سـاقته لنا السعادة مطيَّة لم يركبها قبلنا أحد. قال: أنت يا مولاي كالقائد الجريء السعيد يـراه الجنـد أولى بالطاعة، وإن ضرت منه بالمخالفة، وإن نفعت فاقضِ ما أنت قاض. فإشارتك مطاعـة في كل مقترح.

قال: إذن فاستعد لما أشرت به، فإذا رأيت الوحش وقد دنا منا عائدًا من مبيتـه فثـب فتعلق فاركب، ثم يكون لنا نظر في الطريق التي يأخذها نحو البحر، فإن كانت شماليَّة غربيَّة بقينا على ظهره، وإلا نزلنا نمشي ولم نكن خاسرين.

وفي الواقع لم يكن الفجر حتى ظهر الوحش آيبًا من مبيته، وكأنما يقصد إلى البحـر. فابتدر الرجلان لقاءه، فنالا ظهره في وثبة، فاستمر يجري بهما في رمال حالية بلألاءِ الفجـر وضاءة الخلال منحدرًا في جريه نحو الشمال، حتى إذا كان الصبح فالضحى فالظهر، لم يشعر إلا بموج المحيط يتعالى من بعد كالجبال؛ فترجل عندئذٍ الشيخ ونزل **هـــاموس** علـى أثـره. وهنالك افترقا فأخذ أحدهما بين الساحل وذهب الآخر يسرة وكلاهما غـادٍ يجِـدٌّ فـي طلـب المركب والصيادين، ولكنهما ما اندفعا يسيران حتى أبصرا معًا شبحًا يتقدم تحت سماء البحر، فوقفا كلاهما يجهدان النظر حتى إذا حققا أنها ذات شراع تنشطت الماء ووافت تحتـال علـى الإرساء، انثنيا عائدين أحدهما للآخر، فأقاما ينتظران ما يكون مـن أمرهـا إلـى أن نالـت الشاطئ، فنزل منها رجل أسمر اللون أجرودي، ضيِّق العينين بحياة فيهمـا، عظـيم الـرأس قصير القامة، عبل الساعد، ممتلئ الأكتاف، وعليه ثوب من الكتان يبتدئ من مرفقيه وينتهـي إلى ركبتيه.

فلما رآه الشيخ يتقدم تبسَّم ضاحكًا، ثم قال **لهاموس:** هذا صاحبنا **بلباص** يسعى إلينا، فدعنا نلقاه بشيءٍ من المزح. وكان الرجل قد دنا فخاطبه الشيخ قائلاً: ما هذا الإبطاء يا **بلباص؟** قال: لم أُبطئ، ولكن تعجّل حضوركما يا مولاي. قال: وكيف حالك وما يصنع رجالك؟ قال: لا أكاتمك الحقيقة يا مولاي، لقد لقيت من سفري نصبًا، وأُقسم لولا أنني أخافك حتى في أعماق هذا البحر، لفضلت الهلاك بتياره، والثواء بقراره، على البقاء ساعة واحدة في هذا الفلك، وبين هؤلاء الهنود. قال: وما صنعوا بك مما أغضبك إلى هذا الحد؟ قال: بل أنا أشكو من قذارتهم لا غير يا مولاي، فإنهم كالسمك المنتن البائت الذي يصبح فوق ما يمسي، فراح الشيخ مغربًا في الضحك. ثم قال: أنزل أولئك المقاذر إلى البر، فإني مداويهم لك يا **بلباص**. قال: سمعًا وطاعة يا مولاي. ثم نفخ في بوقه فأقبل أربعة من المصريين أعوانه الخصوصيين، واثنا عشر آخرون من هنود الشمال لهم جسوم الأطفال، وعليهم ثياب واسعة بأكمام طوال، وهم يثبون كالعفاريت ويضطربون كالظلال؛ فمشى الشيخ حينئذٍ نحو الماء والجميع يتبعونه، ثم تجرّد عن ثيابه ونزل فنزل **هاموس وبلباص** والهنود على أثره لبثوا برهة يغتسلون، ثم خرجوا من الماء فتردوا ثيابهم.

وسار الشيخ بعد ذلك بهم إلى السفينة، فاندفع يأخذ من الماء ويغسل وأيدي القوم إلى يده بالمساعدة حتى نظفت تمام النظافة؛ فالتفت الشيخ عندئذٍ إلى **بلباص** قائلاً: ها قد أرحتك من تلك الروائح يا **بلباص** فهل أنت مجازيني بشيءٍ تطبخه لنا يلذ طعمه ويسهل هضمه، فإن عهدي بالطيبات من طبخ يدك عهد طويل؟ قال: قريبًا وسهلاً يا مولاي. ثم أسرع إلى مخزن السفينة فأخرج منه سلة سمك من صيده، فشوي منه شيئًا، وسلق شيئًا، وأخرج كذلك شيئًا من النبيذ. ثم قدَّم ذلك كله للشيخ، فدعا هذا أصحابه وجلس الجميع يتعشون حتى إذا فرغوا من أكلهم وشربهم وتوسدوا الرمال فباتوا ليلتهم تلك ناعمي البال. وقد ضربوا الفجر موعدًا للإقلاع على كل حال.

* * *

# فيما كان من أمر الأسطول

تركنا الأسطول وقد ألقى المراسي ينتظر النهار على الجزيرة الأولى من أرخبيل الجزر الأبكار. والآن نذكر ما كان من أمره فنقول:

كان قد مضى من الليل نحو ثلثه فأخذ النوم يطمئن بمقاعده من الأجفان، ولم يبقَ من ناس الأسطول مَنْ لَمْ يَنَم إلا جماعة الأدلاءِ. وكانوا في السحر على ظهر السفينة، سفينة الذخائر، وكانت في معزل، فاتفق أن أحدهم ارتجل نظرة في الأفق، فلاح له ضوء نار يخفق من بُعد على فضاء الجزيرة؛ فاستلفت أنظار أصحابه إلى ذلك، فلم يَهزهم الأمر بادئ بدءٍ، بل استمروا في مجلسهم يتسامرون إلا أن كبيرهم ما لبث أن استحوذ عليه القلق، فخاطبهم قائلاً: ماذا علينا يا قوم إن نحن مشينا إلى هذا الضوء لنكشف ما وراءه، فإن كان خيرًا كانت رياضة لا بأس بها، وإن كان شرًا نبهنا إخواننا رجال الأسطول لموضعه فنكون قد أدينا واجبًا من ألزم واجبات الجند بعضهم نحو بعض. قالوا: حسنًا ثم بدروا إلى البر من لوح مدوه للنزول عليه، وكانوا أربعة فمشوا قاصدين وجهة الضوء حتى إذا صاروا على قريب مسافة منه، سمعوا غناءً ورأوا على المكان ناسًا في لهو وطرب وشرب راح، فأكثروا التعجّب لذلك، واستأخروا يتهامسون. فقال أحدهم: لا أرى هؤلاء إلا صيادين أضلهم البحر. فقال آخر: نعم من متوحشة الصيادين الشماليين، فهذا الزي زيهم وأنا أعرفه. قال الثالث: ولكنهم سكارى ولا يؤذون. فقال الرابع: إذن فلنتقدم إليهم لننظر، فتقدم البحارة الأربعة حتى شارفوا حلقة القوم فحيوهم، فردوا التحية هادئين مطمئنين لا نافرين ولا وجلين.

فسألهم أحد البحّارة: من القوم ومِن أين وإلى أين؟ قالوا: صيادون أضلنا الليل، فاتخذنا هذا الساحل مبيتًا، وسنقلعَ والصبح قاصدين الشمال. قال: إذن فواصلوا أنسكم وتمتعوا مما أنتم فيه من اللذات. قالوا: وهل لك وإخوانك في مشاطرتنا صفو ما نحن فيه؛ فالتفت البحار إلى أصحابه فآنس من لحظاتهم الموافقة، فلبّى الدعوة عن نفسه وعنهم، ففسح لهم الصيادون من مجلسهم فجلسوا، وجعلت بين أيديهم قدور ملأى من النبيذ المصري، وكان في بلادهم يساوي وزنه ذهبًا، فلا يقتنيه إلا الملوك والأمراء، ولا يسرف في شربه إلا الخليعون من كبار

الأغنياء. فلا تسل عن فرح البحارة بما أوتوا، ومهد عذرهم إذا هم باعوا الوظيفة والأسطول، ومن فيه بلذيذ ما في القدور.

وطفق الصيادون يُجزلون للإدلاء من بنت العنب، وما يقتضيه مجلسها من اللهو والطرب، حتى ارتفع الحجاب من نفسه وزالت الكلفة، وذهب الوقار وغلبت الخمر البحَّارة على شعورهم، فباحوا للصيادين بسر المأمورية بعد أن حدثوهم حديث عذراء الهند من أوله إلى آخره، وعرفوهم بوظيفتهم في الأسطول، وأنهم أدلاؤه الذين بهم في البحر اهتداؤه، وأن بأيديهم وحدهم مفاتيح الأرخبيل، وعندهم دون سواهم أسرار مداخله التي فيها من الصخر الغائص في البحر الغائب، تحت صفحات الماء ما يجعل جزيرة العذارى أبعد منالاً من الشمس في كبد السماء.

فلما أخذ الصيادون السر جميعه انفصل اثنان منهم فابتعدوا قليلاً يتساران. فقال أحدهما للآخر: ما بال الرئيس أبطأ ففي العود فإن له يومًا وليلة متغيب يكشف المواقع وينظر له طريقة نحو الجزيرة. قال: وما عسى أن يكشف أو ينظر. وقد سمعت ما قال الأدلاء. وهو لو حضر الآن لتركنا الأسطول في نومةٍ تكون طويلة، ثم سرنا مهتدين بهؤلاء البحارة فلا يمضي يومان إلا ونكون في الجزيرة. قال: نعم حضورهُ الليلة ضروري لنجاح المشروع، لأن قدوم هذا الأسطول لم يكن منتظرًا، ويخشى أن يسبقنا إلى الجزيرة، فيفسد علينا أمرنا وتذهب كل هاتيك المشاق أدراج الرياح.

وبينما الرجلان في الكلام أبصرا شبحًا يتقدّم تحت سماء الليل، ثم سمعا حركة فلك تمخر فقالا: هذا لا شك الرئيس. فلنبادر إليه بالبشرى، ثم توجها اتجاه الفلك من الساحل. وكان أصحابها قد لحظوهما من بعد. فما هي إلا هنيهة حتى جمع البر الجميع. وكان أول من نزل إليه الرئيس. فأقبل على الرجلين حنقًا هائجًا. يقول: ما خطب هذه السفن يا **بلباص** وهل خطر ببالك أن تكشف حالها أم أنت لا تدري من الأمر سوى الغناء وشرب الخمر ولا تأتي من العمل غير النوم الطويل والكسل؟ فأجابه: عفوًا يا مولاي فإننا ما خففنا إليك إلا لنكلمك في هذا. ولنبشرك بقرب الحصول على المأمول. قال: وما ذاك؟ فأخذ يقص عليه الخبر، وما كان من أمر الأدلاءِ ومجيئهم من تلقاءِ أنفسهم، وشربهم معهم وإذاعتهم بعد ذلك سر المأمورية القادم من أجلها الأسطول.

فحين سمع الرئيس هذا الكلام تحول عبوسه بشرًا وبشاشة. وقال: الآن نجحنا فيما نحاول. فلقد كنت أختبر المواقع وانظر في كيفية اجتياز الأرخبيل، فوجدت أن لا غنى لنا عن الدليل، وإلا لزمنا أن نطوف حول هذه الجزائر كلها، وأن نأخذ في مسيرنا عريض البحر، فلا ندنو من الأرض تجنبًا للأخطار، والتقاء كامنة الصور والأحجار، وهذا سفر طويل شاق،

يستغرق نصف عام على الأقل. أما الآن وقد وقع هؤلاء الأدلاء في قبضتنا، فقد فسد الأمـــر على رجال الأسطول، وخابت مساعيهم، فاذهبا توًا فأوعزا إلى إخوانكم بالقبض على البحـــارة قبل أن يميتهم السكر، وشد وثاقهم وحَمْلِهَم إلى هذه السفينة، وليركب فيها جماعة منكم معـــي. أما الباقوم فتذهب بهم أنت يا **بلباص** إلى السفينة التي كان فيها الأدلاء، لأن فيها عادة تكـــون المؤن والذخائر. وإن نحن أخذناها أيضًا تركنا الأسطول بغير قوتٍ، فلا يجد حينئذٍ بـــدًّا مـــن الإسراع في الرجوع، فخذوها فاسحبوها سحبًا بطيئًا خفيفًا بدون أن تسمع لها حركة تنبه ناس الأسطول لما نحن فيه من العمل، ثم نبتعد بالسفينتين حتى نجيء بعض الصخور العالية ممـــا كشف اليوم فنتوارى منتظرين النهار، ولا نبرح مكاننا حتى نرى الأسطول، وقد سار منقلبًـــا على أعقابه بالخيبة والخسار.

قال: سمعًا وطاعة يا مولاي، وأخذ بيد صاحبه فذهبا فأبلغا أوامر الرئيس إلى ســـائر الجماعة، فقبض للحين على الأدلاء وشد وثاقهم وسيقوا إلى سفينة الرئيس، ثم جـــيءَ بســـفينة المؤَن والذخائر مسحوبة، فركب الجميع وسارت السفينتان حتى بلغتا صخرة صالحة للكمون، فمكنتا ترقبان الصبح أن يطلع لتكشفا ما سيكون من أمر الأسطول.

فلما اقبل الصباح استيقظ رجال السفن الهندية فلم يجدوا لسفينة الأدلاء ولا لهؤلاء أثرًا على الماء، فهالهم الأمر وتنكر لهم الموقف وتمثّل لهم اليأس بكل سبيل، ولم ير الأمير **ترثـــر** بُدًّا من العود لعرض الأمر على مسامع الملك فأصدر إشارته للسفن بالإقلاع، فأقلعت راجعـــة من حيث جاءت بالذل والصغار.

فلما رآها الصيادون وقد انقلبت آيبة خرجوا من مكمنهم، وكان الأدلاء قد اندمجوا في سلوكهم وآثروا البقاءَ معهم بتلك الصفة على الهلاك؛ فمخرت السفينتان تؤُمان جزيرة العذارى من أقصر الطرق إليها بفضل صحبة الأربعة البحارة الأدلاء.

* * *

# الشقي طوس في جزيرة العذارى

كان من عادة الكاهن منذ قدوم الأميرة في أترابها إلى الجزيرة أن يخرج بالبنات مرات في اليوم إلى الصلاة على مكان هنالك مألوف، خالص الجهات مكشوف. وكان البنات إذا فرغن من هذه الصخرة تركن الكاهن عاكفًا على عبادته، مشغولاً بأدعيته، ثم ينثنين لاهيات ناعمات رابعات في ذلك الفضاء، لاعبات حتى مغيب الشمس. وعندئذٍ يدعوهنَّ للمبيت صوت مزمار يترنم به الكاهن، روحاني التحنان، هندي الألحان، موزون المقادير، مقدور الأوزان. فترى الفتيات ينهلن من كل مكان، والنمور في أقدامهنَّ هائمة على الوجوه، تثير الغبار منجذبة كذلك مأخوذة بنغمات المزمار.

فبينما البنات ذات يوم في العبادة، على مألوف تلك العادة، يقمن مع الكاهن صلاة الأصيل، ويقلن هذا الدعاء بترتيل:

بودا يا سماء هذه الأقطار، ويا سورها المُغني عن الأسوار، ندعوك بوادي الأنوار، الذي كرمته بالنمورة السبعة الكبار، الظاهرة الأنياب والأظفار، المحجوبة عن الأبصار، السادية (*) بالليل، الكامنة بالنهار، كما نتوسل إليك بغابة الأسرار، الخالدة الأشجار، المشرفة بثعبان الديار، الأصفر الصفّار، الوثّاب الثوّار، أن تقي الأميرة ما وقيت، وأن تسهر عليها وعلى بناتك العذارى الأبكار.

سمعن صيحة عظيمة آخذة كادت لها كتلة الجزيرة أن تتمزق فتهوي أجزاؤها في أسفل أعماق البحر؛ فالتفتت البنات متفزعات، وإذا هي النمور تزأر جملة، وقد انحدرت كذلك جملة، تترامى جانبًا واحدًا من الساحل، فكأنما تجري هنالك أمور مما لا يستطيع الحارس الأمين المسكوت عنه، فأخذ البنات القلق، ونالهنَّ من ذلك فَرَق، لا سيما إذ كانت تلك أولى نفرة للنمور في المدة الطويلة، التي أقامتها بالجزيرة، حتى لقد كانت عرفت سفينة الزاد توهمًا فاعتادتها فلم تكن تنبحها لا قادمة ولا آيبة.

فلم يكن من حيلة البنات ساعتئذٍ إلا أن تهافتن على الكاهن يجاذبنه ثيابه من الفزع، ولو استطعن لدخلن فيها، فإذا هو كإحداهن طيران فؤاد وارتخاء مفاصل، لا يملك لهنَّ ولا

(*) هكذا في الأصل والصواب "السارية" اتساقًا مع السياق.

لنفسه عصمة من الخوف، فنحن تاركوه والبنات على هاته الحال، لننظر فيما كان يجري مما أطار طائر النمورة فنقول:

كانت السفينتان قد وصلتا الجزيرة بعد يومي مسير، وبعد عناء كبير وجهد كثير، تقلان جماعة الصيادين، وأصحابهم الأربعة الملاحين. فلما رسينا وكان زئير النمور قد دوي في آذان القوم، وغبار هجومها قد سد الفضاء في وجوههم، لم يتمالك الهنود من صيادين وبحّارة أن وقعوا في مثل ما تركنا البنات عليه، من خوف مانع للفكاك، ورعب مفقد للحراك، وبالجملة وقعوا من الفزع في أضيق من الشراك.

وإذا رأى الرئيس ما حل برجاله إلا أصحابه المصريين الذين ثبتوا حافظين لوعيهم أمام هذا البلاء المحدق، عمد لجرابه فأخرج منه ست بيضات من الحجر من طبخ يده، شديدة التوقد، قوية اللمعان، تحسبها نارًا وليست من النار في شيء، فمسك اثنتين منها في يديه، وجعل ينقلهما من يد إلى أخرى بسرعة غريبة، بحيث كانتا تتعددان في رأي العين. ثم قال لصاحبيه **هاموس وبلباص:** خذا هذه البيضات الأربع فاصنعا بها كما أصنع، وانزلا بنا إلى البر غير حاسبين لكلاب الهند هذه حسابًا. فبدر الثلاثة إلى البر يلعبو نبالبيضات في وجوه الوحوش وهي تستأخر بين أيديهم، وتتقهقر أمامهم. وكان الرئيس كلما قابل واحدًا منها نظر إليه نظرة منوّم مقتدر، فتركه مكانه مأخوذًا مسحورًا. وهكذا حتى أتى على النمور جميعًا فكنت إذا رأيتها حسبتها لوحًا متقنًا بديعًا.

ثم صاح بالهنود انزلوا أيها الأصحاب فانظروا ما أصاب هذه الكلاب. فنزل الهنود في الحالة مكثري التعجب مما يرون، خصوصًا بحّارة الأسطول؛ إذ كانوا يستغربون الحادثة، ويكلمون فيها الصيادين فيقول هؤلاء لهم: ليس ما ترون إلا من لعب الرئيس، وإلا فإن له في حال الجد جراب سحر لا ينفد، وكنز علم لا يفنى. كيف لا وهو الشقي **طوس** الذي لا يعرف الغني من لا يخدمه، ولا يدري السعد من لا يلزمه، والجواد الغني الذي فوق أنعم الملوك أنعمه. وحسبكم أنه استخدمنا نحن صعاليك الصيادين في هذه المهمة التي لا تستغرق أكثر من سنة وفقدنا سلفًا جزاء إتمام هذه الخدمة خمسمائة ألف حلقة ذهبية من العملة المصريَّة. هذا عدا الزاد والثياب والنبيذ الغالي الذي نشربه بغير حساب. وإنه لمال لا يتسنى لملك من ملوك العصر دفعه، ولو أنه **رمسيس الثاني سيزوستريس** ملك مصر.

ثم إن الرئيس تقدم بين رجاله متوغلاً في الجزيرة يفتش عن مسكن الأميرة بها، إلا أن الظلام كان يعاكس بصره ويقف له بجداره الأسود دون المعالم والأشباح، فلم يكن منه إلا أن أخرج من الجراب أربعة عيدان صغيرة فأشعل أطرافها، ثم رمي بها في جوانب الفضاء الأربعة، ووقف بعد ذلك ينظر فبدا له من الجانب الأيسر شيءٌ عالٍ كالبنيان، فحول إليه مشيه

موغلاً في السير، وهو من وقت إلى آخر يقذف بواحد من العيدان المعهودة، فيضيء له دجى الليل حتى انكشف له القصر تمامًا. ولكنه لم يكد يبلغه حتى عاد فاحتجب تحت قبة من شبه الضباب الكثيف؛ فالتفت الرئيس عندئذٍ إلى رجاله متبسمًا يقول: لا يَهُلْكم الأمر يا قوم فإن عندي ما أمزق به هذه القبة الخيالية التي لا أحسبها إلا من عمل بعض كهنة الصين الدخيلين في العلم.

وفي الحال تناول من الجراب ربطة عصي كانت فيه، فدهنها بدهان من عنده وتربها بتراب أصفر من تركيبه أيضًا، ثم أدناها من النار فاتقدت أطرافها فقذف بها تلك القبة الوهمية فتبددت للحين. واستمر القوم سائرين حتى وصلوا إلى القصر. وهنالك استقبل الرئيس الباب وقال بصوت عال تميد له الجبال: "يا من حاول أن يعمينا بسحره، عن قصره، فغلبناه على أمره. إن كنت كاهنًا فانزل إلينا آمنًا إني أنا **طوس**، وَلِيّ السعود والنحوس، المنتقم للنفوس، من طائفة القسوس، ولكني أكرمك لأجل من معك فأطعني عسى الطاعة أن تنفعك" فلم يكد **طوس** يستتم حتى فتح الباب، وأقبل الكاهن يمشي على عجل من الوجل انسياقًا بجاذبية ذلك الاسم، كما تنساق الحملان بجاذبية بعض الثعابين الكبيرة، حتى صار بين يديه فانحنى، ثم خاطبه قائلاً: الأمان يا أبا **هاموس** الأمان، فسأله الشيخ مستغربًا: من أين لك أيها الكاهن عرفان كنيتيَّ حتى دعوتني بهما، فاندفع الكاهن يقول: (الرمل):

**عرفتني بك يا طوس النجومْ — مثلما أعلمتني هذا القدوم**
**إنما أنت قضاءٌ واقعٌ — قصرت عن رده مني العلوم**
**هذه الأفلاك سعدًا جريها — لك مقضيًا لديها ما تروم**
**فلك البحر سلامًا تحتها — ولك البلدان تطوى والتخوم**
**ولك الغابات دانت كلها — وعليك الببغا حظَّ يَحوم**
**فابلغ القصد وما تسعى له — وأحمل العذراء في الفلك المشوم**
**ليس في مسعاك من بأس سوى — أن ما تسعى إليه لن يدوم**

قال الشيخ وانذهل انذهالاً: وأنا أيضًا تحدثني خواطري أنك **شنو** الصيني. قال: وهي صادقة فيما تحدث. فمد الشيخ حينئذٍ يده إلى محاوره فصافحه. ثم قال: كيف تصف الفلك بالمشؤوم أيها الأستاذ، وهو الذي يجمع بين الشتيتين ويداني بين العاشقين، ويحمل بنت رب آسيا إلى ابن رب إفريقيا برغم هذين الملكين. قال: مهلاً رويدًا يا **طوس** ولا تجن على عذراء الهند، كما جنيت أنا عليها. فلقد ركبني التسرع والطيش حتى هدمت ركنًا من هرم حياتها، وأنت بهذه النقلة تهدم الركن الثاني. ثم يعيش الهرم بركن واحد معرضًا للخطر وشيك الزوال، وإن كنت في ريب مما أقول: فهذا نجم الفتاة وهذه غلالتها الأولى، غلالة الولادة؛ فاجمع

بينهما، وانظر فأخذ الشيخ الغلالة وجعل يقلبها ويتأملها والنجم معًا، وقد أخذ بشر وجهه يغيض، وصفو حاله يتكدّر، فأطرق برهة، وجبينه يفيض من العرق، ثم التفت إلى **شنو** فقال: صدقت أيها الأستاذ، ولكني سأغلب هذا النجم على أمره وأرد كيده في نحره: (الخفيف)

**أنا طوس مُحْصي الكواكب عدًّا      أنا فوق النجوم أخذًا وردًّا**
**أنا إن شئت بدّل السعد نحسًا      وإذا شئت بدل النحس سعدا**

ثم إنه دخل في مثل الجنون من التحمس، فاستقبل القصر، واندفع يشيد بصوت كادت له الجزيرة تميد. فدان للأميرة أن تبرح الجزيرة إلى فضاء النيل، البلسم الجميل؛ حيث ابن مولى الأرض، في طولها والعرض، من الوجود عبده، والهند طرًا هنده، ومن على الأيدي يده، ومن غد الدنيا غده، السيد ابن السيد **آشيم رمسيس** الغد.

وما فرغ الشيخ من إنشاده حتى نزلت الأميرة هائمة على وجهها والبنات ينهلن على أثرها، ولسان حالها ينشد: (الكامل)

**يا حامل البشرى إليَّ بقربهم      من لي إليك بريشة فأطيرُ**
**كيما أرى في طيب لفظك شخصهم      فهُم على فمك الكريم حضورُ**

ثم وقعت على صدر الشيخ فحملها، ومشي والملأ يسيرون خلفه، حتى جاء إلى حيث ترك السفينتين راسيتين. وكانت النمور ما برحت في أسر النوم، فجدد لها التنويم، إلا النمر الأبيض الذي ميّزه بطوقه فنبهه، ثم ساقه مشدود الوثاق إلى سفينة الصيادين، وركب هو ورجاله والأميرة فيها، ثم أشار إلى سائر القوم أن ينزلوا في سفينة الذخائر، فنزلوا وكان الفجر قد بدا ملتمع الضياء يضيءُ لراكبها الدأماء، فبوشر عندئذٍ بنشر القلوع، فخفقت فيها الرياح تملأُها وتحركت بعد ذلك السفينتان فاندفعتا تشقان العباب.

* * *

# تلاق ولا تلاق

أنا في تطلابه وهو لديّ مطلبٌ مرٌّ ولم يلوِ عليّ
قد تركت الهند أطويها له وهو يطويها وما يدري إليّ
والتقينا ما خطا لي خطوةً لا ولم أنقل إليه قدميّ
بالملكِ راح عني نائبًا كان لو فتشت عنه في يديّ

(الرمل)

كانت مياه الهند من يوم رجع الأمير الغائب بأسطوله الخاسر الخائب محشرًا للسفن من كل طراز ولكل صاحب، فمن حربية بثتها المملكة للمراقبة وأهلية جمعت كذلك لهذه المناسبة، وبين قديمة بلا عدد، وجدد منشأة لهذا الصدد. وكانت كلها منتشرة منتبهة حذرة، وعلى الأخص الأسطول المنقاد للأمير **ترثر** فلقد ظل جوالاً في ذلك المجال الفسيح، وهو كالريشة الساقطة في مهب الريح، لا يعرف له مرسى ولا يستريح. وبالجملة كانت قيامة أقامها الملك في البحار، كاد العبب لها أن يقوم، وأن يسكن التيار.

واستمرت السفن كذلك أيامًا طويلة، لا تهمل في البحث وسيلة، ولا تغفل في التفتيش حيلة، بدون أن تأتي بخبر، أو تقف للأميرة على أثر. ولم تكن رأت في كل تلك المدة شيئًا يذكر، سوى حوتين عظيمين كانا يتطاردان فكانت تتنحى لهما بكل مكان، فيمران في ذمة وأمان، حتى خرجا من المياه الهنديَّة، ودخلا في المياه العربيَّة، المشرفة يومئذٍ بالتبعيَّة للدولة المصرية. وهناك افترقا فانقلب أحدهما آيبًا على بلاد الهند، ولكن بعدما مسخ فلكًا يحمل الكاهن والأدلاء، ويقل المائة عذراء، واستمر الآخر سائرًا، وكان أيضًا قد عاد فتصوّر سفينة صيد فيها **طوس وهاموس** والركاب المحروس.

فبينما هذا الفلك ذات يوم سائر يؤُم مصر بالقوم، مرَّ به أسطول فاخر لا أول له ولا آخر، وهو يجري زاخرًا في زاخر، وكان قادمًا من مصر، وحاملاً لرايتها الخفاقة بالنصر. فلما استعرضه **طوس** قال لفتاه: ويل للهنود من هذه الأبراج، التي ليست سفنهم يجنبها إلا أقفاص الدجاج، فأنا لا أظنهم إلا ثائرين. وهذا الأسطول خارج إليهم ليعيدهم إلى الطاعة صاغرين. قال: ومن يا ترى الماسك لدفته، القابض على أزِمَّته؟ قال: إن أمراء البحر في

مصر بغير حصر؛ وكلهم أبطال مكللون بالنصر. قال: وهل يبعد يا مولاي أن يكون الأمير هو قائد الحال، الخارج إلى الهنود بهذه الجبال.

قال: إن الأمير مطمئن بالولاية في منفيس، وأخوته كثيرون حول عرش أبيهم الملك، فلو أحب هذا أن يجعل على السفن أحد بنيه، لما عدم من يوليه.

ثم إن السفينة استمرت سائرة حتى شارفت سماء النيل، فألقت المراسي وانقضى ذلك السفر الطويل.

* * *

# الباب الثاني

## الحوادث في منفيس

# عذراء الهند في قصر الأمير

| | |
|---|---|
| ألا هـــل لـــي بلقيـــاه يـــدان | حبيـــب شـــأنه عجـــب وشـــاني |
| إذا دنـــت الـــديار بـــه فنـــاءٍ | وإن نـــأت الـــديار بـــه فـــداني |
| يـــود الليـــل لـــو نـــدنو كلانـــا | ويـــدَّخر النهـــار لنـــا التهـــاني |
| وتـــأبى شـــقوتي فالـــذنب عنـــدي | لهـــا لا للزمـــان ولا المكـــان |

(الوافر)

كان الليل في أخرياته، وكان سكون الجو عند غاياته، والوجود لم ينتبه بعد من عميق سباته. وكانت منفيس لم تزل في أسر الليل وتحت رق أحكامه، ساهرة المحارس والمخـــافر، مغلقة المداخل والأبواب، لا يخرج منها خارج ولا يدخلها داخل إلا بإذن. وهي كأنها الهالـــة المستقلة المنيرة الأهلَّة، أضواء ولا ضوضاء، وسنا للناظر وســـناء، وســـكون فـــي الأرض وسكينة في السماء. وكانت الطرق إليها شتى وقد أخذت مع ذلك تزدحم بناقلي الأقدام، الآتـــين من أقاصي القرى تحت مدارع الظلام، وفي كلاءة الحي الذي لا ينام، ينهالون على المدينـــة من فوق الجسور وتحتها وعابري الأنهار، ومن بين المزارع والـــديار وحـــوالي المحـــارس والأسوار، متنافسين في الرزق متسابقين إلى الكسب مسارعين إلى المغنم كما ينبغي للأمم في أيام حياتها وأزمنة مجدها وتمدنها.

فكانت هاته الجماعات والزمر تموج وتزحف سيرًا نحو **منفيس** وبين أيديها ما لا يعلم عدده إلا الله من محصولات القرى ومتاجر البلاد، وعلى الأخص الدواب حيث كان لأسواقها الشأن الأعظم في المدينة. وكانت هي زخرف أغنيائها والزينة. وهم قد ملأوا الدروب وملكوا جميع الطرق إلا واحدة كان يقال لها طريق الخفاء. وكان الأهـــالي يجتنبوهـــا لأجـــل ذلـــك، ويذكرونها فيتفرعون لذكرى المهالك. وقد أكثروا في أمرها الكلام، وذهبـــوا المـــذاهب مـــع الأوهام.

وكان يجتاز طريق الخفاء في تلك الساعة شرذمة من الفرسان لهم زيٌّ غير مـــألوف، وكانوا ملتثمين متدارين في السلاح، متمكنين من صهوات الجياد وأعنتها المستوصية الشـــداد. وقد جعلوا فيما بينهم هودجًا محجبًا محمولاً لا يعلم إلا الله بما فيه. وهو يسير حيث يسيرون، وهم به دائرون، حتى إذا صاروا في آخر الطريق من جهة المدينة، انفصـــل عـــنهم أربعـــة

فظهروا للوجود، وخرجوا إلى العالم المشهود، تاركين رفاقهم والهودج وَمَنْ أَقَلَّ في الطريق الخفاء، ينتظرون.

ثم ساروا يقصدون **منفيس** وكأنما عرف الأهالي من هم، فغضوا الطرف عنهم لا يدنون منهم ولا ينظرون. وكانوا كلما مروا على محرس مَيَّزهم خفراء النقطة بزيهم فلا يتعرضون لهم ولا يسألون، إلى أن بلغوا باب الشمس (أكبر أبواب المدينة يومئذٍ) وهنالك أخرج أحدهم جرسًا فضرب به ثلاثًا فلم يكد صدى الضربات ينقطع حتى انفتح لهم الباب فدخلوا، وكان الحراس قد عرفوهم بجرسهم فلبثوا في مراكزهم لا يتعرضون لهم ولا يسألون.

واستمر الفرسان الأربعة كذلك سائرين، لا يخشون من تعويق ولا يقف لهم واقف في طريق، حتى لاحت لهم دار الأمير وجهتهم التي كانوا يقصدون.

وكان الفجر قد لاحت تباشيره تهز الوجود، كما هز من والديه المولود، وهي الساعة التي يكاد صالحو الملوك والأمراء أن يسبقوا بها إلى العمل النُسّاك والعلماء؛ فخرج الأمير إلى حديقته الخاصة يلتمس لنفسه كعادتها نزهة الصبح، ويتمتع من رؤية الطبيعة وروائها، في خير ساعات انجلائها، وأطيب أوقات بهجتها وازدهائها.

أما الحديقة فكانت مثالاً لصنعة الصانع أجلّ مثال. طرازًا بديعًا فردًا في البهاء والرونق والجمال. ظلٌّ، وماء، وطبيعة سمحاء، وسكينة في السماء، كما تحب الطير ويهوى العاشقون والشعراء.

وكان مع الأمير فيها ساعتئذٍ الأستاذ **بنتؤُر** شاعر البيت حكيم المملكة ومؤدب ولي العهد في الصغر، ومشيره الأمين في الكبر، والبطل **رادريس** الملقب بعفريت الحبشة حارسه الأول. وأمين سلاحه الذي عليه المُعوّل، ثم العالم الكبير **تيحو** طبيبه الخاص. وهؤلاء الثلاثة من أصحاب **رمسيس الثاني** وكانوا في معيته. فلما استعمل ابنه الأمير على **منفيس** والأقاليم الوسطى، سيرهم في ركابه حاشية جديرًا بها ولي عهد المملكة الرمسيسية فكان الأمير يتمشى متريضًا، وليس البدر بين نجومه بأجل منه بين رجاله. وقد جعل يده في يد **بنتؤُر** وهو يقول له: كتبت إليَّ **سيبًا** تنبئني أن ضغط الكهنة على الملك غير وأن الحملة على تزويج أخي **بآرا**، وأن كبير الحرس قد استمال إليه المؤثرين من رجال الحاشية حتى أصبحوا يجدُّون مع الكهنة في إتمام أمله الذي يحاول أن يرفع بنته إلى مقام تحسدها عليه كريمات الملوك والخواقين، وأن الملك أوشك أن يتأثر بمساعي القوم، وأن أختي **آثرت**، وهي كما تعلم لسان الكهنة في القصر، متكلفة لهم ولصاحبتها **آرا** باجتذاب والدتنا العزيزة. فكيف العمل الآن يا **بنتؤُر** وما الحيلة في الخلاص إذا الملك والوالدة انقادا بقوة ذلك التيار فأصبحا علينا مع جماعة المتحالفين؟ قال: نعم يا مولاي ضغط الجنادل والقبور، ولا ضغط الوالدين في أمثال هذه

الأمور. وإن الذي أعلم أنا من الأمر لأعظم. قال: وما ذلك؟ قال: إن أبويك الفخيمين لم يوشكا فقط أن يَذْعنا لاقتراح الكهنة، بل هما من بضعة أيام نصال تلك السهام، وساعد الأقوام، والمساعد على تحقيق ذاك المرام. فإن كنت في ريب مما أقول فهذا كتاب من أبيك الملك إليَّ فأقرأه ففيه الكفاية، ثم دفع إليه كتابًا من قلم **رمسيس** يقول فيه ما معناه:

"عزيزي الأستاذ لقد آن **لآشيم** أن يعدل عن غرامه الهوسي بعذراء الهند، لا سيما بعدما ثبت لديه من أخبار رسلي ورسله العديدين من اختفاء الفتاة واستحالة بقائها على قيد الحياة. هذا والأمير اليوم يناهز الثلاثين وأنا شيخ ضعيف وقد مرّ لي في الملك خمسون عامًا، فلا أحب أن أفارقه قبل أن أرى ولي عهد أبًا وهذا أمل حلال، طاهر الخلال، لا أحسبك إلا موافقي عليه، فإن امتثل **آشيم** إرادتي زوجته بربيبتي وبنت كبير حرسي السيدة **آرا** التي لم يقع اختياري، ولن يقع إلا عليها، وإلا عددت الإباء منهُ عقوقًا بيّنًا. وربما أفضى ذلك إلى انتقال العهد عنهُ إلى أخته البارة آثرت، والآن فانظر في مصلحة أميرك واختر لتلميذك ما يحلو والسلام.

**كتبه**

**"رمسيس الثاني"**

فما فرغ الأمير من قراءته إلا وقد ملكت الحيرة جهاته ووقف له اليأس في السبل والمذاهب؛ فأطرق برهة لا يملك كلامًا، **وبنتؤُر** يلاطفه ويسليه ويعلله ويمنّيه، ويدعوه ليترك الأمر حتى ينظرا فيه حتى إذا هبَّ من إطراقه، قال: إن الموقف لحرج يا **بنتؤُر**. قال: نعم شر موقف يا مولاي، ولكن: (الخفيف).

| | |
|---|---|
| **غالب الأمر بالتوكل غالب** | **واطلب العون في جميع المطالب** |
| **رُبَّ أمر به تضيق المساعي** | **لك منه إلى الفضاءِ مذاهب** |

قال: ألا تذكر إن أخي وضع يده وهو في الخامسة عشرة في يد عذراء الهند، على أن لا يقترن بسواها ما داما كلاهما على قيد الحياة. قال: أذكر ذلك يا مولاي. قال: إذن فقبيح **بابن رمسيس** أن ينكث العهد. قال: قبيح، ثم قبيح. قال: وتذكر أيضًا إننا كلانا وضعنا يدنا في يد هذا الشعب البائس المحتقر المملوك لفرقة الكهنة، إننا ننقذه من يدهم، ونرد عليه حقوقه المسلوبة. قال: أعرف ذلك حق المعرفة يا مولاي، وأعلم أن اقتران ولي العهد **بآرا**، لو حصل، يثنيه لا محالة عن العمل، ويحل جميل نظام هذا الأمل. قال: إذن فعار على **ابن رمسيس** أن ينقض الميثاق. قال: نعم عار عليه إذا فعل عظيم. قال: ولكنه الأب يقترح والملك يريد، وعار على **ابن رمسيس** أن يعق أباه، ثم عار عليه أن يعصي ملكه. قال: نعم عارانِ لا

ينمحيان. قال: فكيف العمل إذن وما وجوه الحيل وأخي فوق هذا وذاك عاشق، والعشق أكبر ملكًا وأعز سلطانًا من أبينا على فخامة عرشه، فلا بد **لآشيم** أن يذعن لأحكامه، كما أذعن لها الأولون وسيذعن الآخرون. قال: كل هذا يا مولاي معقول، وأخوك وأنت كلاكما جدير بما تقول. ولكن الرأي عندي أن نبادر فنغتنم فرصة تَغيُّب الأمير فنجيب الملك بأنه ما زال ولده البار، الخاضع المطيع في الإعلان والإسرار وأنه أبوه أولى به، فليدبر له ما يشاءُ ويختار حتى إذا خرج الملك من حالة الغضب وعادت عواطف الأبوة فاطمأنت بمكانها من فؤاده الرحيم، وما أسرع ما تعود هذه العواطف، شرعنا حينئذ نتلاطف له في الاستمهال ونذهب معه في كل مذهب من المطال، حتى نستقر والحوادث على حال. قال: قد رأيت في الأمر رأي حكمتك يا مؤدّبنا العزيز، فاكتب إذن إلى الملك بهذا المعنى وعَجِّل.

ثم إن الأمير التفت فوقع نظره على الحاجب، وكان قد حضر ليعرض أمرًا فسأله: هل حاجة؟ قال: حاجة الجميع سلامة الأمير بالباب يا مولاي أربعة من الفرسان، يزعمون أنهم رسل الشقي **طوس** إلى مولانا، في أمر ذي بال، فاستبشر الأمير لذلك هذا الاسم، وتهلل وقال: يا مرحبًا **بطوس** وأهلاً وسهلاً برسله فليدخلوا، ثم أقبل على **رادريس** يقول: ليس كذاك يا حارسي الهمام. قال: بلى يا مولاي، ونِعْمَ الصاحب على البُعد **طوس**. أما شخصه فلم نره وأما أفعاله فلم نبلُ منها إلا الخير خصوصًا مولاي **آشيم**، فإنه مدين له بالحياة مرتين، منذ قدومنا **لمنفيس**. قال: وأنا لأجل أخي أحبه ولا أحب أن يتعرض له ولا لرجاله أحد ما دمت مكان أخي في هذا البلد. قال: وهبك عاديته يا مولاي فلن تجني إلا كما جني الولاة من قبل أخيك، ثم تكون قد أرجعت البلاء للسكان وأعدت الحال أسوأ مما كان.

وعند ذلك أقبل الحاجب وفي أثره الفرسان الأربعة، وقد تجرَّدوا عن سلاحهم بالباب، وجعلوا يدهم اليمنى على الكتف الأيسر، وأرسلوا اليسرى خافضي الرأس منحنين، إشارة إلى الخشوع والإجلال، وعلامة على تمام الطاعة وكمال الامتثال. فلما رآهم الأمير أقبل عليهم وتلطف، وبالغ لهم في الخطاب، ثم شرع يسألهم عن **طوس** ويستخبرهم عن أحواله حتى إذا اطمأن بهم الموقف واستأنسوا، طلب إليهم أن يعرضوا حاجتهم؛ فأخرج أحدهم كتابًا مختومًا ودفعه إليه، فتناوله ففضه ثم دفع به إلى **بنتؤُر** ليقرأ فقرأ:

من الشقي **طوس** صاحب الشياطين، وحليف المردة الجهنميين، إلى سيده ومولاه سليل الشمس وجار الآلهة في مهده، **ابن رمسيس الثاني** وولي عهده، ووارث التاجين والعرش من بعده، الأمير **آشيم**، حاكم منفيس والأقاليم الوسطى.

مولاي فتاة الهودج التي يتقدم بها رجالي بين يدي جنابك العالي، هي عذراءُ الهند "فعند سماع هذا الاسم أجفل الأمير واضطرب وعلا وجهه الاصفرار فدنا **بنتؤُر** عندئذٍ منه

وقال همسًا: تجلد يا مولاي وقم لأخيك في هذه الحادثة مقام شخصه، وصن له عشيقته فيما تصون من معالي هذا المركز الذي خصك بثقته يوم رحيله، فلم يأتمن سواك عليه ثم عاد فقرأ":

بنت الملك **دهنش** ملك ملوك الهندين أوقعها الشقاء في قبضة عبدك فاستكثرتها لنفسي، ولم أجدها تصلح لسواك، أو تليق إلا لعُلاك، فآثرتك بها على نفسي وأولادي، مع علمي علمًا حقيقيًا أنها أجمل كريمات الملوك، بل أفتن نساء الأرض، في الطول والعرض، وأن أربعين ملكًا من ملوك آسيا ماتوا بوجدهم في سبيلها، كما يموت عشاق الدنيا بهم اليأس من تحصيلها. ولكن لعذراء الهند هذه يا مولاي سرًا يختص بحياتها، ويتعلق بأيامها، وإني أستودعك إياه وأسأل آلهتك أن يجعلوك منه أبدًا على ذكر وما ذاك إلا أن الفتاة مُحَرّم عليها أن تركب البحر في عمرها مرتين لا متتاليتين ولا متعاقبتين. وقد فعلت فصارت عرضة للغرق، بحكم نجمها النحيس، وإلا يسهر مولاي عليها يكن وحده المسئول عن حياتها النفيسة أمام فؤاده الطيب الرحيم.

**كتبه طوس**

وقد كان الأمير وأصحابه يصيخون لمدهش ما يتلو عليهم بتؤُر، وهم يشهدون أحوالاً أعجب، ويبصرون أدهى مما يسمعون وأغرب. وذلك أن الفرسان الأربعة كانت أشخاصهم ترق وتنطوي، وتضمحل وتتلاشى، متوارية ثم تتوارى متلاشية. وهذا كله بدون أن تتحرك الأقدام أو تخرج عن مراكزها الأجسام إلى أن زالت تمامًا. وعندئذٍ سمع من جوف الحديقة صوت يقول: لِتَخْلُ الطريق إلى قصر النزهة بالضواحي، وليخلُ القصر أيضًا إلا من الأمير حيث يقيم وحده في انتظار عذراءِ الهند، فإنها ستحمل إليه في منتصف الليل تمامًا.

* * *

# الأمير آشيم

عرف القارئ مَنْ آشيم وابن مَنْ في مُلوك الزمن، وما ألقابه وشأنه وكيف منزلته، من باذخ المجد ومكانه. ولكن ربما تسرّع فعامله كما أصبحنا نعامل المتوجين الجالسين، وسائر أبناء المالكين، فلا نعد وجودهم إلا ضربًا من لعب السعادة، لا ينيل التفضيل الحقيقي، ولا يوجب السيادة، فنحن ندعوك أيها القارئ لتستثني معنا الملك وابنه. أما **رمسيس الثاني**، فلأنه **رمسيس الثاني** وكفى. وأما ابنه الأمير فإن منفيس تشهد مزكاة بالذكر والأحاديث أنه كان فتى ولا كالفتيان كامل أدوات الإمارة والسيادة، أهلاً لما ترشحه له السعادة وزيادة، مخالطًا للأمة سريعًا إلى حاجاتها، آخذًا بنصيب من جميع حالاتها يحبها وتحبه، ويتألف على الهوى قلبها وقلبه، حتى لكانت تكاد تتمنى أن تراه اليوم قبل الغد على العرش، عرش والده الذي أقام جدها، وأنشأ مجدها، وصيّر الوجود بأسره عبدها.

هنا يستغرب الأمر من لا يعرف السبب، ويعجب القارئُ بحق، كيف أن ملكًا كهلاً خدم الأمة نحو نصف قرن لم يألها صبرًا حتى أنالها أزمّة الوجود برًا وبحرًا، وخلّد لها في العالمين ذكرًا، يفضله مع ذلك في اعتبارها، ويقدم عليه في اختيارها، أمير شاب لا يزال في ولاية العهد، وعلى أبواب العمل لم تر له البلاد خيرًا ولا شرًا، ولم تبلُ من ثمره حلوًا ولا مرًا. فالجواب أن للأمة ما دامت في الحياة، كرامة من الخلقة، وإباءً من الوجدان، يذكرانها على الدوام حق المساواة، ويورثانها أبدًا كراهية الطاعة لكل حكومة ينتفع بها فريق، من الشعب دون فريق، وتكون نعماء أيامها لطبقة من الأفراد دون طبقة. وتلك الكرامة وهذا الإباء لم يرعهما الفراعنة في دولة من دولهم، ولم يلقوا لهما بالاً في زمن من الأزمان. فلما ولي **آشيم** الحكم على منفيس والأقاليم الوسطى، كان طرازًا وحده في الفراعنة وأبنائهم، من حيث العناية بمصالح العامة، والسهر على حقوقها وتسوية الرعاية بينها وبين الخاصة. وقد سار سيرته هذه من أول يوم حتى فزّع الطبقات العليا من الشعب، وعلى الأخص الكهنة فباءوا له بالعداوة، وباتوا يرقبون من أمر فرعون الغد ما سيكون.

هذا ولم يكن **رمسيس الثاني** كغيره من محبي العظائم بين ملوك الأنام الذين يكاد حب الذات لا يجوزهم، وقسوة القلب أن لا تتعداهم، ويتولّد من الطمع عندهم الحسد في غاية شدته،

فتعم شروره البلاد والعباد، وتتناول غوائله حتى الأهل والأولاد، بل كان يرى في اهتمامه للمملكة بصاحب عهدها والسهر على عظيم مستقبله، الذي هو مستقبلها، تتويجًا لحياته العالية الكبيرة، وإتمامًا لنعمته على الأمة والبلاد؛ حيث رباه التربية اللائقة بنسبته العالية، وبما له من الشأن المستقبل في سياسة دول الوجود. وكان كثيرًا ما يستصحبه معه صغيرًا في أسفاره المتعددة المتوالية إلى إفريقيا وآسيا. وفي هذه القارة اجتمع والد الفتى بوالد الفتاة على أثر صلح بعد قتال، كما تقدّم لنا ذكره. وكان الولدان يومئذٍ ناعمين صغيرين يستقبلان الحياة، فكان أول ما وقعت عينهما من أشيائها على الحب.

فبينما الأمير ذات يوم مطمئن بالولاية في منفيس يسوس الأمور، وينظر في شئون الجمهور، وردت عليه أوامر والده الملك بتوليته قيادة الأسطول، الخارج إلى تأديب الهند الثائرة، وإعادة السكون إليها، وأن يتخذ له نائبًا من مواضع ثقته يكل إليه حكومة منفيس إلى حين أوبته، فوقع اختيار الأمير على أخيه لأمه وأبيه، وكان في طيبة فاستقدمه منها وألقى إليه مقاليد الولاية، ثم برح منفيس إلى السواحل حيث الأسطول بانتظار قائده الهمام، وكانت الأوامر قد صدرت له بالقيام، فقام إلى بلد فيه العدو والحبيب، كلاهما هذا ثائر العداوة والبغضاء، وهذا ثائر الوجد والغرام.

* * *

## الفصل الثاني (*) (مكرر)

# قصر النزهة بالضواحي

تركنا الأمير وأصحابه مأخوذين متأثّرين بالمشهد السحري الذي جرى أمامهم. وكان موضوعه الفرسان الأربعة رسل **طوس**، وإن يكن السحر وعمله ومشاهده مما كان المصريون الأولون، يعرفون تمام المعرفة ويألفون.

أما ما كان من أمرهم بعد ذلك، فإن الأمير ما مكث أن استكتب **بنتؤر** كتابًا على الملك بالمعنى المتَّفق عليه بينهما أولاً، وبتفصيل الحادثة المفاجئة ثانيًا، ثم استصدارًا لأوامره بشأن عذراءِ الهند، وبعد ذلك جمع إليه رجاله فشاورهم في كيفية المسير إلى قصر النزهة بالضواحي الذي كان دار إقامة لعظماء الضيوف؛ فأجمعت الآراء أن الأمير يخرج في العصر إلى المعبد الأكبر فيقرب للآلهة القربانات الجديرة بهم شكرانًا لنعمتهم على أخيه بقدوم حبيبته للديار المصرية، ثم يبرح المعبد قبيل الغروب فيخرج من باب الظلام (أحد أبواب المدينة كذلك، وكان خالصًا بالكهنة بأيديهم مفاتيحه وعندهم أسراره وطلاسمه) ويأخذ جانب السور الغربي فيستمر سائرًا حتى يبلغ باب طيبة. وهنالك يتنحى من يكون معه من الحاشية والحرس فيقفلون راجعين، وتكون الإشارة قد سبقت إلى ضباط النقط بإخلاء الطريق من باب طيبة، فقرية البشنين، فعزبة البقرة، فقصر النزهة بالضواحي. وهذا الطريق الطويل يقطعه الأمير وحيدًا ليس معه إلا رجاءُ الآلهة ووفاؤه لأخيه النازح الدار.

فلما كان الأصيل هيئت الركائب واستعدت فأقبل الأمير في حلّته العسكرية، وعلى رأسه شعار الإمارة الرمسيسية، وهو يزهو بالحسام المجوهر ومنطقة الذهب والطيلسان.

وقد اتخذ لصدره زينة من أبيض الخز المُحلّى بالذهب المطرّز بالياقوت والمرجان. وكان الفتى طويلاً معتدل القامة، أشم ظاهر الشهامة، واسع الجبين أسود الشعر خفيفه، أسمر اللون باخضرار، أسود العينين وسيعهما، ممتلئ النظرات من الحياة، حلو اقتبال السنين يراه الرائي فيستكثر له العشرين. وكان له جواد مارد من المرّاد، أدهم غائب في السواد، وكان سرجه من جلد النمر، فركب وسار **وبنتؤر** إلى اليمين **ورادريس** إلى اليسار، يدورُ بهم فيلق من الحرس جرار، وكان للأمير عبد أسود يقال: إنه أحد أبناء ملوك النوبة، وأنه وقع

(*) هكذا في الأصل.

**لرمسيس** أسيرًا، فبعث به إلى ابنه مقترحًا عليه أن يسيره أمام فرسه، أينما سار فكان الأمير ينظر إلى الأسير إذ يسير. ويقول **لبنتؤر:** أنت الذي علمت أبي الكِبر بأشعارك يا مؤدبنا العزيز، حتى أصبح لا يحسب الملوك وأبناءَ الملوك خلقوا إلا ليركبهم أو يركبهم أولاده، كأن في إيماننا صكًّا من الدهر دوام الحال. وهيهات دوامها من المحال. فما الواحد منا فوق عرش جلاله وعظمته إلا مثلي، فوق متن جوادي هذا، لا آمنه لحظة أن يكبو فأكبو معه، فيصيبني ما يصيب. قال: صدقت يا مولاي، ولكن هل تراني علَّمْتُ والدك البخل، وهو الذي لـهُ خزائن الأرض في الطول والعرض، تمدّها المستعمرات بالمال، فتنمو فإذا هي شم الجبال، فلا تلمني إذن ولا تظلم الشعر، وإنما هي طباع في أبيك يسرني أني لا أحدها في الأمير أخيك ولا فيك. قال: وهبها كانت أو لا تزال موجودة أليس في صحبة مثلك ما يمزقها وأمثالها، من قبيح الطباع؟ قال: عشت يا مولاي ولا زلت من يذكر الفضل فيشكره، فما نسي الفضل إلا غبي ولا جحد الفضل إلا لئيم: (مجزوء الكامل).

| | |
|---|---|
| **إن كنت ذا فضل فكنه** | **على ذكيٍّ أو كريم** |
| **فالفضل ينساه الغبيُّ** | **وليس يحفظه اللئيم** |

فعاد الأمير فقال: حقيقة إن أبي عجيب في بعض أحواله وهذا منها، وإني لا أعلم له عطية عندي غير خمسين لؤلؤة من أعز اللؤلؤ، هي الآن في جيبي وسأقربها **لآمون**، وإني لأرجو أن سينفعني القربان لأنها أعظم ما جاد به بخيل إلى الآن. ثم إنه حوّل الحديث إلى **رادريس** فقال: لا أذكرك يا **رادريس** أن غدًا فجرًا تبتدئ حراسة قصر النزهة بالضواحي. قال: هذا ما كنت مشتغلاً بتدبيره الساعة، وأنتما في الحديث يا مولاي. ولكن من أي الفِرَق تأمر أن نستعير الجُند اللازم لذلك، فإن الحرس أصبح مشغولاً كله بحيث لم يعد الأخذ منه ممكنًا. قال: فليكن من فرقة **فتاح**. قال: وكذلك مخفر القصر يا مولاي، فلقد مررت به من أيام فوجدت غالب أخشاب مربعة متكسرة، والأوتار بالية متغيرة، والمعالف متهدمة خربة، فإن أمرتْ كَتَبْنا إلى ديوان الجيوش ندعوه لترميم ذلك كله بمعرفته وعلى نفقته. قال: ذلك من عمل وظيفتك فتصرّف كيف شئت، وليتكفل الديوان أيضًا بمؤونة الجُند أربعين يومًا ريثما تستريح الأميرة، ثم نشرع في ترحيلها إلى بلاد طيبة، ومنها إلى بلاد أبيها، لتخطب بالصورة اللائقة.

وكان **بنتؤر** منصتًا يسمع. فقال: ما هذا الكلام يا مولاي، وكيف تسمح ببراح الأميرة **منفيس**؟ قال: إن كريمات الملوك يا **بنتؤر** لا يؤخذن من أيدي اللصوص الأشقياء، ولكن من قصور عزهن وعن أيدي آبائهن الفخام. ولذا صار لا بد من ترحيل الفتاة إلى طيبة مُبَجّلة معظّمة معزّزة مكرّمة، واستئناف الخطبة بعد ذلك على الوجه اللائق بنا وبها، وبمقتضى ما تقف عنده المخابرات بين حكومة جلالة الملك وبين حكومة الملك أبيها. قال: هذا ما كدت

أسبقك إلى القول به، لولا أنني أخاف بغتات الأمور، وأخشى تقلبات الحوادث والأحوال. قال: لِيَحْدُث ما عساه حادث، ولتنصبَّ المصائب جملة. فأما عن الشرف فلا يحول بنو **رمسيس.** قال: ولكن لا تنسَ لأخيك إنّهُ محب عاشق صب يا مولاي. قال: ليس الحب إلا قطعة من الشرف، ومن يُضَيع الكل ليحفظ الجزءَ فذلك عين السرف. قال: بنفسي أنتم يا أولاد **رمسيس:** (مجزوء الكامل)

**سير الكبار كبيرةً وأجلّها هذا السلوك**
**إن الشهامة خير ما حملت مع التاج الملوكْ**

وكان المعبد قد لاح للقوم، فامتنعوا عن الكلام وخرجوا من مقام ليدخلوا في مقام. حتى إذا وصلوا استأخر الحرس ينتظر على بُعد، وترجّل الأمير وصاحباه. وكان رئيس الكهنة قد خف في جماعته لاستقباله، فبالغوا له في التحية ووفوه إكباره وإجلاله، ثم دخلوا به فما زالوا يتنقلون بين أفنية المعبد وإيواناته وصحونه وطرقاته، ودهاليزه ورواقاته ومقاصيره وحجره حتى جاؤوا المحل الأقدس للمعبد، وهي الحجرة الخاصة بالأمير لا يطرقها سواه، ولا يدخلها على **آمون** إلاَّه. وهنالك استأخر الكهنة ينتظرون، ودخل الأمير فاستقبل مثال الإله **آمون،** ثم خرَّ جاثيًا ويقول في دعائه:

**آمون** يا محبوب الرماسسة ومحبهم، ويا أباهم وربهم ولواءهم وحزبهم، أنت العلوم والأسماء، وأنت الحقيقة الزهراء، الواحدة الشمَّاء، منك الأرض، ومنك السماء، وإليك العوالم والأشياء. هذه خمسون من اللؤلؤ المكنون، الذي أُخرج بحر علمك الزخار، قبل أن تخلق البحار، وجاورك قبل جوار الماء والتيار، فاستعار فاستنار واستدار، وصار إلى ما إليه صار. أُزلفها لك قربانًا، وأقرّ بها شكرانًا، ورضى وامتنانًا، وأسألُك القبول يا خير مسئول.

ثم لما فرغ من دعائه تقدّم إلى المثال العربي، فوضع ذلك العقد الغالي على صدره الحالي، المتلألئ المغشي باليواقيت واللآلئ. وبعد ذلك وقف كالمريب يجيل طرفه في جوانب الغرفة. وإذ أيقن أنه محجوب عن العيون، وأن لا رائي ثمَّ إلا **آمون،** عَمَد إلى أحد الصناديق السرية، وكانت ثلاثة، وكانت خاصة بالأمير ففتحه ونظر. فإذا في درجة الأسفل ورقة، وكانت مكتوبة بقلم سري مصطلح عليه فأخذها فقرأ:

## ﴿أخبار اليوم﴾

"ليأخذ الأهبة والعُدّة مائة من أبطال الحرس، وليكونوا من أول الليل في الصحراء، بالقرب من مدخل طريق الخفاء، وليقيموا هنا إلى ما بعد منتصف الليل، فإن سمعوا في هذه المدة ضرب نفير يردد من جانب الطريق، فليتحركوا من فورهم لنجدة رجال **طوس.**

بعث الكهنة إلى إخوانهم في طيبة بالشكوى من استمرار بقاء **بنتؤر وإدريس** في معية الأميرين وبخبر ظهور عذراءِ الهند، وبأنهم اتخذوا التدابير اللازمة، لمنع وصولها إلى الأمير. فلم يبقَ عندي شبه ريب في خيانة الحاجب والخادم الخصوصي، فليقبض على أوراقهما وليعدما الليلة.

أصبح من المحتمل المستعجل أن يسعى الأمير في تغيير قائد الفرق الاستعمارية، فإن القوم أوشكوا أن يُميلوا رأسه ولا يخفي ما في ذلك من الخطر على حزبنا والسلام".

فأخفى الأمير الورقة في جيبه وخرج، وهو لا يكاد يملك حركاتَه من الغضب. فمشي والكهنة وأولادهم صفان له في الطريق عن اليمين وعن الشمال، حتى إذا صار خارج المعبد أمر أن يفتح له ولبعض رجاله باب الظلام. فقيل له: إنه مفتوح، فزاده ذلك غضبًا، وأيقن كل اليقين أن الحاجب والخادم هما السبب، فدنا عندئذٍ من **رادريس** وناوله الورقة خفية. وقال: هذه أخبار اليوم فانظر ما يتعلَّق منها بوظيفتك، فسارع إلى إنفاذه بالحرف الواحد. وعلى الأخص أمر الحاجب والخادم. قال: سمعًا وطاعة يا مولاي. قال: والآن خذ الحرس فارجعا وأنا يكفيني **بنتؤر** والعبد. وكان الليل قد دخل في ساعته الأولى، فركض الحرس خيلهم خلف قائدهم الهمام **رادريس** آيبين إلى المدينة. ومشي جماعة من الكهنة في ركاب الأمير حتى اجتاز باب الظلام، فانطلق يسير وليس معه إلا مؤدبه وعبده وهناك استأذن الكهنة فأذن لهم فانثنوا راجعين.

* * *

# ما كان يجري في طريق الخفاء

كان الفصل نيلاً، والليل خفيفًا ثقيلاً، جفيفًا بليلاً، صدئًا ثقيلاً، لا قصيرًا ولا طويلاً، وكان الليل في طفولته الأولى لا ينفع الضال، ولا يغني عن الساري فتيلاً، والأرض يبدو عليها الزرع، ويتخللها الماء، فهي سوداء للناظر خضراء حمراء، وكان على الجانب المهجور من الصحراء، وهو المعروف بطريق الخفاء نحو عشرين فارس من الخفاف الأقوياء متوسدين الثرى ينتظرون على الظلماء وخيلهم على البُعد بعضها رابض يجذب بالغبراء، ومنها الناهض المنيف بأنفه في السماء، وبين الخيل والفوارس، هودج معمور بربته **آنس**، وهي فتاة حلوة المحيا في مجموعة نضرة القوام الرشيق، سوداء العينين بقليل ضيق (الطويل):

**إذا برزت أبدى النهار قميصها يغير به شمس الضحى فتغارُ**
**وإن نهضت للمشي ودَّ قوامها نساءٌ طوالٌ حولها وقصارٌ**

وهي قد جلست خلف الهودج مطرقة أسيفة. تنظر تارةً إلى السماء كالضارعة وطورًا تنظر في يدها اللطيفة. وكان لدى الفتاة هنالك نمرٌ بديع في شكله، عزيز في نوعه. وقد ربض بجنبها آنسًا بها، مطمئنًا بقربها، وحدقتاه الحمراوان لا تشتغلان لحظة عن شخصها الفتّان، ولسان حاله يخاطبها بهذا المقال:

أنا يا مولاتي الخدم والحشم، وأنا الوطن والأهل والنعم، وأنا سيوف أبيك المجردة تحميك، وستبدي لكِ خطوب الزمان، كيف يخلص ويفي الحيوان.

فبينما الفرسان في السمر ينتظرون على المكان، وكان الليل قد ذهب ثلثه الأول أو كاد، لم يدروا إلا بخيل تنهال من كل جانب، وتحوش عليهم السُبُل والمذاهب فنفروا عن مجلسهم منذعرين ثائرين، كما أطلقت إبلاً صعابًا أو هيجت آسادًا غضابًا، يصيح بعضهم ببعض إنهم يا قوم متطوعة المعبد، هاجمونا ليخطفوا عذراء الهند. فويل لنا من **طوس** إن هي أُخذت منا، وما هو إلا كلمح البصر حتى تلاقي الرجال واشتبك القتال، وزاد اختلاف السلاح في الأهوال فضربًا بالسيوف، ورميًا بالنبال، ونزلاً بالبلط الثقال، وحملاً بالمزاريق الدقاق الطوال.

ولم يمض يسير زمان حتى سقط ثمانية من رجال **طوس** بين قتيل وجريح، وأُسر منهم ثلاثة. وأوشك الباقون أن تخونهم الأقدام وتَخْذُلهم السواعد فيخروا حول الهودج – رايتهم – هالكين. وعندئذ سمع ضرب نفير، يردد ولم يشعر العدو الكثير العدد الفْرِح بالظفر، إلا ونحو مئة من ليوث الأبطال يتضاغطون عليه كما تضاغط الجبال، فلقيهم حق لقائهم حملاً ووثبًا وطعنًا وضربًا، كأنّما يأبى إلا عذراء الهند يأخذها غصبًا.

فعاد القتالُ أشد وطال السيف وامتد، ولكن المتطوعين كانوا قد تمكنوا من أخذ الهودج ومن فيه، فسار به أربعة منهم خلف حصن حصين من ظهور إخوانهم المقاتلين وعذراء الهند تستجير ولا مجير، وتستصرخ ولا نصير، وتصيح حارس حارس إليَّ يا حارس أين وفاؤُك هذا وقته. أتخذل مولاتك وابنة مولاك وهي لم يبقَ لها من ملك الدنيا سواك. أما حارس فكان قد نفر باديً بدءٍ، كما هي طبيعة السباع، ثم زاده نفورًا أنه كان خارج المعركة يُرأرئُ بحدقتيه كالمفتش عن مكان مولاته فلا يراها فما صدق أن وصل صراخها إلى خروق المسامع، حتى طار إلى الصوت وثبًا كأنه الأفعوان النافر. فرمي بكتلة جسمه الجهنمية في صدور الرجال الأربعة، فمزّقها شر ممزق، ثم إنه وقف بجانب مولاته رافع الرأس بارز اللسان من شدة الخفقان. ولسان حاله يقول: هل من مزيد.

هذا ما أصاب عذراء الهند، أما ما كان من أمر المتقاتلين، فإن استئناف القتال بينهم لم يلبث أن انجلى عن انتصار رجال **طوس** وأبطال الحرس، وقُتل أكثر المتطوعين. غير أنَّ هؤلاء لم يتقهقروا خطوة ولم ييأسوا، حتى كأن هناك سلاحًا آخر. وعلى هذا السلاح كانوا يتكلون. وفي الحقيقة كان وراء صفهم كاهن، وكان كامنًا يتربص ثم تبيّن أن السلاح قد خان، وأن الثبات أمام العدو لم يعد في الإمكان، أخرج آلة تقذف مسحوقًا أبيض كريه الرائحة، فسلطها على الأعداءِ فكان كل من علقت ثيابه شيئًا من هذا المسحوق من القوم، يصفر لونه ويضطرب جسمه ويميل رأسه، ثم يسقط مغشيًا عليه. فحين أبصر رجال **طوس** ذلك أخرج أحدهم صفارة فضرب بها ثلاثًا فأقبل على القوم رجل جهنمي مهول، يهدر كأنه الأسد الإفريقي أو هو الغول. وكان كذلك كامنًا خلف هضبة يتربّص، فلما رأى ما حل برجاله وإخوانهم أبطال الحرس، أخرج من صدره شريطًا طويلاً من ورق أخضر، فأشعل طرفه فتصاعد منه دخان متكاثف طيب الرائحة، فكان من يتنشقه من المصابين بالمسحوق يستفيق في الحال، ثم يخف نشطًا سريعًا على القتال.

وإذ رأى الكاهن ذاك أبرز شبه مرآة صغيرة شديدة الوضوء مستديرة ومد بها يده من بين الصف ثم أدارها في وجوه المقاتلين، فكان من تأثيرها الوقتي في أعصابهم الارتعاش والارتعاد، واضطراب الأجساد حتى لقد كان السلاح يسقط من أيديهم فلا يملكون له من منع

ولا استرداد. فلم يكن من الرجل الجهنمي إلا أنه صرخ صرخة تميد لها جبال الحديد، ويقصر عن مثلها الأسد الفتى الشديد؛ فزالت تلك الحالة الاضطرابية، ورجع القوم إلى حالتهم الطبيعية.

وبعد ذلك تقدم نحو الكاهن محتدًا بالغضب. يقول: ما لي ولهؤلاء المساكين أعذبهم، فوربي الذي أعبد لا أخذت سواك يا كاهن النفاق، ولا أخذتك إلا بنظرة، كما يؤخذ صغار السحرة. ثم نظر إليه نظرة فراح الكاهن مأخوذًا مسحورًا لا يملك لنفسه حسًا ولا شعورًا، وأُسر من كان باقيًا من المتطوعين. فخلا المكان للرجل الجهنمي، وحينئذٍ ارتجل نظرة إلى الأفلاك ثم قال: لم يبق من النصف الأول من الليل إلا مسافة الذهاب إلى القصر، فليرجع إذن أبطال الحرس بسلام مشكورين، وليحملوا معهم أسرى المتطوعين إلا هذا الكاهن. فإنّ لي وله شغلاً ثم جعل رجاله قسمين: وكانوا اثني عشر فسار ستة منهم بالهودج، قاصدين وجهة القصر، ورجع معه الباقون يسوقون أمامهم الكاهن إلى عذاب مستمر.

* * *

# الأمير في الطريق

تركنا الأمير ومؤدبه وعبده آخذين يمين السور الغربي، يسيرون في حماية السور وتحت مدارع الظلماء، آتين باب طيبة ومنه إلى قصر النزهة بالضواحي. والآن نرجع إليهم فنقول: كان الأمير يقول لصاحبه وهما في المسير يتحدثان: أرى يا **بنتؤر** إن في الوقت ما يكفي لنذهب فنؤدي الواجب نحو دعوتنا المقدسة، ثم ننثني فنستقبل الأميرة. قال: لعل مولاي يشير إلى الجمعيَّة فإنها تنعقد في هذا المساء. قال: نعم إلى ذلك أشير. قال: وهب أن الوقت لم يمكنك من حضورها هذه الليلة، فإن الأحرار يعذرونك يا مولاي، وحاشاهم أن ينالوك بفكرة سوء، أو يظنوا بك إلا الخير فيما يظنون. قال: ولكني وأخي لم نُعَوِّدهم التقصير من قبل. ولا أحب أن نعتاده معهم، فالنفس مع العادة بنت مرة. قال: ذلك أحب إليَّ يا مولاي، بل أنت إن فَعَلْتَ زدت مكانة في نفوس القوم إلى مكانتك، وأصبحت منزلتك في القلوب منازل. قال: ولكن الوقت إن سامح بالذهاب إلى الجمعية، فهو لا يحتمل لنا أن نرجع إلى المدينة فنغير خيلنا ولباسنا. فما العمل إذن وماذا ترى؟ قال: لا يفكر مولاي ولا يضجر فإن **رادريس** لا يفوته في أمر الحزب صغيرة ولا كبيرة، وهو لا شك عالم أن الجمعيَّة تلتئم في هذا المساء، فلا يقصر عن المبادرة إلينا بما نحتاج من خيل ولباس. قال: هذا إن وجد سعة في الوقت. وما أظنه واجدًا. قال: بل سيجد يا مولاي إذ حيث الأمر كما قدمت لك، يتناول مصلحة الحزب ويهم الأحرار. **ورادريس** هو ذلك الغيور، ألم يكن القائل للملك إذ هو في مقابلاته الرسمية؛ إذ تحيط به حاشيته ووزراؤه، أيها الملك:

إن عفريت الحبشة وممدوح إفريقيا لا يقبل أن يتقدّم عليه صغار أولاد الكهنة في شرف الدخول عليك للتبريك، حتى نشأ عن ذلك تركه الأمور واعتزاله الخدمة حولين كاملين (مخلع البسيط):

| | |
|---|---|
| **رأيت ملكًا بلا استقامة** | **لا صدق فيه ولا سلامة** |
| **فعفتُ باب الأمور حتى** | **خرجت بالعز والكرامة** |
| **والحر في حيثما تولى** | **يقوم للخلق بالخدامة** |

قال: نعم هو ذاك الشهم بعينه، وإني ليعجبني له قوله في خطبته المشهورة التي ألقاها على جيوشنا المظفرة بالحبشة: "أيها الجند أنتم منذ كنتم آباءَ التاريخ وأصحابه، وإليكم ينتهي كتابه، فإياكم أن تعطوا العدو منه سطرًا واحدًا. فما خلق الذل إلا لأمة ذات مجد غابر لا تستحيي من تاريخها".

ثم ما زال الأمير وصاحبه يمجدان الحارس الأول في غيبته، ويتذكران الكثير الطيب من سيرته، وقد خدعهما الحديث كعادته، فلم يدريا إلا بباب طيبة يلوح لهما كأنه الطود الشامخ أو البرج المشيد الباذخ. وهنالك انتحيا طريقًا مختصرًا إلى قرية البشنين، فاندفعا يسيران، وكانت على ذلك المكان، شجرة ملتفة الأغصان، متكاثفة الأفنان، كأنما أُرضعت الزمان. فلما صارا على خطوات منها ألفياها تموج، وآنسا عندها حركة فارتابا لأول وهلةٍ، وارتاعا لما عسى يكون وراء الظلام. ولكن العبد كان قد بلغها قبلهما فوقف، ثم التفت وراءه ينادي: ليقبل مولاي في أمان، فإنهم رجاله ينتظرون قدومه، فأقبل الأمير وإذا **رادريس** يتقدم للقائه، فقبّل يده ثم دعاه **وبنتؤر** ليترجلا، ففعلا، ونشى الأصحاب الثلاثة إلى الشجرة فلبثوا فيها برهة من الزمان. ثم برزوا في زيّ غير السابق المعتاد، وعلى جياد غير تلك الجياد، وعندئذٍ مشي العبد وسائر الرجال بالثياب والخيل، راجعين إلى المدينة وسار الأمير وصاحباه لما هم إليه قاصدون.

* * *

# الفصل الخامس

## عذراء الهند في الطريق

تركنا عذراء الهند تسير إلى قصر النزهة المأنوس، في ستة من رجال **طوس**، والكل بالحارس محروس. والآن نعود فنلوي عليها بالحديث، فنقول: كان من أمر الفتاة إنها لما اجتازت طريق الخفاء، واستقبلت الأهل المسكون من الأرض لأول مرة في أيامها تحت سماء مصر. لم تلبث أن ثاب إليها بعض الأمل بالنجاة، والاستبشار بعودة أيام الحياة؛ إذ شعرت أنها تمشي على أرض الاطمئنان، وتحت سماء العمارة والأمان، وبمرأى ومسمعٍ من بني الإنسان، حتى لقد شغلها الأُنس بالمكان، وفرط السرور بما كان، عن حارسها العزيز الذي عاشت وعاش معها عمرًا، لا هي تتلهى عنه لحظة، ولا هو يعطي عنها صبرًا.

غير أنها ما لبثت أن مر خيال النمر بفكرها، وتمثلت لها صورته بكل سبيل فأبصرت قدامها تتفقه، والتفتت حواليها تتعهده، ثم طالعت خلفها لعلها تجده. وإذا الحيوان، لا أثر له على المكان؛ فظنت بادئ بدءٍ أن لا شيء وأنه ربما كان متغيبًا في بولة، أو مبتعدًا يجول له جولة. حتى إذا طال أمد الغياب، وأبطأ النمر في الإياب، أخذ الفتاة القلق، وحق لها أن ترتاب. فنظرت وإذا هي لم يبق معها إلا ثلاثة من الجماعة. وكانوا ستة من قبل ساعة، فزادها ذلك جزعًا وقلقًا، وامتلأت من الأمر فزعًا وفرقًا، لا سيما إذ كانت ترى الظلام يمتد كثيفًا، وتشعر بالطريق كأنه يعود كما كان موحشًا مخيفًا. ثم لم يكن كلحظة عين حتى صار الثلاثة اثنين، ثم صار الاثنان رجلاً واحدًا فردًا. وحينئذٍ أدركت الفتاة دخيلة الأمر، وعرفت من أين مأتى الشر، فتملكها اليأس. ومن ييأس لا يخف فقصرت لجوادها العنان فوقف.

ثم نظرت إلى الرجل عن ريبة فيه، وأمر تحت اللثام يخفيه. فقالت بصوت يقطعه الغضب: إن ما يجري من ساعة لم يدع بنفسي شكًا أيها الغلام: إنك ذاك الخاسر، الفاجر الوغد اللئيم الغادر، الشقي ابن الشقي؛ فإن حسبت أن قد أصابت المصيدة، وتمت لك المكيدة، لأنت إذن في وهم طويل. فإن الأماني والأحلام تضليل وإن العنقاء ما إليها سبيل. فعند هذا الكلام، لم يكن من الغلام، إلا أن نزع اللثام، وقد عيل صبره لعناد الفتاة كما طالما عيل لعناد الغرام. فقال: نعم يا مولاتي أنا ذاك الخاسر في تأميلكِ فأسعفيه، الفاجر تهتكًا بكِ فبرريه. الوغد ذلاً لك فارفعيه، اللئيم الغادر اضطرارًا فاعذريه، ولا تلوميه. قال هذا. وتأوّه واشتكى.

ثم ما تمالك أن بكى، فقطع الدمع عليه الكلام. فخر متراميًا على الأقدام، ولسان حاله يقول في الاسترحام: (كامل):

**وسألتهم فتمنعوا استعطفتهم فترفعوا فهويت للأقدام**
**طورًا أقبلها وطورًا أشتكي فعرفت كيف إجابة الأصنام**

وفي الواقع كانت الفتاة تتلقى هذه التضرعات، وهي معرضة نافرة، كأنها المقدور إذا ضرب، أو القضاء في حال الغضب. يرميان على الباكي دمعتهُ فيعيدانها إلى القلب جمرة تتلظى. ثم إن الفتى رفع رأسه لينظر هل شفعت له الدموع، أم أهل نفعت الذلة والخضوع؟ فلما لم يجد لأمره نجاحًا، ورأى الفتاة لا تزداد إلا نفرةً وجماحًا: (السريع):

**بثثت شكواي فذاب الجليد واشقَّق الصخر ولان الحديد**
**وقلبك القاسي على حالهِ هيهات بل قسوته لي تزيد**

ثار الدم في رأسه، وغلبهُ جنون الغضب على حسّه، فنفر كالأسد المجروح عند غايات يأسه، يصول كل مصالٍ في الوعيد، ويجول في كل مجال من التهديد، وهي لا ترجو لغضبه وقارًا، ولا تزيده إلا جفوة واحتقارًا. فلم يكن منه حينئذٍ إلا أن جذب إليه الهودج بعنف، فمال ومالت معه الأميرة، فسقطت على وجهها، متعفرة مهانة، ونفر الجواد الذي كانت تركبه. فلم يكن أشد منها جماحًا في وجه هذا المغتصب، ولا نفارًا عن كفه، وهو قد انقض عليها مستلاً خنجره يخبرها بين أن تبذل العرض، أو تسامح في الروح.

فبينما الفتاة على هذا الحال الأنكد الأسوأ تحت أحد الخطرين العار أو الموت، وهي تستغيث وتضرع وتسأل أن يسبق الثاني الأول، لم تشعر إلا بجواد قد وقف بغتة عند رأسها، ثم بفارس قد نزل عن الجواد، وهو يصرخ قائلاً: من هذا المتهجم على الأمن المستبيح الجرعة تحت سماء منفيس، فاضطرب لصرخته الغلام وسقط الخنجر من يده، ثم خار لا يبدي حراكًا، ولا يملك عن الأرض فكاكًا؛ فتقدم الفارس عندئذٍ إليه يسأله: من أنت تكلم يا فتى؟ لا تخف ثُب إلى نفسك والغلام واقف وقفته لا يرفع العين، ولا يأتي جوابًا، فتركه الفارس وتقدم نحو الفتاة يسألها قائلاً: أنا الأمير فمن ربة الهودج التي أنقذناها من يد هذا الباغي؟ فنهضت الأميرة وقد تأثرت بسماع لفظة الأمير، ثم ضاعف تأثرها أنها عرفت الصوت الذي لم يكن تغير، ولكن شب كما شب صاحبه، فرفعت عينيها تنظر وكان الفارس قد زحزح اللثام، فإذا هي بأعطاف **آشيم** ومناكبه، فدنت تزيده نظرًا، فإذا الوجه بعينه وصفاته ولونه، حتى إذا لم يبقَ في نفسها شك مريب، أنه الأمير وأنه الحبيب، هاج الموقف لها وجدها فمالت فألقت بغصن قوامها الناعم بين ذراعيه، فتلقاها الأمير ولكن ببطن راحتيه وهو مغضٍ حياءً يلعثم قائلاً: لقد أخذتني أيتها الأميرة مكان شقيقي **آشيم** فغضي عليكِ قِناع الحشمة، واعلمي أنني

كما أُمثِّل **آشيم** خلْقةً إلى هذا الحد، فقد أحكيه كرم أعراق، وعظم أخلاق، وأحفظ له في القلب كما تحفظين الأعلاق، وهو الآن غائب ثم تكون له إليك أوبة مشتاق، ما بَعْدها بـإذن الآلهـة فُراق.

فاستأخرت الأميرة عندئذٍ مجفلة، ثم قالت بصوت يقطعه البكاء، وترققه الاستغاثة والاشتكاء: يا للسماء لهذه الخالدة الشَّقاء، الأبدية الإقصاء، وأين **آشيم** الآن؟ أيها الأمير وبأي مكان؟ قال: بالهند يا مولاتي يطفئ نار الثورة فيها. قالت: لقد رأينا في مجيئنا سفنًا تحمل أعلام جلالة الملك وهي تترامى بجنودها آفاق الهند فعسى **آشيم** فيها، ولعله هو حاميها. قال: نعم مولاتي فإن الأسطول الذي عارضته قادمة هو أسطول **فتاح** الذي ليس على المياه الأجنبيَّة في هذه الأيام غيره، **وآشيم** هو أميره الذي بيده زمامه؛ فعادت الفتاة حينئذٍ فبكت واستغاثت واشتكت، ثم رددت يا للسماء لهذه الخالدة الشقاء الأبديَّة الإقصاء.

وفي هذه الأثناء أقبل ثلاثة من الفرسان متلثمون وعليهم أردية حمر وسلاح، فترجلوا دون الأمير ثم تقدم أحدهم فقبّل مواطئه فسأله الأمير قائلاً: مَنْ الرجال وما حاجتكم؟ قال: مِنْ أصحاب الرئيس **طوس** يا مولاي. أرسلنا لنأخذ **هاموس** ابنه هذا المسحور. قال: ومن سحره ومتى وأنا قد عهدته من لحظة خالصًا سليمًا يشرع في الجناية وكنت أحسبه مأخوذًا بهيبتي؟ قال: لا بل بإرادة من الرئيس خفيَّة يا مولاي. ولعله كان ينظر إليه في تلك اللحظة بمنظارٍ من روحانياته كشاف.

فلما رآه وقد هَمَّ بهذا الملك المطهر حبسه كما يرى مولاي. ثم أرسلنا لنأتي به. قال: ولكن **طوس** رجل قاس وأخاف إنْ أنا أذنت لكم بأخذ غريمي أن يقتله، أو أن يسومه من العذاب ما هو أشد من القتل. قال: ليطمئن قلب مولاي من هذه الجهة، فليست عقوبة **هاموس** عند أبيه في كل مقترف إلا كلمة يقولها له همسًا، هي أشد عليه مضضًا من وقع الحسام المهنّد؛ فأطرق الأمير عندئذٍ برهة ثم رفع رأسه فسأل الرجل قائلاً: ألهذا الفتى أم؟ قال: لا يا مولاي. قال: إذن فقد ماتت فمن كانت؟ قال: هذا ما أجهل يا مولاي ويجهله سائر أصحاب **طوس**. قال: إذن فخذوا ابن الزناء فقد فهمت.

* * *

# حزب الأحرار

كان أول من ألقى أساس هذا البناء المعارض لبناء الكهانة، السور المناهض لأسوار الديانة، في أوائل حكم **رمسيس الثاني سيزوستريس** فرعون ملك مصر. وكان الملك نفسه هو روح ذلك العصر الجديد الذي قام به، ونظّم عقد هاتيك المبادئ الحديثة. وهل عقد بغير نظام، وإن كان لم يصدر منه بدءٌ بعمل أو اشتراك أو ارتياح لإتمام. وإنما أصاب به عقلاءُ الأمة يومئذٍ ملكًا فتى ذكيًّا جريئًا، مُربًّى كما يُرَبَّى أبناءُ الأفراد بين حياة الشعب العامة وبين الحوادث والأحوال، فاستقبلوا دولته حق استقبالها وعلقوا بأيامه الآمال.

وكان ضغط الكهنة على خاصة الأمة وعامتها، وبالأخص رجال الحكومة، على اختلاف درجاتهم، وتنوع وظائفهم، شديدًا متواصلاً، زائدًا عن حده، فكان العقلاءُ الأحرار ينكرون عليهم كل هذا التوسع في النفوذ، وتناول حقوق الملك المقدسة والاختصاص بالأمر والنهي في البلاد. أما الملك فقد لَحَظَ الأمر من أول يوم بعين مبصرة، وارتاح لنشأة هذا العدو المستتر المهدد للكهنة شركائه، في الملك بغير حق شركة، ولمنازعيه الحكم بغير حق نزاع. إلا أن ولعهُ الزائد بالحروب وشغفه الجم بالفتوحات كانا يمنعانه من تأليب عناصر الحكومة بعضها على بعض، وفتح حقبة للمشاكل الداخلية ربما تطول فتحول دون ما هو مشغوف به مشغول. فكان يتغابى عن أعداء الكهنة، ويواصل هؤلاء المعاملة الحسنة.

ولهذا بقيت النهضة أدبية محضة، لا تجوز النفوس ولا تتعدى الخواطر والأفهام. إلى أن أخذ **رادريس وبنتؤر**، كلاهما حقه في الترقي في خدمة المملكة، فعهدت إلى الأول قيادة الجيوش الاستعماريَّة العامة، وعيَّن الثاني أستاذًا عامًا للأدب والفلسفة في العاصمة، ومؤدبًا للأميرين الشقيقين **آشيم وبستموس** ابني الملك من الملكة زوجته الشرعية، وكان ذانك الرجلان من أكبر خصوم الكهنة في السر والجهر، وكانا واحدي عصرهما في عالمي السيف والقلم، نافذي السلطان الأدبي على أبناء طائفتيهما. فهذا تنجذب إليه الجيوش كما تنجذب إلى النصر، وهذا فعول بيانه بالألباب ما تفعل الخمرُ، فلما تقلدا منصبيهما الجديدين تقلداهما على الفور سلاحًا ماضيًا لمناهضة الكهنة والسعي في رفع نير ذلك الاستبداد عن العباد والبلاد.

ثم كان من سعدهما أن العدو مُني بفقد دعامة من أرفع الدعائم وركن من أركان بنائه الجسام، ألا وهو **طوس** الكاهن الأعظم لطيبة؛ أي رئيس الديانة في القطر كله. ولم يكن مات ولكن فَرَّ من خدمة الديانة، لأسباب سنوردها بعد، وعلى وجه كـدر صـفو القـوم تكـديرًا. وانسحب على أثر **طوس** كثيرون من أذكياء الكهنة انضموا إليه، فتكوَّن من جميعهم حـزب مناوئ للديانة شديد على رجالها رهيب.

وكان الملك قد فرغ من فتح الأرض، ولكن بعد أن أصبح كهلاً غير قادر المشـيب. وكان لم يزل في موقف النظارة تلقاء هذه الحرب الخفية، وهو يشكو مع الشـعب مـن عتـو الكهنة وعبثهم بحقوقه، موروثها والمكسوب. ولكن كان يغدو على مداجاتهم مغلول اليد، قليل الحيلة. ليس له عن الأمر معاث إلى أن شب **آشيم** وكان أذكى أولاده وأنبلهم وأشجعهم قلبًـا، فاغتنم الملك هذه الفرصة لينذر الكهنة. فقرع لهم بفتاة العصا لأول مرة حيث استعمله علـى منفيس والأقاليم الوسطى، وجعل في خدمته **رادريس وبنتؤر** بالرغم مـن معارضـة الكهنـة وقيامهم في وجهه لمنع هذا التعيين.

ومن ذلك العهد بدا حزب الأحرار للوجود يمتد من منفيس إلى طيبة فأقصى أطـراف المملكة. وظهر الأمير فوق الكهنة كرمًا وجودًا وتواضعًا ورحمةً وإدناء للأمة، ومخالطة لهـا واشتغالاً بها إلى غير ذلك من الصفات التي كانت أضدادها في أبيه، فتهافتت القلـوب علـى كلمته وتسابقت الخواطر إلى تلبية دعوته. كل هذا والحزب خلف الحجـاب والعمـل مسـتتر والنار كامنة في أغوار الرماد.

والآن إذ وقف القارئ على هذا البيان المجمل، عن سيرة الحزب، فلينتقل معنـا إلـى مركز قرية البشنين؛ حيث فيما وراء الجانب العامر الآهل منه، منزل متوسط بطبقـة واحـدة مبني بالآجر (الطوب الأحمر) مبيض بالجير ظهره إلى المساكن، ووجهته خالصة إلى الخلاء، ولهُ مدخل معتم حقير. وهذا المدخل عبارة عن خمارة فيها بعض أرائك للجلوس، وبها منصة عليها كثير من أدنان الخمر، وسلل الفكاهة.

وكان المنزل والخمارة لشاب من أهالي القرية. وكان عزبًا منفـردًا لـيس معـه إلا خادمان يصحبانه من قديم زمان. وكان لا يقبل في خمارته إلا طلاَّب الراحة من المسـافرين أو الآيبين من الصيد والقنص التعبين، وقد جعل الأسعار فادحة حتى تجافت عن محله الأقدام، وصار كل من دَخله مرة خرج مكويًا بغلائه فلا يُثنّي.

فكان أهل القرية، وعلى الأخص أُلاف الخمر منهم، يرمقون الشـاب بعـين المقـت ويسلقونه بألسنة حداد، فيزعمون أن والده ترك له ثروة واسعة كان قد أسسها مـن تجارتـه العظيمة في ورق البردي، فلم يحافظ الفتى عليها بل بددها في أقصر زمان. ولم يستبق مـن

العقار إلا ذلك المنزل؛ فاتخذ فيه حانة وراح يعيش ببيع الخمر. ثم كان السكيرون من بينهم يزيدون فيقولون: وليته ناجح في عمله فإنه يرفع الأسعار، ويعطي بمقدار، ويصرف الزوار، فلا الليل يبيع ولا النهار.

وكانت الخمارة في الليلة التي نحن بصددها حوادثها مفتوحة مشتغلة، وكان في جوفها مصباح ضعيف الضوء عنده أريكة، وعلى هذه الأريكة رجلان يتحادثان، وبين أيديهما شيءٌ من الخمر والفاكهة، فكان أحدهما يقول للآخر: إن الأمير في شغل الليلة يدبر لعذراء الهند مبيتها في قصر النزهة، قال: نعم وأي شغل. قال: فهل تظنه يشرف الجمعية بحضوره كالعادة؟ قال: ومتى عهدنا في الأمير قلة الوفاء حتى بدأنا نظن به الظنون؟ قال: حاشاه وتعالى مروؤته، وإنما أنا انظر إلى كثرة أشغاله وخطارة ما يباشر من الأمر، فالتفت الأول حينئذٍ إلى رب الحان، وكان عند منصته مشتغلاً بترتيب الدنان، فسألهُ: أيها الرئيس كم عندك الآن من الإخوان؟ قال: تموا خمسين ولم يبق من لم يحضر ممن عليهم الحضور سوى الأمير وصاحبيه. قال: فهل اعتذر الأمير برسول أو رسالة. قال: لا ولعله وصاحبيه في الطريق. قال: فكم بقي من الوقت لنبتدئ؟ قال: ضربة الجرس الثالثة، ثم ارتجل نظرة إلى الأفلاك. فقال: بل أرى الوقت قد جاء ولم يبق إلا أن استعد، وانحدر من فوره إلى المخدع في الحان، فعالج بابه فانفتح فدخله، وخرج منه على أثر ذلك الخادمان. فدعوا الرجلين للحاق بالرئيس ففعلا كما فعل، ثم عمدا إلى باب الخان ليغلقاهُ.

وعند ذلك أقبل الأمير وصاحباه فتنحى لهما الخادمان حتى إذا دخلوا أغلق الباب. وابتدر الجميع دخول المخدع وكان خلف بابه مباشرة سلم من حبال فنزلوا منه إلى دهليز ضيق مظلم طويل، فمشوا فيه حتى إذا اجتازوه خرجوا على مكان مشيد الأركان وافي العِظم والاتساع، لا يضيق بألفين من النفوس يجتمعون فيه. وكان مُنارًا بمصابيح قوية الأشعة إن لم يكن ضوءها من الكهرباء، فهو لا ريب ما يلي ذلك مباشرة من الأضواء.

وكان على الجدار الذي يستقبله الوافد على هذه القاعة صورتان إحداهما أسد شاب بيّن الفتاء، بادي مخايل الحميَّة والقوة، وهو مطلق يهيم. ولكن على عينيه رباطًا يحجب نورهما، وهو لا يملك للرباط فكًا. وتحت هذه الصورة مكتوب "**الوطن محجوب مدى المستقبل بالكهنة**" والثانية صورة ذلك الأسد وقد دنا منه طفل صغير؛ فنزع الرباط عن عينيه فأبصر فربض عند قدمي الطفل رافعًا رأسه يتأمله بهيئة الشاكر الممتن، وتحت هذه الصورة مكتوب "**شكر الوطن لحزب الأحرار**" وكانت على الجدار الأيمن أيضًا صورتان: إحداهما فرعون وقد جثا على فخامة جاهه أمام كاهن، وخلف فرعون فتاة وهو ينزع عنها بيده ما عليها من الحلي، والحلل، ثم يجعله على الكاهن الذي قد ناء بما حمل وتحت هذه الصورة مكتوب: "**فرعون**

**يبذل الأشياء الأمة للكهنة**". والثانية صورة تلك الفتاة وقد وقف أمامها طفل صغير وهو يسمو إليها بيديه الناعمتين مملوءتين من أنواع الحلي، وصنوف الجواهر، وتحت هذه الصورة مكتوب: "**حزب الأحرار يرُد إلى الأمة أشياءها**".

أما الجدار الأيسر فكانت عليه صورة فتاة تحمل على رأسها تاجًا، وقد جعلت في يدها اليسرى بضعة تيجان، وأمامها فتاة أيضًا وهي تتوجها بيدها اليمنى، ووراء هذه الفتاة الثانية ملأ من الفتيات مزدحمات ينتظرن، وتحت هذه الصورة مكتوب "**منفيس تتوج مدائن النيل بتاج الحرية مبتدئة بطيبة**" وكان في صدر القاعة عرش، وكان الرئيس يستوي عليه فيملك بإشارته وأقواله إصغاء الحاضرين. أما سائر القوم فكانت لهم أرائك بعضها عند بعض، وكانت درجات للجالسين. فلما اطمأن بالأحرار المجلس قام الرئيس – صاحب الخان – وفي يده ورقة فقال:

هذه أيها الإخوان رسالة وردت على كاتم الأسرار، من الكاهن **شساين** أحد أبناء الجمعيَّة وجاسوسها ومراسلها في المعبد يقول فيها: ثم قرأ:

وقف الكهنة على أمري معهم، فألقوني في سجن الخائنين، المارقين من الدين إلى أن يصدر مجلسهم الأعلى بطيبة حكمه، الذي لا يكون إلا الإعدام على أفظع وجوهه، وإني مستعد للقاء الموت، مدخر آخر أنفاسي في جو هذه الدنيا لأجود به قائلاً: **لتحي جمعية الأحرار.**

فلما اطلعت الجمعيَّة على هذه الرسالة الوداعية قامت لها وقعدت، وأبرقت وأرعدت، ولم تمكث أن اقترعت؛ فأصابت القرعة الأمير وحُرَّين آخرين من كبار الضباط في منفيس. فنهض المندوبون الثلاثة على الفور يصيحون نحن لها ولنأتيكم **بشاين** قبل أن ينفض مجلسكم هذا وللحين لووا على خزانة السلاح فتسلحوا ثم خرجوا وهم لا يدرون أين يتوجهون، ولا كيف يصلون إلى صاحبهم المسجون.

ومما زادهم حيرة وأضعف أملهم بالنجاح أن الليل كان مقمرًا، مكشوف السماءِ يتهدد بالفضيحة كل دباب مريب. هذا فضلاً عن منعة المعبد، واستحالة الوصول إليه، وزحمة الحُرّاس والخفراءِ عليه. فكانت هذه الفكرة تتملك كلاً من الرجال الثلاثة، وتسعى بقدمه فيوغل في السير إلى أن بلغوا باب طيبة. وهنالك وقفوا برهة يستريحون ويدبرون لهم أمرًا. فقال أحد الضابطين: الآن أدركت خطارة المأمورية، وخطر المسعى. فقال الآخر: بل هي الخطوة الموبقة والمنيَّة المحدقة. فقال الأمير: ولكنا حملنا هذا الأمر العظيم فلنصطبر له ولنقم فيه بما يوجب الشرف، وتقتضي الشهامة، غير ناسين أن بين ظلمات المعبد في هذه الساعة صاحبًا لنا من أعز الأصحاب، يعاني عظيم الأسر ويسام أليم العذاب، مهددًا بين لحظة وأُخرى بأقصى

العقاب. فعند سماع هذه العبارة امتلأ الضابطان حماسة من الرأس إلى القدم، وتنصلا مما كانا أَبْدَيَا. فقالا: إنما قلنا ما قلنا من أجلك يا مولاي، وخوفًا عليك. فأما وقد صممت على المخاطرة فيها، فنحن ساعداك، بل نحن وذوونا والعالمون بأسرها فداك.

كانت اللصوصيَّة عند المصريين الأقدمين حرفة من حرف الشعب وكان اللصوص طائفة، ولها رئيس. وكان كل من سرق شيئًا يحمله إلى هذا الرئيس فيأتيه صاحب الشيء فيطلبه منه فيرده إليه بعد أن يحجز الربع ولعل القوم كانوا يذهبون في تحليل هذا السلوك الغريب مع السُّراق أولاً إلى أن اللصوصيَّة مستحيل إفراغها من الدنيا، مهما كان من شدة المراقبة وصرامة القوانين. ثانيًا أن المسروق منه لا تنفعه معاقبة السارق إذا هو لم يسترد أشياءه، بل الذي ينفعه ويهمه رد الشيء المسروق على إهماله وعدم السهر على ماله.

وكان للصوص زي خاص بهم، ولكن لا يعرفه إلا الخبيرون بأحوالهم والأكثرون رؤية لهم واعتيادًا للقائهم، وهم الحكام.

فبينما الأمير وصاحباه كما تركناهم يتفاوضون في ذلك الشأن كان بالقرب منهم على المكان، رجل ملتف بأزار من الكتان الأبيض، وعلى رأسه قلنسوة بيضاء كذلك، وهو منكمش في وضعه، ولكن قريب، بحيث يرى ويسمع. فاتفق أن الأمير التفت فوقعت عينه عليه، فطرده فانسل من المكان كما ينسل الثعبان من حضرة الإنسان. وعاد الأمير فقال لصاحبيه لا تلقيا له بالاً فإنه لص وقد عرفته بثيابه البيض التي يلبسها مهرة اللصوص في ليالي القمر تخلصًا من الظل النمام. وليتنا نقتدي بالقوم في ليلتنا هذه فنخفف من ثيابنا بحيث لا يبقى علينا منها إلا الأبيض. فاستحسن الضابطان هذا الاقتراح، وتجرد الرجال الثلاثة إلا عن أبيض اللباس، ثم استأنفوا السير آخذين جانب السور الغربي، وقد عقدوا العزم على أن يأتوا المعبد من باب الظلام، تسلقًا كأن هذا الباب متروك بلا حراس، مباح لكل من شاء أن يتسلق من الناس، إلا أنهم ما نصفوا الطريق الطويل الذي بين البابين طيبة والظلام، حتى لمحوا لصًا يتسنم السور من نقطة سهلة المصعد، وهو يراهم ولا يواري عنهم عيانه، كأنما لا يعنيه أن يعلموا شأنه فحدثتهم أنفسهم بالصعود على آثاره واقتفاءِ خطاه لعله من معتادي هذا المعبد. وقد اتخذ السور مسلكًا إليه، فابتدروا الصعود من حيث رأوا اللص يصعد.

وكانت نقطة سهلة المرقى في الحقيقة. ولكن ليس في ظاهرها شيء يدل على أنها مصعد معتاد أو سلم عامة للأفراد. وما هو إلا يسير زمان حتى بلغوا أعلى السور. وهناك رأوا اللص وقد اندفع ينساب زحفًا على الأربع في مستوى من سطح السور ففعلوا مثله، ومثلوا من فورهم فعله، واستمروا كذلك سائرين حتى لاح لهم باب الظلام، باذخ الذرى بين العماد والدعام، فتذكروا أنه محفوظ الذروة بالأقوام، محفوف من كل مكان بحراس لا تنام.

فأجفلوا وكادت تخونهم الأقدام، لولا أنهم رأوا اللص، وقد عمد في طريقه لحجر كبير، فأزاله عن موضعه، ثم نزل من ذلك الموضع مختفيًا فأسرعوا نازلين على آثاره، وإذا هم بسرداب ضيّق أسود حالك، تشفق الحشرات منه أن تتخذه مسالك. فما زالوا يزحفون حتى عبروه، وكانت في آخره نافذة ضيّقة فوثب اللص منها ووثب الأمير وصاحباه على أثره. فإذا هم على قمة عامود ضخم عظيم الارتفاع.

فأشرف الأمير من ذروته ينظر، فرأى اللص وقد بلغ أسفل العمود، مستعينًا في النزول بحفر كانت في الحجر، فأرشد صاحبيه إلى ذلك ثم نزل، وهما يتابعانه حتى إذا استقرت الأرض بأقدامهم وقفوا ينظرون، وإذا إلى اليمين باب هائل من حديد، وقد عمد اللص لعتبته فقلعها، ثم ولج فتبعوه والجبن فحازهم دهليز شديد الضيق، يكاد أن لا يجاز وكانت أرضه من نحاس رقيق مائج، مهزوز فاجتازوه ثابتي الأقدام، متشجعين بذلك اللص المقدام، وهنالك اعترضهم باب آخر عال، من سلاسل الحديد العراض الطوال، وعليه حارسان بطلان، ضخمان قويان متسلحان، وخلف هذا الباب صوت أنين ينبعث من كل مكان. فاستأخر الأمير عندئذٍ ينظر ماذا يأتي اللص مع الحارسين، وكيف يمرق من أيديهما.

أما اللص فلم يزد على أن نظر إلى الرجلين نظرة واحدة، متوزعة تأثر كل منهما بقوة سحرها، فانقلب مدار الوجه نحو الحائط وظهره إلى ظهر أخيه، وعالج اللص بعد ذلك عتبة الباب حتى قلعها. ثم دخل فتبعه الأحرار الثلاثة، وإذا هم بقاعة عظيمة تدور بها حجر كثيرة على كل واحدة منها باب صغير من حديد.

وهنالك انكمش الأمير وصاحباه بانتظار ما يأتي اللص، ولكنه كان قد توارى واستتر، ففتشوا عن مكانه فلم يظهروا له على عيان ولم يقفوا على أثر، فتقدموا حينئذٍ يطوفون بالحجر ويجعلون آذانهم على كل بابٍ، لعلهم يعرفون صاحبهم بأنينه. وقد كان، واهتدوا للحجرة التي هو فيها فناداه الأمير: **شاين شاين** اجمع إليك قواك وساعدنا على كسر هذا الباب، فإننا نحن الأحرار، قد جئنا ننقذك إلا أن الكاهن لم يستطع الإجابة من ألم العذاب وفقدان القوى، وأدرك أصحابه ذلك فعالجوا الباب فاستعصى عليهم، فوقفوا حائرين لا يستطيعون عملاً. وقد أخذ منهم اليأس وتمثلت لهم الخيبة شائهة الوجوه. وعندئذٍ شعر الأمير كأن جسمًا صلبًا سقط بالقرب منه فتناوله، فإذا هو مبرد كبير حديد الأسنان ففرح بذلك وبشّر صاحبيه ثم تواكل الثلاثة بالباب، فلم يزالوا به حتى كسروه فدخلوا فوجدوه صاحبهم **شاين** ملقى على بطنه مشدود اليدين والرجلين على هيئة صليب إلى الأرض بأوتاد من حديد مسمرة فيها، وعليه من السلاسل ما يُثقل الجبال حمله فكيف بالإنسان الضعيف. فحملوا بالمبرد على كل تلك الحدائد حتى كسروها وأنهضوا صاحبهم، فنهض واهن الجسم واهي القوى.

وكان في زاوية من الحجرة عقاب كاسر في سلسلة وبين يديه لحم مشوي وماء، فأخذ الأمير ذلك كله وقدمه لصاحبه **شاين** قائلاً: أنت يا عزيزي أولى به من هذا المؤذي الضــارّ. فلما طعم **شاين** وشرب بدأ يسترد قواه قليلاً حتى ملك الكلام فقال: هذا يــا مــولاي وأشــار للعقاب هو قاتلي المنتظر يدخره القوم ليوم يصدر الحكم، فيشق يومئذٍ بطني فيأكل هذا الكاسر من أحشائي. فأجابه الأمير ملاطفًا، ولكن ها أنت ماضٍ وتاركه، بلا غذاء ولا ماء وربما نُسي فهلك ظمأً وجوعًا، فينقلب الأمر إذ تصير أنت القاتل له قال **شاين:** ولكن إننا لا ندري كيــف دخلنا باطن المعبد، ولكن لهذا حديثًا عجيبًا يضيق الوقت عن إراده. فالآن دبر لنا أمر الخروج فذلك شأنك. قال: أمر ممكن فاتبعوني وحاذروا أن تصدر من أحدكم حركة تنبــه الشــياطين النائمة، ثم مشي أمامهم فاتبعوه حتى جاء بهم إحدى الحجر التي في القاعة وكان بابهــا مــن خشب، وكان مفتوحًا. فقال لأصحابه همسًا: داخل هذه الحجرة ثلاث أُخر فــي الثالثــة منهــا الكاهن الموكل بتعذيب المسجونين، وهو لا شك نائم الساعة، فليدخل أحدكم فيقتله، ثــم يــأتي بأربعة أطقم كاملة مما يجده في صندوقه.

وكان للأمير عبد أسود يدعى **شقشاق** وكان عزيزًا عليه فقتله الكهنة يومًا وهو سائر بالبريد إلى بعض الجهات، ثم تركوا جثته بعدما أخذوا ما كان عليه من الأوراق، فحلف الأمير يومئذٍ لأقتل به أقل من عشرة من القوم، وإذ تذكره في تلك اللحظة قال في نفســه: هــذا أول العشرة يا **شقشاق**، ثم استل خنجر ودخل وما هي إلا هنيهة حتى عاد والأطقم الأربعة علــى كتفيه والخنجر في يده يقطر من دم الكاهن فأخذ **شاين** أحدهما فلبسه وأشار إلى أصــحابه أن يتردوا الثلاثة الباقية، ففعلوا ثم مشي بهم حتى جاء باب السلاسل الذي كان اللص قلع عتبتــه، فلما وجدها بهاته الحال، دنا من الحارسين كأنه يريد أن يسألهما عــن الســبب، فــإذا همــا مسحوران لا يريان ولا يسمعان، فالتفت إلى أصحابه مندهشًا فابتدره الأمير قائلاً: هذا شــيءٌ حصل من أجلنا ولنصل إليك. قال: الآن اطمأن قلبي فانزلوا ورائي. ثم اندفع في بئر كانــت هنالك عن يمين العتبة وأصحابه خلفه، يزحفون زحفه، حتى انتهوا إلى سرداب مستوٍ طويــل معلق في سقفه بين مسافة وأخرى قنديل.

فهنالك قال **شاين** لأصحابه: عند القنديل الثالث وإلى اليمين، حجرة خاصة لثلاثة مــن الكهنة، عليهم ملاحظة الحراس بالليل، ولكنهم من السكيرين فلا يؤدون وظيفــتهم إلا نــادرًا وستجدهم إما في السكر وإما نائمين من السكر. ولكن الحزم يقضي بقتلهم على كــل حــال. فوافقه الأمير على ذلك، وهو يقول في نفسه: صاروا أربعة يا **شقشاق** وبخنجر واحد في ليلة واحدة. ثم أسرع فدخل على الكهنة الحجرة فوجدهم كوصف **شاين** لهم هالكين مــن الســكر أو كهالكين. وقد أخذ اثنين منهما والثالث مستمر، ما ينتهي فرغت الزجاجات ولم يفرغ مــن

الشرب فبدأ الأمير به فقتله ولوي بعد ذلك على صاحبيه فألحقهما به ثم خرج والخنجر في يده حديدة حمراء من كثرة الدماء، فلقيه شاين فسأله: هل قُضي الأمر قال: لا تسألني وسل هـذا الخنجر، قال الآن: فانتظروني لحظة فإن لي عملاً في الحجرة آتيه ودخـل مسـرعًا، وفـي الحقيقة ما هي إلا لحظة حتى عاد وفي يده مخلاة صغيرة، فناولها أحد الضابطين قائلاً: خـذ هذه فأخفها في ثيابك وليستحضر كل منا حرف الراء على لسانه إذ هو إشارة الليلة نلقيها على الحراس إذا جئنا الأبواب فنجتازها بسلام آمنين.

واستمر الأربعة يمشون وشاين يحصي القناديل حتى إذا عد السابع منها وكان الأخير، نبه أصحابه فاستعدوا فدق بابًا صغيرًا كان خاتمة ذلك السرداب مرددًا إشارة الليلة فانفتح لهم الباب فاجتازوه فحازهم الفناء الثاني، وهكذا حتى جاءوا الباب الأخير للمعبد أو المدخل، وكان لا يفتح ولا يقفل، ولكن كان يقوم بحراسته ليلاً، مئة رجل من جنود الديانة.

وهنالك لم يشعر الأحرار الأربعة إلا هؤلاء الحراس يمـوج بعضـهم فـي بعـض، متهافتين على السلاح يأخذونه وهم يصيحون: الفارين.. الفارين... اقبضوا عليهم.. اقتلوهم.. فتفزع الأحرار لأول وهلة، ثم استحضروا ثيابهم واستجمعوا للمقاومة فكانوا كلما حملت هاتيك الجنود دفعوها بمثل ثبات الأسود، حتى إذا ضاق الشرك واستحكم المعترك، وتناهى الموقـف ودنت الساعة، وآن للكثرة أن تظهر على الشجاعة، وقع الفشل على بغتة في صفوف العـدو، وتلاه سيف خفي يخطف الهام ويطير الأعناق. فما هي إلا هنيهة حتى هلك فريـق، وهـرب فريق، ولم يبق على أبواب المعبد إلا الأمير وأصحابه. فالتفت شاين حينئذ إلى الأمير، قـائلاً: أتدري يا مولاي من أين جاءنا البلاء؟ قال: لا. قال: من هذه الغرفة. وأشار لها وكانت علـى الباب. فإن فيها كاهنًا ساحرًا، وهو الذي نبه القوم لخروجنا. قـال: وهـل يكـره أن يلحـق بأصحابه ثم ابتدر باب الغرفة فكسره ودخل. فقتل الكاهن وخرج بعد ذلك فمشي فـي رفقائـه حتى إذا صاروا بعيدًا عن المعبد وبمأمن من غوائل جواره، رأوا ذلك اللـص بعينـه، وقـد انتصب أمامهم كأنما يُعرّفهم من هو ثم اختفى من حيث ظهر، وتركهم مبهـوتين مبغـوتين. يتساءلون: هل انشقت له الأرض فنزل أم ملك جناحًا فطار للسماء.

ثم إنهم استمروا سائرين إلى أن وصلوا الخمارة ففتح لهم فدخلوا وكان المجلس منعقدًا لا يزال فلما رآهم الأحرار، وقد آبوا **بشاين** حيًا سالمًا قابلوهم بضجة تعجب واستحسـان ثـم لاقوهم بصيحة وامتنان، ونظرت الجمعيَّة بعد ذلك في أمر من الخطارة بمكان. وهو السـعي في إبعاد قائد الفرق الاستعمارية عن منفيس واستبداله بغيره من القواد المحالفين. فأخذ الأمير نجاز ذلك على همته وتدبيره، وختمت الجلسة بتسجيل هذا الوعد، ثم تفرق الأحرار، ولـيس بما دار في تلك الدار قط دار.

## حادث باغت

كان قد مضى على نزول عذراء الهند في قصر النزهة بالضواحي نحو شهر والأميرة متقلبة في صنوف الكرامة، موفورة الخفارة والحراسة يحمي قصرها وساحاته نحو ألفين من الجند عليهم ضابط عظيم، وكانوا متوزعين بين جهات القصر وبين معسكره الناهض دونه كالسور، يحيط به ويدور ويعصمه من طوارق الأمور.

وكانت عذراء الهند نُشرت بسرور الملك بقدومها وإظهاره مزيد الارتياح لرؤيتها في طيبة عاصمة مملكة الآلهة، فكان العزم معقودًا على أنها لا تطيل بمنفيس المقام، أكثر من بضعة أيام، ثم تلبي دعوة ملك الأنام.

وفي الواقع لم تلبث الأوامر أن وردت على الضابط من ديوان الجيوش بمضاعفة الانتباه، ودوام السهر على حفظ الأميرة أولاً، وبالاستعداد لمرافقة ركابها في سفرها القريب إلى طيبة ثانيًا، فأُبلغ مضمون ذلك إلى الأميرة فسُرَّت كثيرًا، وباتت تنتظر بصبرٍ نافد ساعة القدوم على الملك الأعظم ملك طيبة ومنفيس.

إلا أنه لم يمض يوم أو يومان على ورود هذه الأوامر، حتى جاءت من القائد **رادريس** رئيسه الحقيقي في هذا المركز رسالة بتوقيعه يقول فيها: "بناءً على الأوامر الخصوصية أدعوك لتخلي القصر والمعسكر توًا فتنتقل بكل جندك إلى النمرة الثالثة حيث بانتظار أوامر جديدة" **رادريس.**

فتلقى الضابط هذه الإشارة بواجب الطاعة الجندية فأخلى للحين القصر والعسكر، وسار يؤُم بفرقته النمرة الثالثة التي هي نقطة في الخلاء تبعد عن القصر مسيرة نحو سبع ساعات. وكان ذلك في أول يوم دخول الليل. فما هو إلا أن ساد الظلام واطمأن بملك الدنى والعوالم جائرًا مباحة في حماه الجرائم حتى تلبس القصر بشر حال، فامتلأت ساحته بالرجال وكانت الأميرة خلف نافذة تنظر وكانت لا يزال بها روع من رواح الجنود، فضاعفه هذا الاحتلال فاستغاثت عندئذٍ قائلة: يا للسماء، لهذه الخالدة الشقاء، الأبدية الإقصاء، ثم ترامت السلم فنزلت هائمة متكسرة على درجه. وكان له باب فقامت خلف هذا الباب واستندت كالمختبئة، فلم تدر إلا بالجدار قد تزحزح ودخلت غير عالمة من أين ولا كيف؟ وأخذ الحائط

على الأثر شكله الأصلي، فعاد بنياناً مرصوصًا مستويًا لا سبيل المريب إليه. ولم يعد ممكنًا للفتاة أن تزحزح من خلف، فتظهر من حيث اختفت لأن للخروج كما للدخول سرًا كانت تجهله ولا تطمع من الصدفة أن تهديها إليه.

وفي الواقع كان تخوف عذراء الهند في موضعه، فإن الرجال ما مكثوا أن صعدوا إلى القصر، فأوسعوه بحثًا وتنقيبًا، وعاثوه جسًا وتقليبًا، معاينين جهاته ونواحيه، معرضين عن كل ثمين فيه، لا طلبة لهم إلا الأميرة، يريدون ليأخذوها أسيرة. فلما لم يلقوا لها عيانًا، ولا كشفوا لها مكانًا، هموا بالخروج من حيث دخلوا. وكان فيهم ذاك اللص، لص ليلة المعبد ولم يكن منهم، ولكن رآهم يدخلون فادخل في زمرتهم فعرف من هم. ووقف على حقيقة مشروعهم وما جاؤوا يرومون، وإذ تحقق عدم وجود الأميرة بالقصر سبق القوم إلى الأبواب فغلقها، ثم أضرم في الدار، حتى إذا ألحقها ومن فيها الدمار، تركها فحمة تتوقد وسار، وهو يردد بملء شدقيه قائلاً: أنا **طوس** ولي السعود والنحوس، المنتقم للنفوس، من طائفة القسوس.

* * *

# بيداءُ الذئاب

كان على بعض الدروب المفضية إلى طيبة ببيداءُ يقال لها بيداء الذئاب، نُزُلٌ صغير بطبقة واحدة، يديره رجل وامرأته، وكانا متوسطين في العمر لا يتجاوزان الخمسين. وكانا ربعتين مملئتين، وكانت السذاجة منهما بمكان لطول ما عاشا في الوحدة، ولزما البيت، وسكنا الخلاء. وكان درب الذئاب قليل الطُرَّاق من الأفراد، فلا يسير عليه إلا الجند شراذم، أو القوافل قددًا. ولهذا كان النُزُل قليل العمل، قليل أسباب الكسب. ولم يكن صاحباه أخوي دنيا فيبكيان من تغيُّض موارد الرزق، أو يشكوان من صعوبة المَحْيا، بل كان معنى ونضرتها عندهما أنهما لا يعدمان القوت.

ففي ذات ليلة طرق النزل عشاءً رجل مسافر، فخرج إليه رب الخان. وكان الطارق فتى هنديًا حسن المنظر ظريفهُ، غالي اللباس نظيفه، يحكم رائيه لأول وهلة أنه ذو نعمة، ومن عائلة شريفة، فحين وقعت عين الرجل عليه ضحك ارتجالاً كأبسط الأطفال، ثم صاح بامرأته قائلاً: حقًا إن السماء تمطرنا هنودًا يا **بربة**؛ حيث لم تكفها ممسوخة الصبح فبعثت لنا بهذا الممسوخ الآخر. وكان للفتى يسير إلمام باللغة المصرية، وكأنما تعلم مبادئها في المدرسة، ثم زادها على المبادئ في سياحته بمصر؛ ففهم عبارة الرجل وتأثر بها بادئ بدء غير أنه لم يلبث أن استقل عقله، واتهمهُ بالبساطة.

وإذ كانت الراحة ضالته الوحيدة ركَن إلى المداراة، فخاطب الرجل قائلاً: إنما أنا طالب راحةً أيها الرجل. فإن كان هذا البيت نُزُلاً عموميًا، فأنزلني وخذ الأجرة وزيادة. وإن كان منزلاً لك خاصًا ولأهلك فاقبلني ضيفًا شريفًا يرعى الحرمة، ويذكر الجميل. قال: نحن أيها الفتى لا نضيف الناس ولا يضيفنا أحد، وإنما هذا خان مستعد لنزول أمثالك، فادخل فخذ راحتك. ثم إنه دخل ودخل الفتى على أثره، فحضرت عندئذٍ المرأة فعرضت على المسافر ما كان خاليًا من غرف الخان، فاختار واحدة منها لمبيته، ثم طلب شيئًا من الطعام، واستعجل فقدم له من الحاضر المتهيئ وشرب ودخل بعد ذلك غرفته فنام.

فلما كان قبيل الفجر استيقظ الفتى من نفسه، كما هي عادة سكان البوادي والخلوات. فلم يكد يخلص حواسه من آثار تخدير النوم، حتى سمع شبه أنين، وكان مصدره الغرفة

الملاصقة لغرفة نومه، فجعل أذنه على الحائط المشترك، ثم استند إليه ينصت فإذا هو بصوت أنثى، وهي تصل البكاء والأنين، وتقول بلسان هندي مبين: (البسيط)

**ماذا تَريدُ بإبعادي وإبعادي — يا دهر ما أنت إلا جائرٌ عادي**

**لم يكفك الرزء في ملكي وفي وطني — وفي شبابي وفي صفوي وأعيادي**

**فَرُحْتَ تبعد أحبابي وتقذف بي — مع المخاوف من وادٍ إلى وادِ**

**حتى مررت على الأيدي يدٍ فيدٍ — وطالَ في عالمِ الأهوالِ تردادي**

**فمن شقي إلى لصٍ إلى نفقٍ — إلى ظلام بروعي رائحٍ غادِ**

**إلى قِفَار إلى سَهلٍ إلى جَبَلٍ — إلى غُلام من الفُجَّار مصطادِ**

**أروح في أسر سلطان الهوى وأجي — ولا أبي لي ولا سلطانه فادي**

فكان الفتى يصيخ لما يقوله الصوت، وهو يكاد يخرج من رشده ويود لو خرق الحائط لينظر، فلا يمنعه إلا الشك في كونه يقظان. وأن ذلك ربما كان حلم وسنان. وكان نجم الصبح قد بان، ينير سماء الأكوان، فشغل الفتى عندئذ عما كان فيه أنه نظر إلى الفضاء، فبدت له من بعد خيام على البيداء ولم يكن رأى من ذلك شيئًا حين وفوده في المساء، فاستغرب الأمر وأحب أن يعرف من المخيم فخرج من غرفته، يبحث عن رب النُزُل ليسأله فألفاه وامرأته في المطبخ، منكبين على لبن يغليانه، وفطير يهيئانه، فتقدم فحياهما ولم ينبسا بجواب.

فدنا حينئذٍ من المرأة وبيده عقد من اللؤلؤ فأراها إياه قائلاً: هذا يا سيدتي لك إن عَرَّفتني مَن الفتاة التي بجانبي، ولمن الخيام التي دون النزل على البيداءِ فاشتغلت لحظة بما رأت، عما كانت تباشر من العمل، فزجها الرجل قائلاً: ما لكِ ولهذا الهندي الحقير، التفتي إلى اللبن والفطير، فما كل يوم يمر الأمير. فضربت المرأة الفتى بكوعها، ثم عادت لما كانت فيه من العمل. أما هو فلم يجد بدًّا من الانصراف فانثنى خارجًا، وقد صار عنده نصف الخبر، ولكنه ما بلغ باب المطبخ حتى أبصر الفتاة مقبلة فابتدر لقاءها قائلاً: ليس ذا وقت خطاب الزوجين، فقد وجدتهما يا سيدتي مشغولين بتهيئة بعض اللبن والفطير لكاهن عظيم مخيم في رجاله دون النزل. قالت: هذا ما كنت أريد معرفته فشكرًا لك يا سيدي.

ثم انثنت عائدة إلى غرفتها وتركت الفتى بلا حراك ولا وجدان. إذ كان قد عرفها من أول نظرة. غير أنه خاف على حيلته أن تفسد فاستجمع وتقوّى ودخل غرفته، وكانت مفتوحة فتركها كما هي، وجعل يتمشى فيها وهو تعب النظر حيران، بين باب الفتاة وبين باب المطبخ، حذرًا وخوفًا، أن تجتمع بصاحبي النزل أو أحدهما، فتعلم أن الأمير مخيم تحت شباكها مقيم، وقد صمم على أن يحول دون هذا الاجتماع كائنًا ما كان.

ولقد كان من سعد الفتى الهندي أن الزوجين خرجا بعد قليل يحملان بعض الأواني والقدور، وأغلقا خلفهما باب النُزُل فاطمأن بذلك قلبه، ورأى أن تمام الحيلة وكمال التدبير، يقتضيان الصبر والكمون، حتى يرحل الأمير. وكذلك كان؛ حيث لم تمض ساعة من الزمان، حتى زالت الخيام عن المكان، وعاد الزوجان مسرورين يلعبان بالأصفر الرنان. وكانت الفتاة قد خرجت تتمشى في فناء الخان فرآها الرجل في دخوله فصاح بها، والذهب يلمع على بطن راحته: تعالي أيتها الهندية انظري في أمرائكم من يجود بمثل هذا القدر من النقود، فأضحكت بساطة الرجل الفتاة غصبًا، فمشت نحوه والفتى خلفها، وهي لا تراه فلما صارت أمامه، ورأت ما في يده قالت: حقًا أيها الرجل لقد أعطاك الكاهن فأجزل. قال: لا تقولي الكاهن يا ممسوخة الهند. وقولي: الأمير فاضطرب وجدان الفتاة لذكر هذا اللقب. وسألت الرجل قائلة: وأي الأمراء ذاك فهم كثيرون؟ قال: رب منفيس الأمير **آشيم** ولي عهد جلالة الملك. فعند سماع ذلك لم تزد الفتاة على أن صرخت قائلة، يا للسماء، لهذه الخالدة الشقاء، الأبدية الإقصاء.

ثم غشيها إغماء طويل فأوقعت الرجل وامرأته في حيرة شر حيرة لا يدريان ماذا يصنعان، فلما رآهما الفتى خائفين يتعوثان دنا منهما فقال: لا تخافا يا سيديَّ ولا تقلقا، فلا أحسب هذه إلا صرعة عصبيَّة تقوم منها الفتاة بعد لحظة. قالا: وإن هي لم تقم أقامت علينا قيامة الحكومة. قال: إذن فسلماها إليَّ وأنا المسئول عنها. قالا: خذها ولا تعودا وأنتما مسامحان في الأجرة. قال: بل هذا العقد من اللؤلؤ لكما، عن الفتاة وعني فخذاه مباركًا لكما فيه، ودفع إليهما العقد، ثم إنه حمل الفتاة على ظهره وانطلق ذاهبًا.

* * *

# هاموس في القفاز يهيم

لما حمل الفرسان الثلاثة **هاموس** إلى أبيه، وكان غضب الشيخ في غايته، جذب إلى شفتيه الغلام وهمس ثلاثًا: يا ابن الزناء يا ابن الزناء يا ابن الزناء. وكان إلى هذه الصيغة ينتهي السباب عند المصريين الأولين، آباء الأخلاق. فلما قذف به من أبيه شرٌّ قاذف في هذا المقام. أقسم لا جاور بعد ذلك بلدًا، ولا عاشر من الناس أحدًا، ولا عاش إلا في الصحاري والقفار، ولا مات إلا ممزقًا بالأنياب والأظفار؛ فرحل من فوره عن منفيس وخرج هائمًا يترامى الخلوات، وينتقل من فلاةٍ إلى فلاة. كأنما خرج من الحياة.

فبينما هو ذات يوم في هيامه، يسير على بيداء الذئاب، بدا له من بُعد شخصان، وكانا ثابتين لا يتحركان، فأخذ وجهتهما، حتى تمكن نظره منهما، وإذا هو بجريمة من مثل ما كان بدأ فيه وشرع. وقد أوشكت هذه الجريمة أن تقع، فتشمر الغلام يعدو وهو يقول في نفسه: أما وأبي الذي لا أعرف سواه ليكوننَّ عند ابن الزناء، كما عند سائر المصريين نجدة، حتى إذا صار ثالث ثلاثة رأى قاتلاً وما قتل. ولكن همَّ فمسك يده المطمئنة بالخنجر، ثم نزعه منها فتركه أعزل لا يملك للجناية إتمامًا.

والتفت بعد ذلك إلى الفريسة، فأجفل بغتة وابتعد، واضطرب وارتعد، فنظرت إليه الفتاة نظرة ردت إليه الجلد، فدنا إليها فأخذ بيديها، ثم جثا لديها. فقال: الآن يا مولاتي محا الإساءة الإحسان، ولم يبق إلا التجاوز والغفران. قالت: لقد غفر لك ما سلف يا **هاموس**، فلا تقتل غريمنا ولكن عجزه. إنه ليس بعيدًا. إنه ابن عمي. قال: سمعًا وطاعة يا مولاتي. فمُريه أن يسير بين أيدينا أسيرًا أو كأسير، حتى أتمم نوبتي بإيصاله إلى الأمير فأشارت الأميرة حينئذٍ **لثرثر** أن يمشي، فمشي واندفع الثلاثة يسيرون.

* * *

## ظهور النمور حارس بعد الخفاءِ

كان قد بلغ **آشيم** في بداية قدومه للهند أن عشيقته اختطفت، وأن أباها يتهم رجلين من مصر رؤيا تحت سماء مملكته، قبل اختفاء الأميرة بأيام، وأنه جاء من أجل ذلك على مصر، وملكها وصاحب عهدها، ولا يبرئ هذا الأخير أن له يدًا في الشر وباعًا، ووقوفًا على دخيلة الأمر واطلاعًا. إلى غير ذلك مما كاد الأمير يجن به سماعًا.

إذ كان أول ما قام في ذهنه أن ذينك الرجلين لا يمكن أن يكونا إلا من عمال الكهنة أو مأجوريهم، وأن والد الفتاة معذور في ظنونه التي يحللها جهله بمجاري الأمور في مصر، ومصير أحوال الأحزاب فيها، فزادته هذه التأملات غضبًا على غضب من جهة الكهنة، بقدر ما بعثت من رحمة فؤاده نحو والد الحبيبة، ففتح الحرب برسالة خصوصية بعث بها إليه يقول له فيها ما معناه: تعلم أيها الملك ما أنا آتٍ في بعض قواتنا البحرية من أجله، وتعلم كذلك أن الرماسسة إذا قالوا قالوا صادقين، فإن كان الحامل لك على إغرائك الممالك المتطوعة إلى حد خروج أكثرها من طاعة جلالة مولاي ووالدي الملك، هو حسبانك أن جلالته أو لنا يدًا خفية في مصيبتك بالأميرة عذراء الهند، فتحقق أنك مخطئ في حسابك، وَاهِمٍ في ارتيابك، وثق أنني سأكون معك على الأيام، وفي هذه الحادثة التي لها بقلبي كما بقلبك إيلام. والآن إذ قد صدقتك الكلام، فإني أدعوك لتكف يد المساعدة عن الولايات الثائرة، وإلا عددتك عدوًّا لمصر ولجلالة الملك فلا أبرح الهند قبل إنزالك عن سير ملكك والسلام.

**التوقيع**

**آشيم**

فحين وردت هذه الرسالة على **دهنش** أمعن النظر فيها، فخرج من جنونه ورجع عن سوء ظنونه، فكف للحين عن مؤازرة الثائرين، فكفوا صاغرين. ودخل **آشيم** الولايات فاقتص من كبار الثوار، وأقر فيها الأمن وكان بغير قرار، ثم بارح على الفور الهند آيبًا بالأسطول إلى مصر، ينهب البحار نهبًا ويقرب بعيدها غصبًا. وهو يكاد يفقد السلامة جزعًا وكربًا. حتى عاد لمصر وهنالك حدثه أصحابه حديث عذراء الهند من أوله إلى آخره. وإن الكهنة لم يكتفوا بهذه الضربة القاسية، بل نالوا **رادريس** أيضًا حتى اتهمه الملك بكونه هو محدث الحادثة،

ومضيع الأميرة بسبب الأوامر المزورة المرسلة منه إلى الضابط حارس القصر، وأنه من ذلك اليوم في السجن الخصوصي بطيبة حتى ينظر مجلس القضاء الأعلى في قضيته فيحكم له أو عليه.

فلم تزد **آشيم** هذه الأخبار إلا بلاءً وكربًا وحيرة وجنونًا، وبدت عليه آثار ذلك كله بغتة تتهدد سلامته وتنازعه قوى الحياة، حتى أمسى خواص الأمير يتوقعون إصابة السهم ويتخوفون من حلول الفناء المتعجل، واشتغل الأطباء بهذا الأمر الجلل فتداعوا وتراعوا فقرروا العلاج اللازم، ثم أجمعوا أن الأمير يكثر الخروج إلى بعيدات البيد وأقاصي الفلوات للصيد بنفسه، فإن لم يستطع فبرجاله، وأن يكون للبدو من أوقاته الشطر على الأقل وللحضر الشطر.

فكان الأمير يرحل في خيامه وخيله، فيقضي اليومين والثلاثة على بعض البيد في الصيد، والتمتع من شميم هوائها النقي الخالص بعضه إلى بعض. وهذا وإن كان لا ينفع إلا القلوب الخالصة كذلك، إلا أن صحة **آشيم** كانت تأخذ منه غصبًا بقدر ما كانت تعطي الهم والكدر، وتنيل الكآبة والفكر، وموصول الوجد والسهر، بحي كان العليل يظل وهو لا له ولا عليه، ولا من ثمرات التداوي بالطبيعة شيء في يديه.

فبينما هو ذات يوم مألوف تلك العادة في الصيد، بعيدًا عن رجاله وكان يومًا من أيام قوته ونشاطه، عنَّ له حيوان غريب الشكل تنكره عين المصري لأول وهلة، فطرده فجرى فقفاه بجواد ينهب الثرى. أما الحيوان فاندفع رخيَّ العنان، يعدو كأنه شيطان، ماضٍ في حاجة لسليمان، فبينما هو كذلك في غايات جريه عرفه عارف فناداه مرددًا يا حارس يا حارس فاستوقف الوحش هذا النداء. وانساه البلاء الذي وراء. فالتفت فبدا له أشخاص من بُعد، فقصد وجهتهم فإذا هو بمولاته عذراء الهند تناديه وتخف للقائه وتحييه، فأكب على ساعديه دون أقدامها، كالمتنصل المعتذر عن شيءٍ جني، أو المذنب المستوهب العفو عن ذنبه.

ثم ما هي إلا لحظة حتى أدركه الأمير فأدرك حارس الغرام، بل أدرك القصد وكل المرام؛ حيث جمعت العناية الشتيتين، ودانت الصدفة بين المحبين، بعد أعوام فراق وبين، فوقفت الفتاة وهي بعظم منه الأقدار عليها، أشد منها تأثرًا بحضور الحبيب لديها، ولسان حالها المعقود بنشوة بلوغ المرام، ينشد في المقام: (البسيط)

**يا آنة جمعتني بالحبيب فدًى  لصفوك الطيب الآنات والزمن**

**بمن هو الملك لي من بعد ملك أبي  ومن هو الأهل والأتراب والوطنُ**

فبعد أن تهادى العاشقان تحيَّة اللقاء، وتشاكيا الجوى والحرق بقدر ما مكنهما الموقف من الاشتكاء. وكان **هاموس** قد اختفى فلم يبق على المكان غريبًا سوى **ثرثر**، تقدم الأمير

الهندي فخاطب **آشيم** قائلاً: أنا أيها الأمير **ثرثر** ابن عم عذراء الهند، وخاطبها ومخطوب الملك أبيها وسائر آلها وذويها، فأنا إذن أولى بها منك من كل الوجوه. قال: غير الطبيعي المقدم منها، وهوان تحبك التي تدعي أنها خطيبتك. قال: ليس هذا لنا في عرف معاشر الهنديين، ولا في قانون ولا في دين. قال: وهل أنت ناس أيها الأمير فأذكرك أنك على أرضٍ رمسيسية محضة، طالما رأت ملوككم مكان الخيل في المركبات. فكيف تتغلب لكم فيها أحكام أو عادات. قال: إذن فليحكم بيننا السلاح وليقض العذراء لمن شاء. قال: وهذا أيضًا أمر يحول دونه بعد شأنك عن شأني، ونزول مكانك في المجد عن مكاني. إلا أنني أتنازل مرة في العمر واحدة فأبارزك كرامة لقرابتك من عذراء الهند.

ثم إن الأمير استل خنجرين توأمين وأشار **لثرثر** أن يختار فأخذ أحدهما وانبرى الخصمان على الفور، يتطاعنان على مشهدٍ من الفتاة ومسمع. وكانت هي قد رأت لابن عمها حركات مريبة، فنبهت **آشيم** لذلك قائلة: إن للهنود يا **آشيم** بغتات غدر وخيانة، في مواقف الشرف والأمانة فحاذر قرب غادر قاتل، في ثياب شريف مقاتل. فحفظ الأمير هذه ووعاها، كما أنه لم يمهل خصمه حتى يتمكن من حركة تدليس وخيانة، بل وطعنه في خاصرته اليمنى طعنة تركته ملقي على الأرض يسبح في دمائه.

وبعد ذلك انثنى **آشيم** وعذراء الهند عائدين إلى حيث خيمة الأمير وخيله فكان للحشم والعبيد، برؤية الأمير السرور الذي ما فوقه مزيد، وأرسل الأمر للحين إلى خواصه يبشرهم بالمتلقي ويستنهض هممهم لإعداد زينة، أجل زينة، تشمل الضواحي والمدينة. وأن تسير المواكب فجرًا حافلة تترى لاستقبال الركاب، على الأبواب، وأن يعلن استمرار الاحتفاء والاحتفال، أربعة أيام بليال.

* * *

# أفراح منفيس

مما طلع الفجر الأسعد موعد تشريف الركاب، القادم بالأحباب، حتى تجلّت منفيس وضواحيها، وقد تحلت ببهيج المناظر وضاحيها. فأخذت المنازل زخرفها، وازينت دور الحكومة، واحتفل الأهالي وبهر العيد وتنظم موكبان فاخران، خرج أحدهما للقاء العروسين والعودة في ركابهما، ومد بالآخر من دار الإمارة إلى باب طيبة لتحيَّة الركاب في الطريق، فلم يكن قبيل الضحى حتى أقبل الموكب بالجلال والجمال، يتقدمه قفص من فضة، محمول على عواتق الرجال. وفيه النمر حارس يبدو في حلة عجب، وتنوء لباته بقلائد الذهب. وعلى أثر هذا القفص نحو ألف جندي من كل سلاح، ثم يأتي هودج محمول كذلك على الأعناق، وقد جُعل مكان الشجر منه شجر مصنوع من الفضة والذهب، مكلل بالأحجار الكريمة.

وهذا الهودج يقل الأميرة الهنديَّة وهو يتهادى في أكمل رونق، وأتم بهاءٍ بين هالة من الكبراء والعظماء، محدقة مشرفة. ببدر الإمارة مشرقة، وهو يختال على متن جواد عال غال، مذخور ليوم عيد وصبيحة احتفال. وخلف هذه الكوكبة السنيَّة ألف آخرون من الجند متممين للحرس الكريم ثم يلي جحفل زاخر، لا أول له ولا آخر. هو مختتم ذلك الموكب الفاخر.

واستمر الموكب كذلك سائرًا بين شعب بأسره، على قدم الإخلاص في سيره وجهره، لأميره الساعي في خيره، حتى بلغ دار الإمارة، وهناك أطلقت السجناء، ووزعت الصدقات على الفقراء، وقام **آشيم** بعد ذلك في ركن الإمارة، فاستقبل وفود المهنئين حتى إذا انقضت هذه الحفلة أيضًا، انتقل الأمير والأميرة إلى غرفة مجاورة. فأقاما يتلقيان التحف والهدايا، وهي تقدم بين أيديهما بكثرة، وتزلف من كل صناعة وكل صانع، حتى ضاقت الحضرة عما حضر.

وكان في أخريات المهدين رجل ملتثم، فلما لم يبق من لم يتقدم سواه، دنا فرفع إلى الأميرة درة اهتزت لها الفتاة، والتفت الناظرون ثم أسرع فناول الأمير مرآة صغيرة، نظر فيها فرأى صورته، وهو محمول على تابوت يخرج من قصر أبيه الملك بطيبة، فارتاع **آشيم** لهذا المنظر المشؤوم ودفع بالمرآة إلى عذراء الهند قائلاً: خذي يا عزيزتي فانظري هذا المضحك المبكي، فأخذت الفتاة فنظرت فلم تر شيئًا فردتها إليه قائلة: وما فيها يا مولاي إني لا أرى شيئًا، فأعاد الأمير نظرًا فرأى، ثم أعاد نظرًا فرأى، وانقطعت بعد ذلك الرؤية،

فصارت المرآة بغير صورة، فهدأ حينئذٍ روع الأمير، وراح يتهم أعصابه بالاضطراب طورًا، ويظن بالمرآة السحر تارة، ثم التمس العروسان المهدي ليشكراه فلم يجداه، فسألا عن أمره، فلم يُجدهما السؤال، حتى كأن السقف انفتح للرجل فصعد أو أن الأرض انشقت له فاختفى.

ومرت هذه الحادثة منسيَّة بين ذلك الصفو الموفور، وبين كثرة أسباب الأنس والسرور، بل لم يكن اليوم التالي حتى أرسل الملك إلى **آشيم** يستقدمه هو وعذراء الهند، فلم يجد الأمير بدًا من التلبية، فترك منفيس في أعيادها، تمرح هانئة محتفلة ورحل إلى العاصمة، مستصحبًا خطيبته الكريمة تشيعهما القلوب، أو هي في رحالهما التي ليس فيها إلا محب ومحبوب. فسار الموكب كذلك يؤُم مدينة شمس القوية، إلا أنه لم يكد يجتاز أبوابها حتى تقدم رجل من أفراد الرعيَّة التي كان الأمير عودها، رفع كل حجاب، فقبل الركاب، ثم رفع إلى **آشيم** طائرًا صغيرًا أسود واشتهى عليه أن يحمله لحظة على بطن راحته فأجابه الأمير إلى التماسه، وأخذ الطائر فتساقط على الفور منه ريش، فاستغرب **آشيم** الأمر والتفت إلى الرجل كالمستفهم، فكان جوابه أتدري يا مولاي ما يقول الببغاء؟ قال: وما عساه يقول. قال: إنه يا مولاي يكره لك أن تسير إلى طيبة فأغضب الأمير الذي رأى وسمع. فرمي بالطائر في وجه الرجل قائلاً: ولكني أسير إلى أبي بالرغم من سحركم يا محتالي الكهنة. فانصرف الرجل من حضرته منهورًا خائبًا، واستمر الركاب سائرًا فلندعه الآن في الطريق نحو طيبة، ولنختم هذا الباب بذكر ما كان من أمر ذلك العجيب بعد رواجه عن وجه **آشيم**، فنقول:

أخذ الرجل أو طريق صادفه كأنه ابن سبيل، أو هو من أهل الهيام فلا وجهة ولا دليل، وفي الواقع فإن **طوس** كان قد أوحشه ابنه وواحده **هاموس**، وندم على ما كان من سوء تصرفه معه. فلما لاقى من عناد الأمير وعماه وصممه ذاك الذي لاقى حزن حزنًا كبيرًا. وإذ كان من شأن الأحزان، إماتة الحقد والأضغان، تذكر الرجل ابنه فتاق. والذكرى مجلبة الأشواق، فحلف لا رجع إلى مغناه، أو يرجع إليه فتاه. ثم اندفع بهذه النية يهيم في البوادي والقفار، حتى قطع معظم النهار، وقد عقد العزم على الاستمرار، لولا أنه استمع بأنين، كاد يطير له فؤاده الحزين، فوقف يبعث بالنظرات إلى جميع الجهات، فلاح له من جانب الصوت، شخص بين الحياة والموت، فقصد نحوه حتى بلغه، فإذا هو فتى مجروح يحاول القيام، فلا تطاوعه الأقدام، فسأله **طوس** قائلاً: من الفتى وما شكواك؟ قال: غريب يا مولاي جرحني اللصوص وأنا ماضٍ في سبيلي أقصد إلى طيبة. فدنا **طوس** وكشف عن جرح الفتى وكان موضعه الخاصرة اليمنى، فتأمله وجسه. ثم قال وقد أخذته من حال الغلام رأفة: لا خطر عليك يا بني من هذا الجرح الذي لولا نزول الخنجر بهذه المنطقة أولاً لكان القاضي لا محالة.

ثم إنه صب على الجرح شيئًا من ماء شربه، ورشه بمسحوق من عنده، وربطه بعد ذلك رباطًا محكمًا، ثم أخذ بيد الغلام، فنهض قادرًا على القيم. فقال له **طوس:** الآن يمكنك يا بنيَّ أن تستأنف المسير، إلى طيبة وإن لك إليها لطرقًا ثلاثة أدلك عليها، ووصفها له جميعًا ليختار. ثم ودعه مشكورًا وسار، وقد بدا يبني على الحادثة الظنون. فكان يقول في نفسه: غريب مجروح جرحه اللصوص، وهو ماضٍ في سبيله يقصد طيبة، ما هذا الكلام بل ما هذه الأحلام؟ أين علومك يا **طوس** أين اقتدارك؟ أين نجومك؟ أين أنظارك؟ هل سُلبت كل ذلك النور، جزاء استعلائك والغرور، أم هو المقدور، بنحسك يدور؟

وظل الشيخ سائرًا على تلك الحال بين تراكم أوجال، وتعاظم بلبال، وهموم من كل نوع تنهال، وهو من مجموع ذلك في أسر رؤيا مزعجة مسيئة لم ينتبه منها إلا على ريش الببغاء المتساقط على كتفيه، فعندئذٍ استقبل السماء فقال: يا من نموت ولا يموت، ومن له وحده الثبوت، يا من لا أول لعلمه ولا آخر، ومن إليه الأوائل ثم إليه الأواخر. زنيت في العمر مرة والزناء سبة ومعرة، وأذى لخلقك ومضرة، فامح بعظيم عفوك ذنبي العظيم، واغفر لي ولأم **هاموس** إنك أنت الغفور الرحيم.

ثم إن الشيخ تقدم خطوات في ذلك الفضاء، وكانت الظلماء قد ملكت جهات البيداء، وأضفت حلتها السوداء، على مناكب الغبراء، حتى استعد الأحياء لليلة ليلاء، وحتى قال كل راء: (المتقارب):

| | |
|---|---|
| **ظلامٌ أناخ بلا كوكبٍ** | **ينير ولا بارق يلمعُ** |
| **سل الليل هل أضمر الغدر أم** | **لأمر سوى الغدر يتجمعُ** |

ثم ما هي إلا ساعة زمان حتى انقلب الحال انقلابًا فتحول سكون الجو اضطرابًا، وتهاوت الكواكب انحدارًا وانسيابًا، فحيث التفت رأيت شهابًا، لا يألو جيئة ولا ذهابًا، وانصبت البروق والرعود على الأثر انصبابًا. ثم كان مطر لم يعهد مثله انهمالاً وانسكابًا، فوقف **طوس** لا يتقدم، وقد رأى التسليم أسلم فلعثم من كلمات الاستغفار ما لعثم، وفي هذه الأثناء اصطدم به إنسان سارٍ أعمته حوادث الجو فاستأخر الشيخ مجفلاً. وقال: من هذا الأعمى الضال؟ قال: ابنك وطريدك **هاموس** يا مولاي. ثم وقع الفتى على صدر أبيه فاعتنقا وعندئذٍ نزلت صاعقةٌ من السماء فأهلكتهما وطار الببغاء فسبحانه نحن إليه، ما لحي بقاء، وقصارى سوى الإله فناء.

* * *

# الباب الثالث

## الحوادث في طيبة

# راديس في السجن

كان لجنود الحرس الرمسيسي معسكر فيه ألفان من الجند يغيرون في آخر كل عـــام، فيردون إلى الجيش العام، ويؤخذ مكانهم عدد المثل من أهل الشجاعة والإقدام، وكان للحـــرس كبير ثابت لا يقبل التغيير، وكان يسكن هو وعائلته المعسكر له منه جانب وطـــرف، وحُجـــر خاصة وغرف، وخدم من الجند وحشم كثير.

أما المعسكر فكان طبقات لا طبقة واحدة مبنيًا بالحجر لا بالخشب، خلافًـــا للقاعـــدة. وكان بمرآي من ميدان رمسيس ومشرفًا من بعض جهاته على الشارع الملوكي ومقابلاً، مـــن جهة ثالثة لدار الملك، وخالص الجهة الرابعة إلى النيل تغمر مياهه أسفلها وينظر من نوافـــذها إليه. وفي الجملة كان له الموقع الجميل الخطير، وكان الجانب المطل على النيل من المعسكر قسمين مفصولين تمام الانفصال، أحدهما خاص بكبير الحرس مُرصد لسكناه والآخر خلو من الجند مجعول مخازن وحواصل إلا غرفة واحدة، كان يقيم بها رجل من عظمـــاء الضـــباط، وكأنما حرم عليه براحها فلم يكن يخرج منها ولا يدخلها عليه إنسان. وقد قـــام علـــى بابهـــا جنديان يحافظان عليه أن يبرح المكان، وكان هذا الضابط متقدم الميلاد، قد بلغ الستين أو كاد. وهو مع ذلك صحيح البنية قوي الجسم مرجو السواعد ليوم كفاح وجلاد، غير أنه كان يعلـــو وجهه الاصفرار، وتبدو عليه للضعف آثار، حتى كأن آلامًا أدبية كانت تتملك نفســـه العاليـــة الأبيَّة، وهو متكئٌ على بعض النوافذ يريد ليتسلى برؤية النيل ومائه، وأفقه وفضائه وواديـــه وسمائه، ويأبى الفكر إلا خوض بحار أشغاله وعنائه.

وكان الوقت الأصيل، وهي خير ساعات النيل، فما زال الضابط كذلك، يستجلي بدائع ما هنالك، حتى هجم الظلام يسد دون جمال الطبيعة المسالك. وعندئذٍ لم يدر إلا بالباب يـــدق دقًا خفيفًا. فقام من فوره إلى المصباح فأشعله. ثم التفت نحو الباب يقول: ليـــدخل الطـــارق، فانفتح الباب وأقبلت فتاة من أجمل النساء، وفي أثرها تمساح صغير يرنو بحـــدقتي خنزيـــر، وفي أذنه قرط من الذهب منقوش بالمينة، النادرة الثمينة، وفي كلتا يديه سوار مـــن خـــالص النضار، مرصع بكريمات الأحجار، وهو مستأنس يسير مع ذلك الملك الكريم أينما سار.

وكان الضابط قد عرف الفتاة حال ظهورها فتغير لرؤيتها وجهه وانقطب، ونفر وجدانه من الغضب. أما هي فلم تلق لتغيره بالاً بل كانت تتكلف الهدوَّ والسكينة، وتتظاهر بكمال الطمأنينة، وتتقدم هاشة باشة، وهي تقول: أنا يا قرين أبي العزيز **آرا** وهذا تمساحي نجاة. رأيت أن يزورك معي ليكون اسمه لك فألاً ولتتقي بدعائه شر ما تخبئ للناس الأيام. قال: الزيارة مشكورة يا **آرا** ولكن ما لك الآن وما لي. فما أراكِ جئتِ إلا لتسخري من حالي، ولتزيدي في أوجاعي وأوجالي. قالت: وما الذي يريك ذلك؟ قال: الذي أراني السجن من غير ذنب جنيت. قالت: فلأنت إذن في عذاب أليم. قال: وهل بلغ من استبدادكم يا أصحاب الكهنة أن تنكروا على النفوس البريئة أن تمج السجن.

قالت: دعنا من هذا كله، ولندخل في جد الموضوع. فإني ما أتيت إلا لأذكرك أن من وراء التهمة غداة تثبت زلزالاً لحياتك العالية، وهدمًا لبنيان أعمالك الباذخ بالمجد والفخار. قال: ومتى احتجت إلى مثلك من يذكرني عواقب الأمور. قالت وهي تبتسم: ولكنك محتاج إلى من يقيلك من تهمة الخيانة التي من ورائها الفضيحة والتجريد، والنفي المديد، إلى مكان بعيد. قال: وماذا تريدين بكل هاته الإشارات؟ صرّحي وأوجزي. قالت: أريد أن تعلم أني قادرة على فك أسرك، وإنقاذك من مضيق أمرك ومستعدة للسعي في ذلك، غير سائلة عليه إلا أيسر الأجر. قال: وما ذاك قالت: أن تحلف لي برأس الملك أنك إن عدت إلى مناصبك ووظائفك التي منها العضويَّة في مجلس المملكة الأعلى، وعُرض على المجلس أمر النظر في جواز خطبة عذراء الهند أو عدمه تلزم جانب الحياد عند المناقشة، ثم تحتال على الانسحاب فلا تكون موجودًا في ساعة أخذ الآراء. قال: السجن أحب إليَّ يا **آرا** فارجعي بسلام، ولا تعاودي إن كان ليس عندك غير هذا الكلام. قالت: إذن فالذنب لنفسك لا لغيرها، والعتب عليها وحدها في أمرها. وإني أدعك تراجعها الآن وسأعود غدًا لآخذ جوابك البات في الأمر، ثم إنها مالت قليلاً تخلص ذيل ثوبها، من يدي نجاة الذي كان يجاذبها إياه، كالمداعب حتى إذا تخلص مشت نحو الباب مسرعة، وتبعها **رادريس** فأغلقه وراءها.

ثم عاد وهو لا يكاد يبصر قدامه من ضغط الهموم وزحمة الأفكار، ولكنه ما نصف الغرفة حتى صادفت رجله جسمًا صلبًا دفعته أمامها، فأخذه من الأرض وتأمّله، فإذا هي مجموعة أوراق واردة على تلك الشقية من كثيرين من كهنة طيبة، وأعضاء مجلس المملكة الأعلى. وهي صنفان منها ما يختص بقضيته ويشير إلى تلفيق تهمته، وبعضها يتعلق بخطبة عذراء الهند ويتناول الدسائس التمهيدية لحمل المجلس الأعلى على الحكم برفضها، فلما رآها **رادريس** قد فرجت من كل الجهات، ورحبت بعد أن كانت ضيقة مستحكمة الحلقات، لم يتمالك

أن خر ساجدًا لتلك القدرة التي تجر الظالم للقصاص بقدمه، وتوقعه في شر أعماله بخط قلمه، ثم رفع عينيه إلى السماء، ولسان حاله ينطق مفصحًا بهذا الدعاء: (الخفيف)

**ربِّ إن شئت فالفضاءُ مضيقٌ          وإذا شئت فالمضيق فضاءُ**

وقام بعد ذلك فحمل الأوراق على عظم صدره من شدة الضن بها، ثم أطفأ المصباح، وجاء سريره فرقد على فراش وطئ من الراحة والأمان، والصفو والاطمئنان، وكانت له ليال لم يعرف الغمص ولم يطق الراحة، فما صدق تلك الليلة أن دخل السرير حتى راح في العريض الطويل من النوم: (البسيط)

**كم ساهر خائف والدهر في سِنَةٍ          وراقدٍ آمنٍ والدهر في سهرِ**
**فلا تبيتنَّ محتالاً ولا ضجرًا          إن التدابير لا تغني من القدرِ**

هذا ما كان من أمر **رادريس**. أما ما كان من أمر **آرا** فإنها لما برحت غرفة السجن انثنت عائدة إلى مسكنها في المعسكر، وكانت العائلة في انتظارها للعشاء إلا كبير الحرس، الذي لم يكن يعرف غير مائدة الملك، فجلست فتعشت وما هو إلا أن غسلت يدها من الطعام، حتى جاءها رسول من الملك يدعوها للتوجه إلى القصر.

فقامت من فورها فدخلت غرفتها الخاصة، فبدلت ثوب الكتان الذي كان عليها بثوب آخر من التيل الأرجواني المزركش. كانت الملكة أهدته إليها، وكان لها مشط من العاج، مصنوع من نحو ألف سنة حتى اكتسب صفرة الذهب ونعومة الحرير. وكان أيضًا خارجًا من خزانة الملك هديَّة إليها لمناسبة دخولها في العشرين، فحملته في رأسها بعد أن مسحت شعرها أحسن مسح، وزينته تزيينًا. ثم اتخذت لصدرها زينة، قلادة من اللؤلؤة ذات سلوك سبعة، في كل سلك خمس عشرة حبة من أكبر وأجمل ما تنبت الأصداف. وكانت هذه القلادة مشهورة في عصرها تضرب بها الأمثال. إذا ذكر الغنى والمال، وكانت لها أيضًا مروحة من ريش النعام الأبيض العوّام، بيد عاجيَّة بيضاء نقيَّة، وسلوك دقائق، من الذهب الخالص البراق، مرصعة باليواقيت المستطيلات الرقاق. فأخذتها في يدها، ثم التفت نحو خادمتها الخصوصيَّة فلقنتها بعض الأوامر، وبعد ذلك خرجت مستعجلة الخطو تطوي المعسكر، فالميدان، فالشاعر الملوكي إلى القصر العامر.

* * *

# ليلة أُنس في قصر الملك

كان الشارع الملوكي المتقدّم ذكره عبارة عن طريق طويل مستقيم مرصّف الجانبين بأحسن تنظيم، منحصر بين خطين متوازيين من الشجر المعرش العظيم. وكانت في نهايته سلسلتان من تماثيل أبي الهول البديعة النحت والتصوير، كلها مُكب على الساعدين فوق سرير، من حجر واحد كبير، وهي متقابلة متناقصة الأحجام تدريجيًا، فأولها كبير كبير، وآخرها صغير صغير. ثم يعترض باب عظيم عالٍ، ناهض بالعظَم والجلال، يمسكه عمودان من العَمد العراض الطوال، وخلف هذا الباب فَضَاء عجب، وسوح ورحب، ثم يلوح بستان، تأخذه العينان، وما بهما يدان. وهو يموج بالحيوانات المقدسة، والطيور المعبودة المستأنسة، سوارب هنالك سوارح تأوي الظل وتجيءُ الماء، وتهنأْ مهجاتها النعيم والنعماء. ووسط هذا البستان قصر رفيع العمدان، مشيد البنيان، لهُ دوران، كلاهما في الوضع سيان، وله مداخل توصل إليه من كل مكان، وكان ظهره إلى النيل التصاقًا.

وكان القصر في تلك الليلة هالة تتوقد، بكل فرقد، من المصابيح عند فرقد، وكان الدور الأسفل على الأخس آنس المقاصير، مزدحم الغرف بالجماهير، والملك في حجرته الخاصة يدعو إليها من يشاء من ضيفانه، فيحادثه ما شاء ثم ينطلق لشأنه. أما الحجرة فكانت غاية في الجلال والجمال، مفروشة ببساط واحد غالٍ، من جلد النمر النادر المثال، العزيز المنال، ومغشاة جدرانه من الفضة الممهدة الصقيلة، المتخذة مرآة واحدة عريضة طويلة، وفي الصدر عرش عال مصنوع من العاج النقي البياض. وكان للملك، وكان جالسًا عليه، ثم تشاهد أسرة منثورة ههنا وهنا بين كبير وصغير، ومستطيل وقصير، ومربع ومستدير، بعضها من الخشب المطعم بالعاج المصحف بالذهب والفضة، والبعض من الحجر المجوف المنقوش، ومنها ما هو للجلوس، وبعضها لحمل ثريات التنوير، المنقوش، ومنها ما هو للجلوس، وبعضها لحمل ثريات التنوير، وباقات الأزهار، وأواني الفاكهة، والمرطبات، وقوارير الماء والمباخر.

وكان بين يدي الملك ساعتئذٍ في الحجرة والد **آرا** كبير الحرس القائد **ندور**. وكان في عمر **رمسيس** تقريبًا بين الخمسين والستين، وكان أشبه الناس به في الخلقة والحركات،

والنطق والإشارات، حتى لولا الشعر القصير الذي على رأس الملك والثعبان الذهبي، الذي على جبهته واختلاف الزيين في الزخرف والزينة، لتشابها وتشاكل الأمر. وكان بجنب **نسدور** وعن يمين الملك الكاهن الأعظم للديار، ومعهُ ابنه الشاب **هوتر** وكان من أجمل فتيان المملكة، بل ممالك ذلك العصر جمعاء. وقد جعله الملك على خزينته الخاصة لشهرته بالمهارة في الأشغال المالية، ثم ثلاثة من أمراء العائلة، وكانوا عن يسار الملك. فما زال الحديث يجرُّ بعضه بعضًا بين **رمسيس** وجلسائه حتى تناول أحوال المعابد وشئون العبادة في البلاد، فسأل الملك الكاهن الأعظم: هل ما يزال الشعب على مألوف عادته، من التمسك بديانته، والاجتهاد في عبادته، قال: إنه يا مولاي على حالة ترضيك من التمسك بالدين الذي هو رأس الأخلاق. قال: في الحقيقة وإني لا أجد أمتي بلغت ما بلغت إلا بالأخلاق: (البسيط)

**وإنما الأُمَمُ الأخلاق ما بقيت ... فإنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخلاقهم ذهبوا**

قال: ولكني يا مولاي أبصر بأُمور تجري وأخشى من عواقبها. قال: وماذا عسى يجري الآن مما لا أعلم؟ قال: إنني أشم يا مولاي من أشعار **بنتؤُر** وكتاباته وخطبه ودروسه العامة، رائحة الميل إلى تجريد العبادة من صفتها المادية القائمة بها الآن والذهاب بها في مذهب روحاني محض لم يألفه الشعب من قبل، حتى أصبحنا نخشى أن تتأثر الأفكار بمبادئه الجديدة، فينشأ عن ذلك تمزيق الحجاب بيننا وبين العامة، وجلالتكم سيد العارفين بأن الدين في مصر كالمُلك لا حياة له بدون الحجاب. وإننا معاشر الكهنة دعائم سلطتكم في البلاد، والساهرون على حفظ المهابة لكم في نفوس العباد. فمن تهجم علينا فقد تهجم عليكم. ومن أساء إلينا أساء في آن واحد إليكم.

قال الملك: وعلام كل هذا الاشتكاء يا إمامنا العزيز وأنت تعلم أن القوانين عندي تعلو ولا يُعلى عليها؟ وأن لا مسيء إلا آيل يومًا إليها، ولو أنه ابني **آشيم**. فإن كان فيما يقوله **بنتؤر** ويكتبه شيءٌ يؤذي النظام، أو يخالف الأحكام، فاطلبوا محاكمته، فإن للقانون لا لنا الانتقام. قال: وكيف يا مولاي وإني لأجده أبعد منالاً من لصوص منفيس، الذين يسرقون سلاسل الحق الذهبية من صدور القضاة، وهم على كراسي هيبتهم يحكمون؟ قال: إذن فهو بذمة من القانون وأمان، وليس لأحد عليه سلطان. فدخل عندئذٍ كبير الحرس في الحديث غير مندفع. فقال يخاطب الملك: لعل رئيس الديانة يا مولاي يقصد بما أبدى، أن تكون النصيحة من جلالتك مباشرة **لبنتؤُر** بأن لا يهيم، وأن يرجع إلى هُداه القديم، وإلا فإن رئيس الديانة أكبر أدبًا، وأرفع أخلاقًا، من أن يبغي الضرر والفضحة لقرين صبا الملك وشاعره اللهج بمفاخره بين أبناء الزمان، المتفنن بمحاسن أيامه في كل أين وآن. قال: حسنًا يا **ندور** وإني فاعل ذلك. قال: ولكني أشتهي على مكارمك يا مولاي أن لا تبالغ **لبنتؤُر** في الزجر، وأن تقول له قولاً

كريمًا كما أني أخطر على فكرك السامي، التماس حكومة اليونان إلى جلالتك أن يسير إليها حكيم من رعاياك لينوب عن حكومتك السنية في مؤتمر الفلسفة والآداب الذي ينعقد في هذا العام بتلك البلاد. وإذ كان **بنتوُر** رجل هاته المهمة الوحيد الذي لا أحسب اختيار الملك واقعًا إلا عليه، فمن العدل إذن أن لا يزجر، ولا يهان بل من المروءة أن لا يخاطب قبل سفره في مثل هذا الشأن. قال: صدقت يا **ندور**، وقد أحسنت بتذكيري التماس اليونان.

ثم إن الملك خف خارجًا إلى جمهور ضيفانه، وخف جلساؤه على أثره، فمشي **ندور** بجانب رئيس الديانة يقول لهُ همسًا: كيف ترى حيلة أخيك؟ قال: نعمت الحيلة ونعم المحتالون أنتم يا أصحاب الملوك، وإنه لسفر بعيد وغياب مديد، يكفياننا شر ذلك المهوس إلى أجل، كما ستكفينا المحكمة الكبرى بعد أيام بأس الملعون **رادريس**، فنصبح وقد خلا لنا الجو واتسع فضاء العمل. ثم لنا بعد ذلك ولعذراء الهند شأن.

وكان الملك قد بلغ القاعة الكبرى، فلما دخلها اشتغل القوم بلقائه وتحيته عما كانوا فيه من اللذات في ظل ساحته. وكان أول ما التقى وجهه بوجه **آرا** فتقدمت فمثلت لديه، ثم دنت فقبّلت يديه فوقف معها برهة يتحادثان في بعض شئون القصر.

ثم إن الملك ارتجل نظرة إلى الملإ فلمح **هوتر** مارًا يتمشى فأومأ إليه أن يدنو فدنا. فقال له ممازحًا: ماذا تقول في مرافقة **آرا** يا **هوتر**؟ قال: وهل السعادة يا مولاي والنعيم، إلا مرافقة مثل هذا الملك الكريم. قال: فخذها إذن فتمشيا فلأنت أحق بذلك مني. والحق فوق كل عظيم فأخذها **هوتر** وانثنيا يخترقان الزحام، إلى أن اهتديا لمكان في مأمن من الأسماع والأبصار فجلسا، ثم شرعا يتحادثان. فقال **هوتر** بصوت يشف عن الوجد والحقد: لعل سعيك يا مليكة الغد مصادف بعض النجاح في مشروعك الخطير، الذي أوشكت أن تقبلي المملكة من أجله. قالت: عليَّ أن أسعى وأبذل جهدي، وليس عليَّ أن يساعدني الدهرُ. قال: ولكن **آشيم** يروح ويغدو كارهًا للقائك. قالت وتبسمت: وما ضرني وأنا عندي الذي يبيت ويغدو مغرمًا بي حبًا. قال: ومن أين لكِ نبأ هذا؟ إنكِ واهمةٌ يا **آرا** أو أنتِ تمزحين.

قالت: إنه ليس بالوهم. إنه عين اليقين. وإني لأعجب لك يا **هوتر** كيف تغلب الآلام، وأسألك مندهشة بأي قلب تكتم الغرام، فلبث الفتى برهة حليف الصموت، عصيَّ النطق كالمبهوت، وقد كاد الموقف يغلبه على أمره فلا يملك كتمانًا لسره. وآنست **آرا** منه ذلك. فعادت فقالت: تكلم يا **هوتر** تكلم. وصرِّح ولا تتكتم، وبح بهواك الذي أضناك، وكاشف **آرا** ولا تخفِ الوجد عنها. إنها بها منك فوق ما بك منها. فلم يكن من جواب **هوتر** على هذا الإقرار الصريح إلا أن نظر إلى الفتاة نظرة مسيء الظن مرتاب. ثم قال مستنكرًا: **وآشيم**. قالت: قُبح من اسم وقُبح حاملهُ. قال: ولكني أراك تفعلين ما لا يفعل في سبيله. قالت: بل في

سبيل الملك يا **هوتر**. ولو أن أمري في دفع الطمع بيدي ما بته إلا أنعم الناس، ولكنه داء المطامع تمنى به نفوس، وتعفى نفوس، وما مني به أحدٌ إلا عاش في نكد ومات بالكمد: (مجزوء الكامل).

**تحت التراب خلائقٌ     ما كلهم قتلى المرض**
**النصف مات بجهله     والنصف ماتوا بالغرض**

قال: إذن فأنا أرمي عليك هواك ولا أقبل منكِ هذا الحب المشوب بالسفالة، الدنس من اللؤم. قالت: ارحمني يا **هوتر**. إنك بمهجة وفؤاد ولا تأخذني بما يزين إليَّ الطمع. إنه من جناية الميلاد. قالت هذا وأخذت يد الفتى غصبًا تتأملها طورًا، وحينًا تُقَبلُها وتارة تمرّها على صدرها، ومرة تبللها بالدموع، وآونة تجففها بالأنفاس. أما هو فكان يجمع فمه ليقبل الجبين الذي تيمه. وكلما هَمَّ شعر بأنفة تمسكه عن ذلك فيمتنع.

وبينما هما على هذا الحال سمعت **آرا** كأن مناديًا يناديها فالتفتت وراءها، وإذا هي **آثرت** بنت الملك وكانت خارجةً من غرفة الاستراحة تؤُم القاعة الكبرى، فتوجهت نحوها مسرعة وتركت **هوتر** في شر حالة، فابتدرتها الأميرة قائلة: ما هذه الخيانة يا **آرا**؟ وأين الشرط ما بيننا؟ وهل هكذا جزاء الإحسان؟ قالت: عفوًا يا مولاتي. واعتقدي أن جاريتك على قدم الإخلاص سرًا وعلانية، وعلى ذاك العهد غيبًا ومشهدًا. وإنما نحن نقطع الوقت بالكلام كما يجيء وما هو ترى عندي إلا كبعض الناس. بل لولا أن جلالة الملك هو الذي وكّله بي ليسايرني ويسامرني، لما ضمني وإياه مكان تحت سماء هذا البنيان. قالت: حسنًا يا **آرا** وما زِلت الخليلة الوفية، ولكن هل ذكرني لكِ **هوتر** بأمر حُلو أو مُر خير أو شر. قالت: لا يا مولاتي. قالت وتنهدت: إذن فهو لا يلقي لوجودي بالاً، إلا وهو مشغول بغرام ذي سر. لم أطلع بعد عليه. فمن يا ترى تلك التي تزاحمني على حبيبي. ولا ترجو لأبي وقارًا في مكايدتي وتعذيبي. قالت: هَوِّني عليكِ يا مولاتي فورأس الملك ما قضي **هوتر** إلا لك ولن يقترن إلا بكِ.

وعند ذلك لمحت **آرا** خادمتها الخصوصية مقبلةً من بعد تخترق الجموع نحوها، فاستغربت الأمر وأنكرتهُ في نفسها ومشت إلى لقائها، فلما التقتا قالت لها الخادمة همسًا: إن الملف الذي أمرتِ يا مولاتي أن يُؤخذ من الثوب الأبيض ليوضع في صندوق المصوغات، لم أجده على الثوب فلعلك جعلته في مكان ثم نسيت فما تذكرين؟ فأطرقت الفتاة برهة تذكّر نفسها فلم تذكر من الأمر غير كونها أمضت برهة في غرفة **رادريس** وإنَّ الملف لا بد أن يكون قد سقط منها هنالك، عندما كانت تُخلِّص ذيل ثوبها من يدي التمساح، وما زالت هذه الفكرة تؤثر

في الفتاة ويشتد تأثيرها، فتتمثل لها العواقب سيئة وخيمة، والفضيحة هائلة جسيمة، حتى زاد بها الاضطراب، وتزلزل مجموع الأعصاب فسقطت بين ذراعي الخادمة مغشيًا عليها.

فلما رأى الحضور ما حل **بآرا** تكأكأوا جموعًا يسألون عن أمرها ويستفهمون بصحتها، وانتدب الأطباء من بينهم لتنبيهها ثم نقلت إلى بعض الغرف لتأخذ راحتها، وكان في بعض الزوايا هنالك أربعة شبان من أبناءِ الكبار، وكانوا من الأحرار. فحين نظروا ما أصاب الفتاة لم تثر لهم عاطفة، ولم ينبعث عنان، بل استمروا يتهامسون. فقال أحدهم: إن للأمر لدخيلة. فلقد كنا نراها قبل حضور الخادمة في أتم صحة. قال آخر: وما أدرانا أن تكون قد سمعت شيئًا أكدرها. فقطع الثالث عليه قائلاً: وما عسى يكدرها إلى هذا الحد من الأشياء، اللهُمَّ إلا أن تكون قد علمت بخيبة المسعى في بعض أعمالها الشيطانيَّة. قال الرابع: إن كان هذا أو ذاك فليس في الأمر ما يشغلنا عما نحن فيه من تدبير نزهة للبحر في سحر هذه الليلة.

والآن فأخبروني كم يكفينا من النبيذ، وأي أنواع الفاكهة تختارون؟ وهل لكم في الصيد حتى أُوعزِ إلى تابعي بتهيئة ذلك كلِه وجعلهِ في الزورق وانتظارنا به على المرسى الذي بالقرب من القصر؟ قالوا: عشر زجاجات، وشيءٌ من العنب، واثنتان من أمهر راقصات المدينة تختارهما أنت ومغنيك الخصوصي، الذي ملأتْ سمعته الآفاق. قال: ذلك إليكم وإني ذاهب إلى حيث الخادم لألقي عليه أوامري بالاستعداد.

حتى إذا كان نصف الليل برح الملك المجلس فصعد إلى الطبقة العليا من القصر لينام. وكان المدعون قد أخذوا قسطهم من أُنْس تلك الليلة الشائقة، ولم يبقَ غير الانصراف، فكنتَ تراهم ينهالون على الأبواب زمرًا بين فرادي وثني وكلهم ألسنة تلهج بالثناءِ على مكارم الملك، والدعاء لذاتِه المقدّسة بدوام العز والبقاء.

أما **آرا** فقد كانت أفاقت تمامًا، فلما رأت المجلس ينفض، تأخّرت في جماعة من الكهنة حتى انصرف الناس جميعًا، فخرج الكهنة وبينهم بنت كبير الحرس وما زالوا يمدون لأقدامهم الخطو مسرعين، إلى أن وصلوا المعبد الأكبر. وهنالك قصدت توًّا إلى مبيت وكيل المعبد، وكان نائمًا فنبهته فانتبه فقصت عليه الخبر، وما كان من أمر الملف ووقوعه في قبضة **رادريس**. فلما سمع الكاهن ذلك منها تغبّر وجهه بادئ بدء، وظهرت عليه آثار الارتباك وأطرق قليلاً يفكّر ويدبر، غير أنه لم يلبث أن أقبل على الفتاة، فبالغ لها في الملاطفة وتسكين الجأش ثم أشار لها أن تجلس فجلست، وانثنى هو فأوصد الباب.

ثم عاد فلبس لباسًا خاصًا وأوقد نوعًا من البخور معلومًا له، وجاء بعد ذلك وسط الغرفة فتربّع جالسًا، ولبث كذلك نحو ساعتين من الزمان صامتًا ثابتًا، لا يتحرك منه إلا شفتاه وعيناه، وأحيانًا يداه. كل ذلك **وآرا** ذاهبة الصبر تنظر منتظرة، وتتأمل مؤمّلة حتى نطق

الكاهن، فقال: ها هو قد انتبه من نفسه على غناء وطرب الناس في زورق يتنزهون في النيل، ها هو قد صار في قبضتي وطوع إرادتي، ها هو يحاول المكث في السرير فلا يستطيع، هـا هو يجهد أشد الجهد من تسلّطي على أعصابه، ها هو يمزق ثوبه، ها هو ينزع الملـف مـن صدره، ها هو يفتح النافذة، ها هو قد مد يدهُ بالملف، ها قد ألقاه في النيل.

* * *

# الأحرار في طيبة

كان بطرف من شارع الصناعة مخزن صغير يبيع الأسلحة، وكان يتردد على هذا المخزن ويطيل الجلوس فيه كثيرون من الفتيان، معارف التاجر الذي كان فتى شابًا كذلك. وكان في جملة ألاف المخزن وزوّاره العديدين **بيسمتوس** ثاني أنجال الملك، وشقيق **آشيم** الوحيد. غير أنه كان يغشاه متنكرًا كما هي عادة الملوك والأمراء، في كل أين وآن.

فبينما الأمير ذات يوم جالس في زاوية مستترة من المخزن، وحوله أربعة فتيان من معارفه، وهم يتذاكرون الحوادث والأحوال، دخل شاب هندي فسأل التاجر قائلاً: أرني ما عندك من صنف الخناجر وأبدأ بأصغر ما تبيع منها. قال: إن كان لك في الخناجر الصغيرة، فإن عندي منها ما تستسهل حمله وتأخذه لأول وهلة، ثم أتاه بخنجر في قبضته سلسلة، في طرفها سوار. وقال: هذا الخنجر ذو السلسلة، وهو آخر اختراع، بل أنت لهُ أوّل مبتاع. والذي يُذكر من مزايا هذا الخنجر، التي لا تحصر، أنه يريح حامليه كثيرًا والمسافرين من بينهم أكثر.

قال: كفى فقد أعجبني وأنا مشتريه. ثم التفت حوله فرأى جماعة في زاوية من المخزن، وهم شاخصون إليه، وكأنما أرابهم أمره. فلم يجد بدًّا من اتقاء ظنونهم. فقال للتاجر: وما عندك أيضًا مما يليق أن يحمله الغريب، هديَّة لأهلِه وإخوانه. قال: عندي السلاح قديمهُ وحديثهُ، وَجَيِّدهُ وغثيثهُ، فانظر وتخير. فجعل الهندي يتأمل ويختار، حتى أخذ شيئًا فأعطى التاجر أضعاف القيمة، من الأحجار الكريمة، ثم حيّاه وانطلق. فقال عندئـذٍ أحد أصحاب الأمير: من عسى يكون هذا الهندي يا ترى؟ فقال التاجر: علمي كعلمك في أمره. ولكن القيمة التي بذلها لي تدل على أنه رجل غني واسع الثروة. قال الأمير: لعلهُ أحد الوفد الذين قدموا اليوم برسالة خصوصية من الملك **دهنش** إلى أبي. قال الصاحب: وهل في المدينة وفد هندي الآن يا مولاي؟ قال: نعم وأنا في عداد المدعوين لحفلة مقابلة الملك لهم. قال: ومتى تجري هذه الحفلة يا مولاي؟ قال: اليوم قبيل الغروب.

قال: وما بال الأمير **آشيم** لا يصل مع أن الذي نعلمه أن الأمير برح منفيس أول أمس والمسافة بينها وبين العاصمة لا تحتاج إلى أطول من هذه المدة؟ قال: إن أخي يريد ليجعل يوم

قدومه موافقًا ليوم صدور حكمنا في قضية **رادريس**. فإن كان الحكم الإدانة اغتنم الفرصة ليستوهب الملك العفو عنه، لمناسبة تشريف عذراء الهند لعاصمة البلاد، وإن كان البراءة كان ذلك زيادة في رونق اليوم وبهائه. قال: نِعْمَ الرأي وإنها لأريحية جدير بها مولانا الأمير **آشيم**. وهل حقيقي يا مولاي أن جلالة الملك عهد إلى سعادتك رئاسة المجلس الأعلى، الذي ينظر في هذه القضيَّة؟

قال: نعم. قال: إن **رادريس** إذن لسعيد. قال: إلى هذا الحد فلنقف أسئلتك يا **منحب** فورأس أبي لن يكون **رادريس** بين يدي على علو مكانته إلا كبعض الناس، حتى تنطلق قوانين **رمسيس** فإن قالت بإدانته عُوقب لا محالة، وإن فاهت ببراءته بُرِّئ. ثم لقي من مساعداتي ومساعفاتي ما ينسيه ما كان من سجن وهوان. قال: وهذه أيضًا أريحية أنت بها يا مولاي خليق. ثم أمسك الصاحب عن هذا الموضوع وطرق غيره فقال: ماذا تم يا مولاي في مشروع إنشاء المدارس الحرة؟ قال: صدَّق الملك عليه في هذا الصباح، وصدرت بذلك الأوامر العالية لأولي الأمر في طيبة ومنفيس. قال: بُشرت بكل ما تحب يا مولاي. ففي هذا اليوم لا ريب تقوّض نفوذ الكهنة وانتزع منهم السلاح الرهيب. ولكن كيف خاطر الملك إلى هذا الحد وعلى من اعتمد في هذه العظيمة. قال: تدرع بأخي **آشيم** ليتقي سهام الكهنة. فما زال يهددهم بالاعتزال والتنازل لولي العهد في الحال حتى أذعنوا راضين بأخف الضررين. قال: إذن فإن لنا أن نرجو أن سيكون لمشروع إنشاء المكتبات العمومية هذا الحظ عينه. قال: هذا عزم الملك أيضًا يا **منحب**. ولكنه يرجئ الفصل فيه وفي غيره من مقترحات أخي إلى ما بعد قدوم الأمير، والفراغ من حفلات قرانه. والآن أترككم وأذهب لأرتدي ملابسي الرسمية وأستعد. ثم إن الأمير ودّع أصحابه وانطلق ذاهبًا.

وفي هذه الأثناء دخل شرطيٌّ فطلب من التاجر بيانًا عما ابتاع ذاك الهندي الغريب من مخزنه، واستقصه جميع ما دار بينهما من الكلام فأعاده عليه، فانصرف مكتفيًا بما علم من الخبر.

وخرج الأحرار بعد ذلك فمضى ثلاثة منهم لحالهم، وخطر للرابع أمر مهم. يجب أن يعملهُ الأمير قبل ذهابه إلى الحفلة، فركب جواده وسار خببًا يؤُمّ قصر النجل الثاني حتى وصله. وكان الوقت الأصيل فترجل ودخل فجلس ينتظر فراغ الأمير من لبس ملابسه التشريفيّة. ولم تكن هنيهة حتى أقبل النجل الثاني يختال في حُلَّة عِزه وفخاره، فبدر الفتى إليه وقال همسًا: لا يبعد أن يُجري الملك ذكر والدي بحضورك يا مولاي، وأن ينكر عليه استعفاءه من العضويَّة في مجلس الحكومة الأعلى، فأنا أشتهي على مكارمك أن نبذل المجهود لتحمل جلالته على قبول هذا الاستعفاء الذي كنت أنا الباعث عليه بلطف احتيالي وكثرة إلحاحي

وسؤالي. قال: وهل تحققت بعد تمكن الكهنة من إرادته؟ قال: كل التحقق يا مولاي. بـــل هـــو كأحدهم في جميع أحواله، ولولا ما تفرض النواميس من بـــره، ووجـــوب كرامتـــه وســـتره، لأطلعتك على العجيب الغريب من أمره. ولكني أسألك يا مولاي أن تكتفي بهذا. قال: إذن فثق أن استقالتهُ مقبولة. وأننا غنمنا كرسيًا جديدًا في مجلس الحكومة الأعلى، فقبّـــل الفتـــى يـــده وانصرف، وركب الأمير على الفور فسار إلى دعوة أبيه.

* * *

# الوفد الهندي في قصر الملك

برح الوفد الهندي دار الضيافة الرمسيسية، قاصدً قصر الملك يسعى على الأقدام. وكان مؤلفًا من نحو عشرين مندوبًا ليس منهم إلا أمير أو وزير، وهم يسوقون بين أيديهم هدايا الملك **دهنش** إلى **رمسيس**، من نمورة وجلود وطيور نادرة الوجود، وذهب كثير بين سبائك ونقود، وأحجار كريمة، فوق كل قيمة، وغير ذلك من ثمين أشياء الهند القديمة.

وكان القوم يسيرون خافضي الرأس وإيمانهم على صدورهم وأشملهم مرسلة نحو الأرض، علامة على التناهي في إجلال مزورهم العالي ومقصودهم الفخيم، حتى بلغوا القصر. وهنالك استقبلهم الحُجّاب وأجلسوهم في محل الانتظار، ثم استصدروا الإذن الكريم بدخولهم، فدخلوا على الملك. وكانت الحفلة قد تم تمامها، وتكامل بعظماء الدولة نظامها، فتقدّم حامل الرسالة من بين القوم فسجد طويلاً لدى قوائم العرش، ثم قام فرفع الرسالة إلى **رمسيس** فأخذها الملك ودفع بها إلى كبير تراجمة القصر ليقرأ فقرأ:

من **دهنش** ملك ملوك الهندين، إلى ملك ملوك القارتين، ورب العرش والتاجين، المهيب الجيوش والأساطيل، مولانا **رمسيس الثاني سيزوستريس** صاحب النيل:

أما بعد، فقد سلف من جليل إحسان الملك إلينا، وسبق من جزيل منته علينا، ما يُجَرِّئنا على الالتجاء في حمى قوائم عرش عظمته وشوكته، مستجيرين به من الدهر الغادر؛ حيث فجعنا في جارية الملك كريمتنا عذراء الهند، فساق لها يدًا عادية اختطفتها من خدر عزها وصيانها، فإن تفضل جلالة الملك ومد لنا يد المساعدة العليَّة في سبيل إيجادها، كانت جارية مملوكة يهبها لجلالته والدها المخلص الداعي.

**التوقيع**

**دهنش**

فلما فرغ الترجمان من التلاوة كانت من الملك ابتسامة، ثم أومأ إلى الوفد أن يبرحوا الحضرة، فرجع بهم الحُجّاب من حيث جاؤوا، والتفت **رمسيس** عندئذٍ إلى أصحابه. فقال: أتدرون ما يريد الخبيث **دهنش** بتمليكي عذراء الهند. قالوا: العلم لمولانا الملك. قال: يريد أن

يفرّق بيني وبين ابني بهذه الدسيسة التي كم له قبلها دسائس في علائقه معنا، وأنها لمن أعجب ما خلق دهاء الهنود للآن. ولكن دسائسهم قد كشفت من طول ما أُلفت، وعرفت من كثرة ما وصفت حتى أمسى دهاؤهم المشهور، ولا انتفاع بسيفه المشهور. وهكذا الأمم إذا صغرت عندها الأخلاق، صغرت العقول، وصغر ما تفعل وما تقول.

والآن فليذهب واحد من هؤلاء الحجاب فيدعو الهنود إلى حضور ليلة قرآن **آشيم**. قال الملأ بدهشة: وهل تعينت الليلة بعد يا مولاي؟ قال: نعم وهي الليلة التالية ليوم فصل المجلس الأعلى في مشكل جواز الخطبة أو عدمه. وأنت يا كاتم الأسرار اذهب فاكتب إلى ناس هذا المجلس، بالاجتماع يوم الخميس المقبل أي بعد ثلاثة أيام للنظر في مسألة الخطبة وإنهائها في ذلك اليوم نفسه. قال: سمعًا وطاعة يا مولاي. ولكن ما أوامر جلالتكم بشأن استعفاء العضو الموقر **رمايس**؟ قال: ليقبل وليعين مكانه صاحبنا **بنتــؤُر**. فقام عندئذٍ كبير الحرس فقال: ولكن جلالتكم عقدتم العزم على إرسال الأستاذ **بنتــؤُر** إلى بلاد اليونان مندوبًا ساميًا من قبل المملكة المحروسة في مؤتمر الفلسفة والآداب. قال: قد أُنسيت ذكر هذه النيَّة يا **ندور**، ولكني أمرت فليمضِ الآن أمري، ومتى قدم **بنتؤُر** في ركاب الأمير، عهدنا إليه باختيار من يعهد به الكفاءة لهذه المهمة الجليلة، من بين تلامذته الكثيرين. فأخرس هذا الجواب كبير الحرس. وكان **هوتر** حاضرًا فوصل حبل الحديث قائلاً: بقي الآن كرسي خال في مجلس الحكومة الأعلى يا مولاي. قال: وأي كرسي؟ قال: كرسي القائد **رادريس**. قال: وهل صدر الحكم في قضيته بعد؟ قال: لا بل يصدر غدًا يا مولاي. قال: وإن غدًا لناظره قريب، فما علينا إذا أرجأنا النطق بهذا العزل المهين، حتى تنطق به القوانين. فخرس **هوتر** لهذا الجواب كما خرس صاحبه كبير الحرس من قبل.

ثم إن الملك أشار للملإ أن ينفضوا من حوله فتفرقوا وهم قسمان قسم نكد ذليل، تتمثل له الخيبة بكل سبيل، وهم أعوان الكهنة، وآخر فرح بما لديه فخور، يستقبل الآمال ويستبشر لمساعفة الأمور. وهؤلاء هم الأحرار الذين لم يعد ينقصهم إلا كرسيان لتكون الأغلبية في مجلس الحكومة لحزبهم الظافر المنصور. بل هم قد رأوا وسمعوا في ذلك اليوم المشهور ما صير هناءهم عند غاياته، وجعل سرورهم فوق كل سرور، رأوا ملكًا لا يستصعب الصعب ولا يحذر المحذور. وكان بالأمس قطبًا لرحى أغراض الكهنة عليه تدور، وسمعوا ولكن وحيًا، ومن وراء ألف حجاب أن هذا الملك الشيخ الجسور، ما أتى الذي أتاه إلا وهو قد صمم على النزول عن عرش النيل واعتزال الأمور. فكان حساب الأحرار بل يقينهم، أن **رمسيس** سيغتنم فرصة قران ولي العهد، ليتنازل له عن الملك فيصبحون والأمر أمرهم ولهم وحدهم سياسة الجمهور.

* * *

## محاكمة رادريس

لما أصبح صبح اليوم المضروب لمحاكمة **رادريس**، عقدت محكمة طيبة الكبرى جلسة مخصوصة، للنظر في تهمة الاشتراك في اختطاف عذراء الهند الموجهة ضد **رادريس** والحكم فيها.

وكان المطالب بحقوق الهيئة ضد المتهم في تلك الجلسة، القائد **ندور** كبير حرس الملك والمدافع عن **رادريس**، أحد مشاهير الكُتّاب في طيبة، وكان من كبار تلامذة **بنتؤر**.

أما المحكمة فكانت متشكلة من ثلاثين قاضيًا نصفهم كهنة، والنصف الآخر قُوّاد من الدرجة الأولى، درجة **رادريس**. وكانت مشمولة برئاسة النجل الثاني للملك بصفة استثنائية إكرامًا للمتهم ومبالغة من مولاه الملك في قيمته.

وكان الجميع لابسين ثياب القضاء، النظيفة البيضاء، وقد حمل الرئيس في عنقه سلسلة الحَق الذهبية، بها صورة المعبودة **سانا**، متخذة من الأحجار الكريمة، وعلى رأسها شبه ريشة مجعولة رمزًا على الحق. وهذه الصورة كان الرؤساء يديرونها فيوجه صاحب الحق بدون أن يتكلموا، ثم يُسلَّم إليه الحكم مكتوبًا لينفذه على الخصم، حتى إذا أخذت الجلسة نظامها على ما وصفنا من تمام الأُبهة، وكمال الوقار، شرع الرئيس يتلقى شهادات الإثبات فالنفي شفاهية وبالكتابة إلى أن أتى عليها جمعاء.

ثم إنه عرضها على نائب الملك ووكيل المتهم، ليطلعا عليها، فأخذ كل واحد منهما يزيف شهود الآخر، ويبطل شهادتهم شفاهًا وبالكتابة. وبعد ذلك عرضت عليهما القوانين ليستعينا بها، فعمل كل منهما نتيجته وعرضها على صاحبه ليطلع عليها، ويبدي ملاحظاته الأخيرة بشأن ما جاء فيها. ثم وقّع على الأوراق ووقع الشهود معهم، ورفعاها بعد ذلك إلى هيئة المحكمة لتصدر حكمها في القضيَّة، فلبثت المحكمة في المداولة نحو ساعة من الزمان، حتى إذا درست القضية حق دراستها، ولم يبق غير الحكم زحزح الرئيس كرسيه قليلاً، ثم قبض على صورة الحق المعلقة في عنقه، والتفت نحو نائب الملك فأيقن الحاضرون عندئذ بأنه صاحب الحق، وأن التهمة قد ثبتت على **رادريس** ولكنه ما هم أن يصوّب الصورة إلى **ندور**، حتى سُمِع من جوف القاعة صوت كادت تتكفأ له سماء البنيان على أرضه، وهو

يصيح لا تصوب الصورة أيها الرئيس. وخذ هذا الملف فانظره فإن فيه وحده الحقيقة كل الحقيقة، فتفرغ لذلك القضاة والتفت الناس وطالت أعناق وقصرت أعناق، وابيضت وجوه واسوَدَّتْ وجوه، ثم لم يدرِ الرئيس إلا بشيءٍ قد سقط بين يديه، مقذوفًا به من جهة الصوت. فالتقفه وإذا هو ملف كما أخبر الصوت ومعه ورقة موقع عليها من أربعة من أبناء الكبراء، وهذه الورقة مكتوب فيها:

بينما كنا نحن أصحاب التواقيع نتنزه في النيل، في سحر ليلة كذا صادف مرورنا سقوط هذا الملف من بعض نوافذ الجهة المطلة على النيل، من معسكر الحرس فلتلقفه الزورق، فنحن نقدمه لهيئة المحكمة خدمة للحق ونتكل على عدالة أحكامها، في جميع الأسرار التي يهدي هذا الملف لمواضعها، من قضية البطل الشريف **رادريس**.

**التواقيع**

فلما قرأ الأمير الرئيس ما في الورقة، وكان يعرف تلك الأسماء ويعهد في أصحابها الصدق والنزاهة، ابتدر فض الملف وكان يشتمل على نحو خمس عشرة ورقة، فقرأها ثم أعاد قراءتها حتى إذا لم يبق عنده أدنى شك في صحّتها وصدورها من أصحابها الموقعين عليها، وقف والبشر ملء جبينه وجلال الحق يحف به، من كل الجهات فقال: نحن النجل الثاني بصفتنا رئيسًا لهذه الجلسة المخصوصة المنعقدة بأمر جلالة مولانا ووالدنا الملك، بناءً على ما وُفقنا للوقوف عليه من الأسرار في هذا الملف، الذي لا ينبغي أن يسبق الجمهور جلالة الملك إلى العلم بمشتملاته.

واتباعًا لنصوص قوانين جلالة الملك، المؤسسة على الحِكْمة والعدالة حكمنا.. **أولاً**: بإلغاء التحقيق السابق برّمته.

**ثانيًا:** بتبرئة ساحة البطل المُوَقَّرَ قرين صبا الملك وعفريت الحبشة وَمُدَوِّخ إفريقيا القائد **رادريس** الحارس الأول لسعادة الأمير **آشيم** ولي عهد جلالة الملك، مع تفويض الرأي في التعويضات المستحقة للقائد المشار إليه إلى عدالة ومكارم حكومة الملك.

**ثالثًا:** بإلقاء القبض فورًا على أصحاب الأسماء والألقاب الآتية وهم القائد **منما** رئيس الفِرَق الاستعمارية بمنفيس والضباط **كعكا وشرم ومشتاك** التابعون للفِرق المذكورة، والكهنة **برنابس ومشنا وسبساين** التابعون لمعبد منفيس الأكبر، والأميرة **آثرت** كريمة جلالة الملك، والقائد **ندور** كبير الحرس وكريمته السيدة **آرا**، **وهوتر** مدير الخزينة الخاصة والقاضيان **برام وأنتيون** الجالسان في هذه الجلسة، والأمير **مكارس** ابن أخي جلالة الملك ورئيس مجلس

الحكومة الأعلى، **ونيناي** من أعضاء المجلس المذكور والكهنة **فيرمـــوس وكركـــة وخـــرايم** التابعون لمعبد طيبة الأكبر.

ثم إن الأمير أعلن انفضاض الجلسة فانفضت بين تصفيق من الشعب، وتهليل وهتاف متعالٍ طويل أن ليحيَ الملك، ليحيَ الأمير، لتحيَ العدالة، ليحيَ **رادريس**، ونزل النجل الثـــاني عن كرسي الرئاسة، فتقدم نحو **رادريس** فعانقه طويلاً، ثم خاطبه بصوت عال فقال الشـــعب: أيها القائد العزيز بين منفذ ما ارتجل في تهنئتك ومنفذ ما كان ذخر لتبرئتك، وطيبة لسان واحد حوالي هذه الجدران يهتف أن الحمد لله خير الحاكمين.

على أن شرف العظماء والعظم منك أيها القائد العزيز بمكـــان، كـــورد الحـــدائق إن نزعت منهُ ورقة انحل وانتثر وانتقض جميعه على الأثر. وهذه الورقة قد تنزعها يد العدالـــة، فإن كان ذلك عن خطل منها أو جهالة قيل: "**ضلالة قضاء**" وإن كان عن طغيان من الســـلطة ودوس للقانون قيل: "**قضاءُ بَغْيٍ وضلالة**" فالحمد لله ثانية على أن حاط هذه الـــوردة الزاهيـــة الزاهرة، بعين عنايته الساهرة، بما تولى القضاء في أمرك والله خير الحاكمين.

وإني لا أجد مثلاً لموقف الاتهام المهين، الذي كنت فيه، وكانت الريب عـــن الشـــمال والحق الأَبْلَج عن اليمين، إلا ساحة القتال إذ تجمع بين الجبان الغادر القاتل، وبـــين الشـــجاع البطل الشريف المقاتل. فلا تنفع الأول كمالات محاذية. كما لا تضر الثاني صفات قرينه فـــي الصف وأخيه، حتى يعجل الله الحكم أو يؤجّل، والله خير الحاكمين.

ثم الحمد لله سبحانه أبد الآبدين، على أن أثابك عن ذلك الموقف خير ما يثيـــب العبـــد الصادق الأمين؛ حيث أبي إلا أن ينجلي بهذه التهمة، داجي تلك الغمة، عن سماء كرامة الأمة، فتبيّن الأمين من الخائن، وعرف الصادق من المائن، وهي خدمة للوطن العزيز يقـــل لهـــادم الحياة ثمنًا، فكيف تستكثر لها وقفة بين يدي القضاء، ولا سيما من بطل مثلك، كم له قبل هـــذه من يد عند الوطن بيضاء.

ولم يكد الأمير يستتم حتى سُمعت ضجة أعظم ضجة تلاها ترديد أبـــواق. وصـــوت مزامير يملأ الآفاق، فسأل الأمير قائلاً: ما هذه القيامة؟ فقيل له: إنهُ موكب ولي العهد يســـير في البلد، وقد شارف دار المحكمة. وفي هذه الأثناء دخل أحد حراس **آشيم** فحيي **رادريس**، ثم ناولهُ سيفًا من أفخر سيوف الأمير وخاطبه قائلاً: بأمر سعادة ولي العهد أدعوك أيهـــا القائـــد الموقَّر لتخرج فتأخذ محلك في الموكب، حيث مركبتك الخصوصية مستعدة لتشرق بك في هذا اليوم السعيد. فتقلّد **رادريس** السيف وبرح دار المحكمة محمولاً على الأكف من تحمس الناس في حبه، وبرحها الأمير على أثره فسبق موكب أخيه إلى قصر الملك.

وهنالك عرض الملف على أبيه وأخبرهُ بتفصيل الحال جملة، فكان من وراء بلاغة هذا دهش عظيم للملك، وقيامة استغراب وحيرة بين ناس القصر. وما هي إلا هنيهة حتى أقبل الموكب عريضًا طويلاً فاخرًا جليلاً، فخف ملأ القصر لاستقبال الأمير على الأبواب، وانتقل الملك إلى قاعة التشريفات الكبرى فوقف يحف به الأمراء والوزراء والقواد وكبار الحاشية. وعندئذٍ أقبل **آشيم** خافض الرأس من الخشوع، له عند كل خطوة انحناء وإلى يساره عذراء الهند تفعل كما يفعل، فابتدر الملك لقاءه فقبّله على جبينه ثم لوي على عذراء الهند فَقبَّلها على رأسها، وانثنى بهما بعد ذلك فجلس وأجلسهما إلى جانبيه.

ثم أجال الملك نظرًا في الحاضرين. وقال: أين كبير الحرس؟ فتقدم **ندور** فغضب لرؤيته وطردهُ من حضرته. قائلاً: إني لم أدعُ كبير المجرمين يا خائن، بل دعوت **رادريس** كبير حرسي من اليوم. فتقدم عندئذٍ **رادريس** فقبّل سدة العرش. فبالغ له الملك في المجاملة والإيناس وأكثر من الاعتذار لهُ عما مَرّ من ضيمه وضيره، في السجن وغيره. ثم التفت إلى **آشيم** وقال لهُ: وحق عينيك لا يصحبني **رادريس** إلا يومين، ثم يجمعكما هذا القصر إلى ما شاءت الآلهة؛ فأحدثت هذه الإشارة هرجًا ومرجًا بين الحاضرين إذ عدها أكثرهم شروعًا في التنازل ووعدًا مؤكدًا لولي العهد بملك البلاد.

وبيناهم كذلك دخل مأمور الضابطة في العاصمة وبيده أوراق ليعرضها على الملك، ومن جملتها أوامر المحكمة بالقبض على القوم الذين لوّثهم الملف؛ فاستصدر المأمور نطق الملك بشأن خمسة من بينهم أمرهم إلى جلالته مباشرة، وهم الأمير ابن أخيه والأميرة **كريمة** جلالته وكبير حرسه وكريمته، **وهوتر** مدير خزينته، فصدرت الأوامر بنفي الأمير، والأميرة إلى بلاد اليونان وبأن تسوى المعاملة بين الثلاثة الباقين. وبين سائر المتهمين فلا يعلي في أمرهم على القوانين.

ثم التفت إلى كاتم أسراره فأمره بأن يعين اثنان من تلامذة **بنتؤر**، ينتخبهما الأستاذ نفسه مكان القاضيين الساقطين من المحكمة المخصوصة لتلوثهما بالملف، وأن تنعقد هذه المحكمة غدًا للنظر في القضية الباغتة، والحكم فيها بالسرعة الممكنة، وبعد ذلك طلب جلالته حامل مفاتيح القصر. وكانت تلك عادة له في صرف الزائرين فاستأذن عندئذٍ الأجانب عن القصر من الحاضرين وخلا الملك إلى بنيه وخواصه، فلبث بينهم طويل حين إلى أن أقبل الليل فحل نظام هذا العقد الثمين.

* * *

# طيبات طيبة

لما كان الغد وقد اطمأنت الآفاق، بشمس النيل ذات الإشراق، قامت طيبة على قدم وساق، شأن العواصم الكبيرة، عندما تحدث أمور خطيرة، فكانت عوالم الموظفين، ونوادي المحترفين، وهياكل الدين، ومجالس الأعالي والمتوسطين، ولا حديث لها إلا حوادث الأمس في القصر. ولا تساؤل إلا عن نبأ التنازل. هذا عدا المالكين الشوارع المحتلين للميادين، والغادين في الطرق العمومية، الرائحين من أهل الفراغ من الخاصة، وناس البطالة بين العامة. وكان أكثر انهيال هذه الجماهير على النقط القريبة من القصر، والمُدانية لدار المحكمة، وللبناء المنعقد فيه مجلس الحكومة الأعلى.

وكانت الضابطة قد بثت الشرطة فلم تخلُ منها نقطة وقد قامت بجنب أعوان السلطة، شرطة أخرى متطوعة منتظمة خفيَّة أنشأها الأحرار لتسهر على حفظ نظام اليوم وتحمي صفوه أن يُكَدِّره القوم.

فبينما المدينة على هذه الحال من تواصل الزحام، واستمرار انهيال الأقدام، خرج الأمير وشقيقه ضُحى على جوادين كريمين، وبينهما هودج الخطيبة السنيّة محمولاً على الأعناق، تحيط بهذا الثالوث الكريم كوكبة من نخبة رجال الحرس الرمسيسي. وهو يسير قاصدًا إلى المعبد بين إكبار الشعب وإجلاله، وبين ابتهاجه وابتهاله حتى وصلهُ. وهنالك استقر بالأميرة الهودج ممتنعة عن الدخول، ودخل الأميران على **آمون** حجرته فصليّا ثم قرَّبا له القرابين، من كل غال ثمين. وانثنيا بعد ذلك خارجين فُشيعا كما استقبلا بمزيد الحفاوة والتوقير، فركبا وأعاد الموكب المسير يؤم معرض الصناعة المستديم.

وكان إنشاء هذا المعرض في العاصمة باقتراح من الأمير. فلهذا كان كثير الاهتمام بإصلاحه، والسعي في نجاحه وفلاحه، وتلك شيمة للنفس الكريمة، أنها تحب آثارها وتبالغ لأعمالها في القيمة. فلما بلغه الموكب ترجل الأميران ونزلت الأميرة عن القيمة. فلما بلغه الموكب ترجل الأميران ونزلت الأميرة عن الهودج. ثم دخلوا جميعًا وهنالك أخذ **آشيم** يذكر لخطيبته ويصف، ويشرح ويعرّف، وهي ترى من حسن الصناعة وجمالها، وتَتوآنس من معاني لطفها وجلالها، ما يبهر البصر، ويحير الفكر والأمير يقول لها: جملة القول يا عزيزتي

عن تقدم الصناعة ومبلغها من الإتقان في عهد أبي السعيد أنك إذا أخذتِ مثلاً، عشرة من هذه الجعالي وتمعنتِ فيها، تبادر إلى ذهنك أنَّ الصانع لها جميعًا واحد، مع كون الأمر بخلاف والجعالي لم تصنعها يد واحدة، بل أيدٍ عشر. وإنما هو الإتقان في طباع كل صانع مصري. وتعلمين أن الإتقان، أعظم أسباب العمران، وأكبر دواعي الحضارة والتمدن.

حتى إذا فرغت الأميرة من هذه الزيارة المفيدة، رفع إليها أحد الصنَّاع أولي الآثار، في تلك الدار، هدية خاتمًا من ذهب ذا فص من العقيق الأبيض النقي، في حجم العدسة منقوش عليه صورة بحر وأمواج بينها فتاة تعالج الغرق. وكانت هذه الصورة آية في الإتقان، بل غاية ينتهي إليها في فن النقش الإمكان، فتقبلتها الأميرة متظاهرة بالشكر والامتنان. إلا أنها تشاءمت في نفسها؛ إذ كانت كثيرًا ما ترى في منامها مناظر فظيعة من هذا القبيل تكون هي فيها محل الغرق.

ثم برح الجماعة، دار الصناعة، فساروا ميممين دار التحف الرمسيسية، وكانت تشتمل على ثمين الأشياء وغاليها؛ مما أُهدي إلى الملك في مدة حكمه الطويلة، فرأت عذراء الهند في هذه الدار من العجائب والغرائب ما أنساها ذكر الخاتم. وما عليه وتلك الأحلام، التي طالما بغضت إليها طيب المنام، حتى لقد بلغ منها البشر والإيناس، أنها أخرجت يتيمة الصين التي كان طوس أهداها إليها يوم قدومها بالصفة الرسمية لمنفيس، فناولتها **آشيم** قائلة: وأنا أيضًا أودع هذه اليتيمة في هذه الدار، هديَّة مني لمولانا الملك وتذكارًا لزيارتي أنفس تذكار، فأخذها الأمير وتأمّلها فإذا هو بتلك الصورة عينها صورة الشؤم المنطبعة على المرآة، فاغتاظ وتهيج ودفعت به الحدة إلى أن ألقى سيدة الدرر في الأرض بقوة فذهبت ألف كسر.

ثم أخذ الأمير بيد خطيبته فخرجا والنجل الثاني يتبعهما فركب الثلاثة وساروا في مواكبهم قاصدين حقول الملك في الضواحي، وهي بساتين واسعة تجري فيها الأنهار وتتخللها العيون وقد أرصدها الملك لتربية سوائمه الخصوصية، واقتناء كثير من أجناس الحيوانات الأهلية والغير الأهلية، فكانت دليلاً محسوسًا على شدة عناية الملك بتربية المواشي، ومزيد اهتمامه بأمر صلاحها ونمائها، وهذا عن علم راسخ عنده بأن مصر وادٍ لا حياة له بدون النبات والحيوان. فلما وصل الركاب الشريف إلى هذه الحقول التي كانت من الآثار الحريَّة بأن يُسْعى لها وتُزَار، دخل الأمراء الثلاثة فلبثوا فيها نحو ساعة بين تنزه وتفرج وتمشٍ وتريض، وقد أُعجبت الأميرة بها كثيرًا. وكان على بعض تلك البساتين ذكر وأنثى من الظباء يافعان أبدعت الطبيعة شكلهما، ووفتهما من الظرف قسطهما، وكانا في معزل يتداعبان ويتلاعبان فقر، لعين العاشقين هذا المنظر الغرامي اللذيذ. وسأل **آشيم** عن زمن جلب ذينك

الظبيين فأجيب بأن الذكر ابن المحل بخلاف الأنثى فإنها لم يؤتَ بها إلا أمس، وبأنهما ائتلفا لأول وهلة فلا يمشيان إلا معًا ولا يرعيان إلا من حشيشة واحدة.

ثم إن الأمير دعا إليه واحدًا من البارعين في الصيد والقنص، وأمره بأن يطارد بعض الوحش بين يدي الأميرة زيادة في تسلية خاطرها العالي، فانبرى الرجل يفعل إلا أن **آشيم** وعذراء الهند اشتغلا عنه بالحديث في أول الأمر، ثم تفرغا له ينظران فتكدر صفوفهما بغتة. إذ رأيا ذاك الفظ الغليظ يطارد الذكر والأنثى المتقدم ذكرهما، فصاح به الأمير كف أيها الرجل، كف أيها الظالم. ولكن صدى الزجر لم يصل إلى الغشوم إلا وهو قد رمى فأصاب الذكر وانذعرت الأنثى لمصرع أليفها. فاستمرت تعدو طائشةً نافرة حتى صدها نهرٌ واسع شديد التيار، فسقطت فيه مندفعة بقوة العدو وكانت أنفاسها قد انقطعت من شدة التعب والنصب. فما بلغ الماء خيشومها حتى اختنقت للحين.

فأثر هذا المشهد المحزن في نفس الأميرة والأمير أشد التأثير، وضاعف عندهم التشاؤم حتى اضطرا إلى الإسراع في العودة فرارًا من هذه الخيالات المزعجة، فسار الموكب آيبًا إلى القصر تهفو له القلوب والأرواح. أينما مرَّ وأينما لاح، إلى أن وصل إلى القصر. وهنالك استقبل الأمراء الثلاثة بلائق الإكبار والإعظام. وكان الوجوه والأعيان قد أخذوا يتوافدون آتين من أطراف المملكة وأقاصي البلاد، لحضور حفلة القران حتى ازدحمت أبواب القصر بالناس، وغصت ساحاته ورحابه.

وما هو إلا أن فرغ الملك وأبناؤه وأصحابه من تناول طعام الغداء حتى بدأ الوزراءُ والرؤساءُ يتواردون على القصر، منصرفين من مصالح الحكومة ودواوينها ليعرضوا حوادث اليوم وأحواله على صاحب الحكومة. فأنهى وزير الخارجية فيما أنهى أن ملك الصين قتل، وأن هذه الدولة آلت إلى شعوب الشمال المتبربرة. فلم يعد يُرجى أن تقوم لها قائمة بعد. وأخبر مأمور الأقاليم أن الشقي **طوس**، وابنه **هاموس**، وجدا مصعوقين ميتين على بعض البيد المتاخمة لبيداء الذئاب، وأن قد وجدت على **طوس** وصيته ثم تلا هذه الوصية على مسامع الملك وهي:

"إذا زالت يتيمة الصين، زالت هذه الدولة للحين، وآلت إلى متوحشة الشماليين، وإذا بلغ من رمسيس الوهن، وابيضت عيناه من الحُزن، ومات في أرذل السن، غمًا بابنه خير ابن، فسد أمر هذه الأمة، فلا تزال تتغلب عليها دول الزمان، وتتقلب الأديان، ويمحو اللسان عندها اللسان، حتى يعمل عالمها ويقتصد فلاحها ويرجع صانعها لشيمته الإتقان.

"وبعد فإن صاحب هذه الوصيّة يتبرع بعد موته بكتبه من كل صنف وعدتها ألف ألف، لجامعة الآداب والفلسفة في طيبة عاصمة المملكة المصرية، وبأمواله الطائلة من مكسوبة

وآيلة، للأمير **آشيم** ولي عهد جلالة الملك، ومن بعده للأمير **بيسمتوس** ثاني أنجال جلالة الملك، ومن بعده لجلالة الملك نفسه أي **رمسيس الثاني سيزوستري** ملك مصر العليا والسفلى الذي اخترته منفذًا لوصيتي هذه مسئولاً عن إجرائها أمام ذمته وأمام الآلهة والناس".

**التوقيع**

**طوس الكاهن الأعظم**

**للديار المصرية سابقًا**

فحين استوعب الملك وأصحابه فقرات هذه الوصية راحوا مبغوتين مبهوتين كأن بهم سحرًا، وكان أكثر ما اندهشوا للترتيب غير الطبيعي الذي جرى عليه **طوس** في الفقرة الأخيرة عند ذكر المال. وفي الواقع فإن **طوس** لم يكن ليخرق البديهيات، لولا أن أحسن شيئًا مما كانت روحه اللطيفة تتنوره في عالم الغيب والخيال.

ولم يلبث الملك أن خرج من دهشته فأخذ الوصيَّة ودفع بها إلى كاتم أسراره لينفذها في الحال. ثم التفت إلى مأمور الأقاليم فأمره أن يعمل اللازم لتحنيط جثة الفقيد، ونقلها بعد ذلك إلى العاصمة لتدفن بلائق الاحتفال في أضرحة الآباء والأجداد.

ثم إنه صرف الحضور إلا خواصه الذين لبث معهم بقيَّة النهار ومعظم الليل مشتغلين بتدبير يوم المهرجان وليلته.

* * *

# ليلة القران

هي عيد الدهر، بل ليلة القدر، لا بل هي العمر، لمحبين كثر ما أساءَ إليهمـا الأيـام، وعاشقين روَّعهما البين وضربتهما النوى بحسام. فلا عجب إذا ولدت الطرب، وأنالت طيبة الأُنس متين السبب، بأفراح فتاها الأبر ومجدها المنتظر، وعلائها المُدَّخر، الأمير **آشيم**.

فإنهُ لم يكن صبح اليوم التالي حتى أظهرت عاصمة النيل، عزها الباهر الأثيل، بما لبست من حلل الزينة، وتردت من ثياب البهاء الثمينة، وأضفت على مناكبها من مطارف الجلال والجمال، مما لا تحلم بمثله مدينة. فلا تسل عن تلك المشيدات الفخام، كيف تجلت وتحلت بالأزاهير والأعلام، ولا عن عقد هاتيك الشوارع الجلائل الفخام، كيف تولاه الذوق السليم فانجلى باهر السلك، باهر الزينة باهر النظام، ولا عن ذلك الشعب العامل الحي، كيف نهض وقام واستقبل أسعد المواسم، في أكبر العواصم، بصنوف الحفاوة والتجلة والإكرام. وبالجملة كانت طيبة معابدها وهياكلها، وحصونها ومعاقلها، وقصورها ومنازلها، وسماؤُها وأرضها، وطولها وعرضها، منظرًا واحد فردًا بديعًا هو جلال الزمان، بل جمال الأيام.

فلما كان العصر خلص ميدان **رمسيس** من الزحام، وأُخلي من الأقدام، فخرج إليه الملك وولي العهد، وخطيبة العلاء والمجد، يحيط بهم سائر الأمراء، ويتبعهم الوزراء والكبراء، حتى بلغوا سرة فضائه الوسيع فوقفوا يحفهم الوقار الأكمل. وهنالك استهلت الأبواق متجاوبة، وارتجلت المزامير متناوبة. وتعالى تهليل الجموع، وتواصل هتافهم أن ليحي الملك، ليحيَ الأمير، لتحيَ الأميرة. ثم سري السكوت وساد السكون، وقام على الفور كاتم أسرار الملك فألقى على الجماهير، هذا الخطاب الرسمي، وهو:

**أيها الشعب الموقر:**

بأمر جلالة الملك أتلو عليكم قرار مجلس الحكومة الأعلى بشأن خطبة الأميرة عذراء الهند لسعادة ولي عهد المملكة المصريَّة. وهذا هو بنصه:

أبلغ إلى مجلس الحكومة الأعلى ما توجهت إليه رغبة جلالة الملك من تزويج سعادة الأمير **آشيم** ولي عهد المملكة المصريَّة بالأميرة عذراء الهند كريمة الملك **دهنش** ملك الهند الشرقيَّة، ودعي المجلس المشار إليه للنظر في أمر هذا الزواج، من حيث كونه موافقًا لتقاليد

المملكة ونظاماتها، أولاً فقرر المجلس بعد الاطلاع على القوانين الأساسيَّة لمملكة الرمسيسية، أن اقتران سعادة ولي العهد بالأميرة المشار إليها جائز لا تحرمه القوانين، ولكنها تشترط معه أمورًا ثلاثة: أولها: قبول الملك والد العروس به، ثانيًا: أن تُذكر الأميرة في عقد الزواج باسم مصري، ثالثًا: أن تتعهد الأميرة في عقد الزواج أنها إذا آل الملك إلى بعلها الموقر تطرح ديانة الآباء والأجداد، وتعانق ديانة البلاد.

هذا أيها الرعية المخلصة ما قرره مجلس الحكومة الأعلى بنصه، وإنني بأمر جلالة الملك كذلك، أعلن خاصكم والعام أن الشروط الثلاثة الواردة في قرار المجلس، قد توفرت وأن جلالة الملك يسره كثيرًا أن يبشركم أيها الرعيَّة المخلصة بحصول القران المشار إليه، في هذه الليلة السعيدة، وأن يدعوكم فردًا فردًا إلى مشاطرته الفرح بهذا القران الميمون، المحفوف ببركات **آمون.**

وما انتهى الخطيب حتى استرسلت الأمة في التصفيق، متوجة عمل الملك ذاك بالتصديق، والتفت جلالته بعد ذلك فانثنى في نفر من خواصه عائدين إلى القصر. أما العروسان فتحرك بهما الموكب السامي ليجولا في المدينة جولتهما الأولى، فاجتاز بهما شارع سيتي فشارع آتيس (اسم لأشهر وقائع الملك) فميدان فتاح فشارع الصناعة، حتى بلغ المعبد الأكبر. وهناك استقبل العروسان بما يليق لمقامهما السامي من مظاهر الإجلال والإكبار ودخلا فصليًا الصلاة الرسمية، ولم تمتنع عذراء الهند في هذه المرة مبالغة منها في مجاملة الأمة، والتماسًا لرضى المتمسكين في استرضاء رجال الدين، ثم رُسم لعودة الموكب طريق آخر، فمضى يخترق شارع المعبد فشارع الدواوين، فميدان آمون، فباب الأربعين نصرة **(انتصارات رمسيس)**، فشارع الخيانة "**لأن فيه همَّ أراميس أخو الملك أن يفتك بأخيه**"، فميدان **رمسيس،** فشارع **رمسيس** حتى دخل القصر بسلام.

وكان الوقت الغروب وهو الموعد المضروب لحضور ألوف المدعوين لتناول طعام الفرح على الموائد الرمسيسية، فأخذت المركبات تتطارد، والخيل تتوارد، والجماهير تتوافد، بين تحايا الطبول والأبواق، وتسليمات المزامير الذاهبة في الآفاق، وكان عند كل سلم من سلالم القصر، وعلى كل باب من أبوابه الكثر، حجاب من الوجهاء الغر، لاستقبال الضيفان وأزلافهم إلى رب المهرجان. حتى إذا انتظمت الحفلة ولم يبقَ من لم يحضر من أصحاب الليلة، نودي في الأقوام أن اتبعوا الملك إلى قاعات الطعام، فابتدر الملأ دخول هاته القاعات. وكانت سبعًا عريضات طويلات، في كل واحدة منها سبعة خوانات، على كل خوان سبعة من ذوي المقامات. فجلس الكل يتناولون أثمن الطعام وأفخره، ويذوقون أعز الشراب وأندره، والملك يذيقهم فوق مذاق الكاس، من لذيذ البشر والإيناس، حتى إذا نفد حول البطون، قبل أن

ينفد ما في الصحون، خف الملك إلى قاعة الاستقبال الكبرى، فابتدرت الزمر دخولها خلفه. وهنالك كان للناس دهشًا إذ رأوا عرش الجلوس في صدر القاعة محمولاً على رفرف ذي درج، وهو كأنه الفرقد، في هالة من الأنوار تتوقد، وإذ كان من شأن هذا العرش أن لا يظهر للكون إلا يوم يموت فرعون، ويقوم فرعون، فقد حق للناس أن يتساءلوا في حفلة عروس هم أم تلقاء يوم جلوس.

ثم لم يكن ثلث الليل حتى نهض الملك دون العرش ودعا إليه العروسين فنهضا إلى جانبيه، وكان الركن الذي قاموا فيه مطلاً على النيل وبنافذتين ينظر منهما إليه. وبعد ذلك أشار الملك لرئيس الديانة وأعوانه أن يتقدموا فمثلوا لديه فخاطب الكاهن الأعظم للديار قائلاً: تفضل يا إمامنا العزيز وأعقد لولدي على الأميرة عذراء الهند. ثم عقب وهو يبتسم بأن قال: ومتى فرغت من عملك هذا أتيت أنا أيضًا. العمل الذي فيه **لآشيم** إتمام الأمل فأحدثت هذه العبارة هرجًا ومرجًا في المحفل. ولم يبق لنفس ريبة في كون العرش إنما نصب للحبيب والحبيبة.

وبينما القوم يتبادلون هذه التأملات والكاهن الأعظم ينتظر سكوتهم ليشرع في عمله، مرق من بعض النوافذ طائر صغير أسود فارتفعت الأعين ترمقه وهاج الملأُ وماج المكان. أما الطائر فبعد أن دار دورته قصد نحو العروسين فصفق يحوم عليهما وينتف ريشه لديهما. وفي هذه اللحظة لم يدرِ الناس إلا بالأمير قد سقط طعينًا يتخبط بدمائه ثم بظهور **ثرثر** من ورائه وقد صرخ قائلاً: ليمت كلانا بدائه، ثم طعن نفسه بالخنجر فسقط كذلك يتعثر بردائه، فتفزع الجمع لهذا المشهد المذيب وجُنَّت عذراءُ الهند بإزائه فقامت لدى النافذة تنتظر كلمة الأطباء، حتى إذا أيقنت أن لا أمل ولا رجاء وأن **آشيم** خرج من سلك الأحياء، لم تزد على أن صرخت قائلة: يا للسماء لهذه الخالدة الشقاء، الأبديَّة الإقصاء، ثم ألقت بنفسها من أعلى القصر إلى العريض الطويل من عالم الماء.

**تمَّت**

# الملاحـــق

# رواية "عذراء الهند"
# أو تمدن الفراعنة

أحمد شوقي

## ﴿آثار أدبية﴾

**رواية عذراء الهند** – انتهت إلينا نسخةٌ من هذه الرواية العذراء لحضرة منشئها الأديب المتفنن **أحمد بك شوقي** الشاعر المشهور، وهي روايةٌ غرامية غريبة السرد تنتهي وقائعها إلى زمن **رمسيس الثاني** المعروف باسم **سيزستريس**، أحد فراعنة مصر الأقدمين من عهدٍ لا يقل عن ثلاثة وثلاثين قرنًا من الدهر [1].

والذي تبين لنا بعد تصفح جانب منها، أن مؤلفها لم يقصد من وضعها إلا تمثيل ما كان عليه أهل ذلك العصر من الخرافات والترهات. ولذلك أكثر فيها من ذكر الجن والعفاريت والسحرة والكهان والمنجمين والرقي والطلاسم، ووصف عجائب المخلوقات الوهمية والصور الخيالية من نحو "ثعابين خضر الألوان تنتصب على أطراف أذنابها في صورة أمهات الموز، وأخرى صفراء تعانق الأشجار، وتتدفق بالأنوار، وأفيال عراضٍ طوال، في أجرام الجبال، تتخذ الطير في آذانها وظهورها أوكارًا، وناسٍ في صورة القردة، ولهم خفة المَرَدَة. وشيخٍ كلما وقعت عينهُ على جماعةٍ منهم راحت نائمة، وهي قائمة"، إلى ما شاكل ذلك مما لا نطيل بتعداده ولا نتعرض لما وراءهُ، من قصص الرواية وتلخيص وقائعها. لأنا لم نجد ثمة شيئًا مما يتوخاهُ واضعو الروايات في هذه الأيام من المغازي الحكمية أو الأغراض الأدبية أو الحقائق التاريخية.

ولذا فإنا نتخطى موضوع الرواية إلى ما ألبسته من العبارة العربية، نومئ إلى بعض ما فيها من مطارح النظر، قضاء لحق النقد، ووفاء بما أرصدنا له أنفسنا من الخدمة العلمية. وهو، ولا جَرَم، شأنٌ كنا نودّ التفادي منه، حرصًا على ولاء المؤلف، لعلمنا بما للنقد من الوقع في نفوس الكثيرين من أدبائنا، بالقياس إلى ما ألفوه من نغم كثير من الجرائد، وتهافتها على الإطراء تزلفًا وتمويهًا، أو جهلاً وتقصيرًا. ومعاذ الله أن نكون ممن يقبل على الحق رشوةً، أو يرضى من أمانة العلم ثمنًا.

---

[1] ذكر المؤلف في صدر الرواية تحت عنوان تنبيه أن تاريخ حوادثها منذ ٣٣٠٠ سنة؛ أي في عهد هذا الملك، وهو الذي عليه أكثر المؤرخين، وذكر في صفحة ٧ أنها من نحو خمسين قرنًا من الزمان، وهو ما لم يقل به أحد من المحققين.

فأول ما وقعنا عليه منها عبارة لا "**الإهداء**" وقد رفع هذه الرواية إلى مقام السدة الخديوية أعزها الله تعالى، وكأن الذي زين له ذلك، مع ما أسلفنا من بيان فحواها، ما تضمنته من اتصال بعض وقائعها بأحد ملوك مصر الأولين. وهذا أيضًا مما نمسك عن الإفاضة فيه، وإن كان لا يخلو من موضع نظر لذوي الذوق السليم.

قال في مطلع كلامه: "**الكاتب وما كتب غراس نعمائك وجني ظلك ومآئك**" وهو كلامٌ غريبٌ في هذا المقام؛ لأن مثل هذا إنما يصح من تلميذٍ لأستاذه، لا من مربوبٍ لوليّ نعمته، وإلا فكيف يكون ما كتبهُ من غراس نعمة الأمير، وأي علاقةٍ بين النعماء والإنشاء؟. وقوله: "**وجني ظلك ومآئك**" لا محل لذكر الظل هنا، لأنه لا يكون سببًا للجني، بل أحر بالغراس الذي يعيش في الظل أن لا يُجني ثمرًا.

ثم قال: "**فإذا وُفق ليرفع إليك عملاً فقد أسند أفعالك في الفضل إلى أسمائك**" وهو كلامٌ غامض لا يظهر الغرض منه، وكأنه من قبيل ما تقدمه. يريد أن أعمال هذا الكتاب مُستمَّدة منك، فإذا أُهديَ إليك عملاً منها فكأنه أخذه منك وأهداه إليك. وانظر أين هذا المعنى من ذلك التعبير. ولا يخفى على من عرف آداب الخطاب أن مثل هذا مما ينبغي تجنبه في مخاطبة الملوك والكبراء، تنزيهًا لهم عن التكليف في حل معضله، وإنما يجوز في خطاب أهل الترسل والغوص على الغريب، ممن لا يبالي بقضاء نصف يوم في حل مسألةٍ من المسائل المشكلة.

وقال في الصفحة التالية في الكلام عن وليّ عهد **رمسيس**: "**كان أحب إخوته الكثيرين إلى الأمم**" وهو من التراكيب التي منعها أهل العربية، كما نص على ذلك **الحريري** في **دُرة الغواص** وإن تعقبه **الخفاجي** بما لا يسلم من الرد؛ لأن أفعل التفضيل لا يضاف إلا إلى ما هو داخلٌ فيه. فيقال: زيدٌ أفضل القوم وأفضل أهل بلده لأنه واحدٌ منهم. ولا يقال: زيدٌ أفضل إخوته، كما لا يقال: أفضل جيرانه مثلاً، لأنه غير داخل في جملتهم.

ثم قال: "**وأجذبهم بأزمة الرأي العام وأمتنهم أعلاقًا في القلوب**" يريد بالأعلاق: العلائق، وهي لا تأتي بهذا المعنى، إنما الأعلاق جمع علق بالكسر. وهو الشيء النفيس: وقوله: "**وأجذبهم بأزمة الرأي العام**" يريد وأجمعهم لأهواء النفوس ونحو ذلك. فجاء بهذه العبارة الغريبة، وإنما هي من المواضعات الإفرنجية درجت عليها لغة الجرائد العربية في هذه الأيام. وليس كل ما تأتي به الجرائد يجوز اتباعه.

على أن هذه ليست العبارة الوحيدة التي أخذها عن الجرائد، أو سخر لها سجيته من ألفاظ الأعاجم. فقد ورد له بعد ذلك في الكلام عن **الأميرة آثرت**: "**وإن الملك مَدينٌ لنصحها الثمين**" وهي من الألفاظ المعربة عن كلام الإفرنج. يقولون: أنا مديونٌ لفلان في هذا الأمر،

أي له عليَّ الفضل فيه. وفي صفحة ٢٩ "**قد رؤيا (أي الرجلان) على نُقَط مــن المملكـــة**" أي رؤيا في مواضع منها. وفي صفحة ٤٣: "**باحوا بسر المأمورية**" أي بسر ما أمروا به. وأمثال هذه العبارات في الرواية لا تُحصَى فنكتفي منها بهذا القدر.

بل ربما تنازل إلى استعمال أشياء من اللغة العامية كقوله في صـــفحة ١٤: "**فـــأطرق المنجم برهةً**" يعني هنيهةً من الزمان، وإنما البرهة الزمن الطويل، واستعمالها للزمن القصير من أوهام العامة. وفي صفحة ٢٤ "**تساعفه الصدفة**" يريد بالصدفة الاتفاق أو المقدور، وهـــي من الأوضاع العامية، كأنهم أخذوها من المصادفة ولم ترد في شيء مـــن كـــلام العـــرب ولا المولدين. وفي صفحة ٢٦: "**عائلة بشرية**" يعني بالعائلة الأسرة أو العشيرة وكأنها تصـــحيح قول العامة "**عيلة**". وكلتهما لا تأتي بهذا المعنى، إنما يقال: عيال الرجـــل وعيِّلـــه بالتشـــديد، بمعنى الذين يتكفل بهم ويعولهم. وفي صفحة ٢٩: "**ويرى جيئة الهوادس وذهابها في فؤاده**" يريد بالهوادس خطرت الهموم، وما يتخالج منها في الصدر، وإنما هي من تحريفات العامـــة، وصوابها الهواجس بالجيم إلى غير ذلك.

وقال في صفحة ٧ في الكلام على التاريخ المصري: "**وإن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر. فهي عينٌ تارة وأثر. تحيا بحجر وتموت بحجر**". يريد فهي عينٌ تارةً وتارةً أثر، فحذف إحدى التارتين، ولا وجه للحذف في هذا الموضع، ولا يظهر له غرضٌ إلا أن يكون قصـــدهُ التعمية، وإفراغ الكلام في قالب اللغز. ثم انظر ما أراد بقوله: "**تحيا بحجر وتمـــوت بحجـــر**" وماذا يفهم بالحجر هنا؟ وهل هذا إلا ضربٌ من الرُقي وشكلٌ من أشكال الحروف؟

على أن في الرواية كثيرًا من أمثال هذه المعميات نورد بعضها لغرابتها، كقوله فـــي صفحة ٣٥: "**وما عساي ناولتك مما فات التفاتي قدره**" وانظر إلى قوله: ما عســـاي ناولتـــك وأي تركيب هذا؟ وفي صفحة ٦٢: "**إن الفتاة محرَّمٌ عليها أن تركب البحر في عمرها مرتين لا متتاليتين ولا متعاقبتين**" وفي الصفحة نفسها: "**كانت أشخاصهم ترق وتنطـــوي وتضـــمحل وتتلاشى متوارية ثم تتوارى متلاشية**". وفي صفحة ٦٩: "**جاورك قبل جوار المـــاء والتيـــار فاستعار فاستنار واستدار وصار إلى ما إليه صار**". وفي صفحة ٧١: "**كان الفصل نيلاً والليل خفيفًا ثقيلاً جفيفًا بليلاً صديًا ثقيلاً، لا قصيرًا ولا طويلاً، وكان الليل في طفولته الأولـــى، لا ينفع الضال ولا يغني عن الساري فتيلاً**". وفي صفحة ٩٣: "**وسنجدهم إما في الســـكر وإمـــا نائمين من السكر**". وفي صفحة ٩٤: "**وقد أخذ اثنين منهم النوم والثالث مستمر مـــا ينتهـــي فرغت الزجاجات ولم يفرغ من الشرب**"!!!

وهناك ألفاظ وتراكيب ليست بأقل غرابة مما ذكر كقوله في صفحة ٣٧: "**فتركه كذلك شيئًا ليس بالحي**". وفي صفحة ٣٨: "**أجهد أذنيه**" يريد أرهف أذنيه وحدد سمعه. وفي صفحة

٤٢: "**فأخذ النوم يطمئن بمقاعده من الأجفان**". وفيها "**ارتجل نظرة في الأفق**" ومثله قوله في صفحة ٢٠: "**قدم الصاحبان على منازل ذلك الثعبان فإذا نوره التام المحيط خيرٌ من ألف شريط، وهو على الأشجار، يرتجل الأنوار**". وفي صفحة ٤٨: "**من خوفٍ مانعٍ للفكاك مفقدٍ للحراك**" ولينظر ما معنى قوله: مانع للفكاك. ثم قال: "**وبالجملة وقعوا من الفزع في أضيق من الشراك**" يريد بالشراك، الشَّرَاك وهو حبالة الصائد، وإنما الشراك: السير الذي تشد به النعل. وفي صفحة ٨٣: "**أصبح كهلاً غير قادر المشيب**". وفي صفحة ٩٢: "**ثم تواكل الثلاثة بالباب فلم يزالوا به حتى كسروه**" وإنما يقال: تواكل القوم إذا اتكل بعضهم على بعض فهو أقرب أن يكون على عكس مراده. وفي صفحة ١١٨: "**سلسلتان من تماثيل أبي الهول.. متقابلة متناقضة الأحجام تدريجيًا فأولها كبير كبير، وآخرها صغير صغير**".

وعلى الجملة، فإن هذه الرواية كلها غرائب، وأغرب ما في تلك الغرائب صدورها عن مثل المؤلف، على ما اشتهر به من التقدم في الأدب، وطول مزاولته لصناعة القلم. وما نحسبهُ إلا قصد مراعاة النظير بين موضوع الرواية وعبارتها، حتى تكون كلها غريبًا في غريب، ولا عجب في الأديب أن يقصد مثل ذلك جريًا على مذهب القائل:

**وقالوا يا قبيح الوجه تهوى مليحًا دونهُ السُمر الدقاقُ**
**فقلت وهل أنا إلا أديبٌ فكيف يفوتني هذا الطباقُ**

أما شعرهُ في هذه الرواية، فغالبهُ حسن رشيق النظم مليح السبك نورد منهُ قولهُ في صفة الحب:

**نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاءُ**
**ففراقٌ يكون منه دواءٌ أو فراقٌ يكون منهُ الداءُ**

وانظر أين هذا النظم المنسجم والألفاظ المختارة من مثل ما ذُكر من كلامه في النثر، وما ركب فيه من الغرابة، والتكلف، والتعقيد، والبُعد عن مقام الفصاحة. وهذا ولا جَرَم، مما يدلك على أن كلاً من النظم والنثر لغةٌ قائمةٌ بنفسها، لا يحسنها غير أهلها. وإن ما اشتهر من قولهم: كل شاعرٍ ناثر، قولٌ لا يطرد صدقه، ولا يُبنى عليهِ قياس.

بل إذا اعتبرت كل فريقٍ من أرباب هاتين الصناعتين، ظهر لك من التفاوت في طبقات النثر وعلاقته بالطبع، وتوقفهِ على المزاولة والاشتغال، ما لا ينحط عما تراهُ من مثل ذلك في النظم. بل الأمر في النصر أضيق مسلكًا وأوعر سبيلاً، لأن في النظم ما يستر عيوبهُ ويستدعي المعذرة لقائلِه من التزام الوزن والقافية، على ما فيهما من مشاغلة السامع أحيانًا عن نقد الكلام، والتنبه لما فيه من العوار. وليس في النثر شيءٌ من ذلك، ولكن كل عيب فيه يكون باديًا؟، لا يستره ساتر ولا تتهيأ عنهُ معذرةٌ لعاذر. ويشهد الله أنا كنا نود للمؤلف لو لم يجر

بهذا التأليف قلمًا، فإن الرجل معروفٌ بالشعر من الطبقة العالية، مشهودٌ له فيه بأنهُ من الطراز الأول. وحقيقٌ بمن بلغ في أمر من الأمور منزلةً يكون فيها من رؤساء أربابه، أن لا يتصدى للدخول في فئةٍ ينزل فيها عن رتبته، ويُعَد بينهم آخرًا. فإن إهمال بعض الأمر لا عيب فيه؛ إذ لا يتعين على المرء الاشتغال بالأمور كلها، ولكن العيب كل العيب، على من انتحل أمرًا وقصَّر فيه. ومن رشيق نظمه في هذه الرواية، وإنما نعني الصناعة اللفظية قوله:

**أنا في تطلابه وهو لديّ ... مطلبٌ مرٌّ ولم يلوِ عليّ**

**قد تركت الهند أطويها لهُ ... وهو يطويها وما يدري إليّ**

**والتقينا ما خطا لي خطوة ... لا ولم أنقل إليه قَدَمَيّ**

**يا لملكٍ راح عني نائيًا ... كان لو فتشتُ عنهُ في يديّ**

وقولهُ من أبياتٍ عن لسان عذراء الهند تخاطب محبوبها:

**أذاكرٌ أنت أم نسيت لنا ... إذ نحن طفلان والهوى طفلُ**

**إذ تعجّب الهند والديار بنا ... ويعجب الناظرون والأهلُ**

لنا في صدر البيت الأول متعلقة بذاكر – ومنها:

**ما نحن قلنا فالحبّ قائلهُ ... وما فعلنا فللهوى الفعلُ**

**وإن نقلنا لبقعةٍ قدمًا ... فللهوى لا البقعة النقلُ**

وهو كلامٌ في غاية الرقة والانسجام إلا أن البيت الأخير مختلف الوزن من بحرين، لأن الشطر الأول من المنسرح ووزنُه: "مستفعلن فاعلاتُ مفتعلن" وهو بحر سائر القصيدة. والشطر الثاني من ثالث السريع ووزنهُ: "مستفعلن مستفعلن فعْلن". ووقوع هذا الخلل البيّن من مثل هذا الشاعر، مما يصعب تصوُّره. ولذلك لم نشك لأول وهلةٍ أنه من غلط الطبع، ولا سيما مع إمكان تصحيح الشطر الثاني بأدنى تغيير. وهو أن يقال: في مكان البقعة "**للبقعة**" فيستقيم الوزن. ولكنا لم نلبث أن رأيناهُ يقول في البيت الذي يليه:

**فلا تكن يا أميرُ ناسيَنا ... فنحن ما ننسى وما نسلو**

وفيه نفس الخلل الذي في البيت المتقدم ولا يتأتى في هذا ما تأتي في ذاك من احتمال غلط الطبع، لأنه لا يستقيم وزن العجز إلا بعد تغيير كثير، كأن يقال: "**نحنُ لم ننسكم ولم نسلُ**". ثم قال وفيه ما في البيتين السابقين:

**تلك سماء الهند شاهدة ... وأرضها والجبال والسَّهلُ**

غير أنه خالف هنا بين الشطرين فجعل الأول من السريع والثاني من المنسرح. وهذا مع ما عُرِف به الناظم من طول الباع في صناعة الشعر، والانطباع عليه من أعجب العجب.

ولعلّ عذرهُ فيه أنهُ كان قليل الركوب لهذا البحر لقلة شيوعه في الاستعمال، مع ما في ضبط أوزانه من الصعوبة لتباين صُوَر أجزائه، واختلاف قوالبها حتى كأن الشطر برمتــه قطعــةً واحدة، بخلاف غيره من الأبحر التي ترى أجزاءها متناسقةً، على رصف متماثل، وأوزان مكررة، كأجزاء الكامل والبسيط، فإنها تأتي متّزنةً من غير تكلف ولا تعمّل، لقصر الصور المتكررة فيها وقرب بعضها من بعض والله أعلم [2].

* * *

[2] المصدر: البيان، السنة الأولى، الجزء الرابع عشر، (١٦ ديسمبر سنة ١٨٩٧ م).

# شوقي
# أو صداقة أربعين سنة

**بقلم أمير البيان: الأمير شكيب أرسلان**

سبق نشر جانب من هذا الكتاب في جريدة الجهاد، ولكن
أعيد النظر عليه وتمثل في هذه الطبعة تامًا منقحًا



طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م

# رد المؤلف على اليازجي
# في الدفاع عن شوقي

ليس تحت يدي الآن العدد الذي فيه انتقاد اليازجي لرواية "**عذراء الهند**" ولو كان تحت يدي لأثبت هذا الانتقاد برمته وقابلته بردي أنا عن شوقي. على أن القارئ قد يعلم من الرد أساس الاعتراض فجوابي فيه الأخذ والرد معه، ولهذا ننشره نقلاً عن جريدة الأهرام (عددها ٦٠٣٢) المؤرخ في يوم الثلاثاء ٢٥ يناير سنة ١٨٩٨ وفق ٣ رمضان سنة ١٣١٥ أي إن هذا الرد مضى عليه أكثر من سبع وثلاثين سنة:

## لعل للعذراء عذرًا

أجل العلماء عن أن يقال: ليس لهم صداقة، وإنما يقال: إن ليس لهم صداقة على العلم، ولا مشايعة على الحكمة، ولا تسامح في الحقائق، وأنهم لا يرعون في الحق خليلاً، ولا يرضون من أمانة العلم بدلاً قليلاً، ولا سيما في هذا العصر، الذي إذا انتسب إلى خاصة تغلب عليه، كانت الانتقاد، أو اتصف بمزية تفضل سائر المزايا، فهي التحقيق.

ولذلك لا ينبغي أن يحمل انتقاد **(البيان)** رواية **(عذراء الهند)** للشاعر المفلق أحمد بك شوقي إلا محمل البحث الأدبي الصرف، وأن لا يحسب إلا من قبيل توفية النقد حقه، والقيام بواجب الخدمة العلمية، ونعم الغرض هذا وحبذا القصد. وبناء على قاعدة البيان وتشبهًا به، والتشبه بمثله فلاح، أتطفل بإبداء بعض خواطر خطرت لي بين هذه المآخذ التي أخذها البيان على عذراء الهند، بقدر ما طال الفكر ووسع اللحظ، مائلاً في بعضها إلى تصويب رأي

البيان، وفي البعض الآخر إلى تأييد نص الرواية، وتاركًا الحكم في ترجيح الآراء إلى أهل الفضل وأرباب الدراية. فإن كنت أصبت المرمى في بعض ما رأيت، فقد تصاب الرمايا ولو لم تسدد السواعد، وإن كنت واقعًا في الوهم وظهر الحق في جانب سواي، فليس بثقيل الإقرار لمثل شوقي بك، وليس بمغلوب من غلبه الشيخ!

أما اعتراض البيان على الإهداء، في مقام تقديم الرواية إلى الجناب الخديوي فهو من التعمية بحيث لم أفهم وجهه جليًا، وإنما استدللت على أن المقصود عدم مناسبة إتحاف الجناب العالي برواية موضوعة فيما هي موضوعة فيه. وقد يعتذر ناسج الرواية بأن ليس ثمة ما يمنع تقديم كتاب يتصل بتاريخ مصر القديم إلى عزيز مصر الآن، فلكل من المعترض والمعترض عليه وجهة.

وأما أخذه على **(الكاتب وما كتب غراس نعمائك وجني ظلك ومائك)** بأنه لا يصح إلا من تلميذ لأستاذه، ولا يصح من مربوب لولي نعمته، وأنه لا يمكن أن يكون ما كتبه من غراس الأمير وأي علاقة بين النعماء والإنشاء؟

فقد استغربته جدًا من البيان، على سعة اطلاع المعترض وطول باعه ورسوخه في آداب العرب، وكونه قد طالع ولا شك من هذا المعنى شيئًا كثيرًا.

وإن مثله لا يخفى عليه، أن الكُتَّاب والشعراء طالما تكلموا في معنى أن إنعام الممدوح هو مصدر فصاحة المادح، وأن در القول مستنبط من بحر الجود.

وقالوا أيضًا: إنَّ اللهي تفتح اللها، وأظن أنا نستغني في مقام كهذا عن التعزيز بالشواهد المستفيضة في النظم والنثر، خصوصًا لمن كان يحفظ ديوان المتنبي وقد شرحه وهو غير خال من هذه المعاني. فكيف لا يجوز لعمري لشاعر الخديوي أن يقول لمولاه وولي نعمته: إنني أنا وما أكتب غراس نعمائك وأي غرابة فيه؟ بل أي غبار عليه؟

وأما قوله: **(وجني ظلك ومائك)** فلا أنكر أنها بالشعر أليق منها بالنثر، لكنها قد تتمشى مع العبارة الأولى ولا لزوم لخرطها فيما لا يجوز، والذهاب لأجل توجيه الاعتراض إلى بعيد، من قبيل أن الظل لا يكون سببًا للجني، وأن الغراس في الظل لا يثمر، وأنت تعلم أنه لا غراس بلا ظل وأن الظل غير مانع من الجني.

وليس من الضروري في سجعة كهذه استيفاء جميع العناصر التي تخرج الثمر، وذكر الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين، فضلاً عن كون الظل هنا مأخوذًا بالمعنى المجازي. والعبارة كلها مجازية والمجاز هو أصل وضع البيان.

وأين نذهب مع ظل الله، وظل الأمن وظل العدل وظلال مجرَّدة كثيرة ممتدة في الكلام العربي ليس لما تضاف إليه أدنى حجم.

وأما غموض قوله: **(فإذا وفق ليرفع إليك عملاً فقد أسند أفعالك في الفضل إلى أسمائك)** فلا أجادل فيه. فإن غموضه واضح، لكني أقول: إن شوقي بك غالب عليه الشعر فيحسب نفسه وهو في النثر أنه في النظم، بل هو يحكي المتنبي أحيانًا في عدم وضوح معانيه لأول وهلة، فلا يفهم القارئ بعض جمله إلا بعد التأمّل بل التعمّل.

وأما اعتراض **(البيان)** على **(أحب أخوته الكثيرين إلى الأمم)** بأنه من التراكيب التي منعها أهل العربية حسبما نص على ذلك الحريري في درَّة الغوَّاص، وأنَّ رد الخفاجي عليه لا يسلم من الرد. فأقول فيه: إن الرد على الخفاجي لا يسلم من الرد أيضًا. وهو قد أورد في مقام الدفاع عن جواز هذا التركيب ما يستحق النظر، وأنه وإن لم يكن هنا مقام استيفاء تعليلات كهذه، فلا بأس بإيراد بعضها كقولهم: إن أفعل التفضيل قد يخلع عنه ما امتاز عن الصفات ويتجرَّد للمعنى الوصفي.

وكقولهم: إنه قد يكون للدلالة على زيادة مطلقة لا مقيدة نحو قولهم: يوسف أحسن إخوته. وكما قالوا: إن أفضل إخوته بمعنى أفضل الإخوة على حد قوله تعالى: ﴿ **يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ**﴾ أي حق التلاوة. وأنشدوا قول عبد الرحمن العتبي:

**يا خير إخوته وأعطفهم عليهم راضيًا وغضبانًا**

وناهيك أن نحويًا كابن خالويه أجاز هذه العبارة، ولا نظن أديبًا مثل شوقي بك قد رأينا ما رأينا له من الآثار الدالة، على سعة اطلاعه في العربية، يقدم على هذا الاستعمال إلا وهو يرى رأي الذين أجازوه، ويستحيل أن يكون مثله لم يمر بهذه الاعتراضات وردها.

وأخذ البيان على قوله: **(وأمتنهم أعلاقًا في القلوب)** وذلك بأن الأعلاق جمع عِلْق بالكسر. وهو الشيء النفيس، وأن حقها أن تكون علائق. وقد استغربنا، وأيم الله، صدور ذلك عن لغوي ثقة مثل الشيخ. والأعلاق تأتي جمعًا لغير العلق بالكسر فتأتي جمعًا للعلق بالتحريك.

والعلق يأتي بمعنى البكرة وأداتها.

وبمعنى الحبل المعلق بالبكرة.

وبمعنى الرشاء مطلقًا وأنشد له في لسان العرب: عيونها خزر لصوت الأعلاق.

وأظن أن في هذه الألفاظ كلها من معنى العلاقة والتعليق ما يسوغ لشوقي أن يقرنها بالمتانة في معنى ارتباط القلوب.

وأما كون **(أجذبهم بأزمة الرأي العام)** من المواضعات الإفرنجية درجت عليها الجرائد في هذه الأيام وليس كل ما تأتي به يجوز اتباعه، فلنشرح هذه الجملة:

أما **(جذب الزمام)** بنفسه فلا يجادلنا البيان بأنه عربي مبين.

فلم يبق إلا عبارة **(الرأي العام)** وهي مترجمة عن لغات الإفرنج لشيوع هذه العبارة عندهم وعدم وجود ما يسد مسدها عندنا بالتمام. ولننظر ماذا يوجد فيها من المخل بالفصاحة:

أما الرأي فهو الرأي لا ريب فيه.

وأما اتصافه بالعام فهو كاتصال البلاء مثلاً بالعام فيقال: بلاء عام وبلاء شامل.

ويقال: أمر عمم ويفسره أهل اللغة بأنه تام عام.

ويقول شاعر الجاهلية:

**يا ليت شعري عنك والأمر عمم ... ما فعل اليوم أويس بالغنم**

فإن كان يقال: أمر عمم فلماذا لا يقال: رأي عام وأي إثم فيها؟

وقولك بمعناها **(أهواء النفوس)** لا يؤدي حقيقة المقصود من قولهم **(الرأي العام).**

ومن العجب أن يعترض على مثلها **البيان.** وهو الذي يكتب في **(اللغة والعصر)** ويدعو إلى وجوب الوضع قضاء لحاجة العصر، ووفاء بالمعاني الحديثة التي لم تكن عند العرب. على مخالفة رأيه هذا لما عليه جمهور أهل اللغة، من أن اللغة سماعية لا قياسية. فكيف يعترض بعدها على **(الرأي العام)**؟ وليس فيها خروج عن المألوف، ولا وضع جديد ولا صوغ ولا نحت.

وأنت لو طالعت الكتب العربية، خصوصًا كتب العلم والحكمة، لم تجدها خالية من استعمالات كثيرة تساقطت – والله أعلم – إلى العرب من لغة اليونان والفرس أيام ترجمة كتبهم لعهد العباسيين؛ فالعربي القديم لم يسلم من هذه المواضعات، فما ظنك بالعربي الحديث، وقد أغارت عليه المعاني الأعجمية من كل جهة حتى اختلط الحابل بالنابل.

حتى إن **(البيان)** نفسه على نقاء لغته لا يسلم منها حين يقول في العدد الأخير الذي صدر فيه الانتقاد **(زرئ العالم الأدبي)** فهي عبارة عصرية محضة مترجمة بالحرف عن الإفرنجية. وليست من أساليب امرئ القيس ولا الأعشى، ولا من تراكيب الإمام علي ولا المخضرمين، بل ليست من المُولّد، وإنما هي من أوضاع الجرائد السيارة.

ومثلها استعمال **(البيان) مثلاً (تنازع البقاء)** عصرية محضة. وتعابير كثيرة ليس هنا محل سردها.

أما قول شوقي بك: **(مدين لنصحها الثمين)** فليس بمعذور فيه عذره في **(الرأي العام)** التي جرت مجرى الأعلام.

غير أني عجبت جدًا من أخي شوقي كيف لا منى على مثلها أيام اجتماعنا بباريز [3] ثم عاد هو إلى استعمالها حال كوني أنا تركتها بالمرة إكرامًا للعربية ولخاطره. فماذا طرأ عليه حتى صار يأتي الآن ما كان ينهي عنه؟

وأما **(باحوا بسر المأمورية)** فلا يمكن لي أن أعد المأمورية مما لا يصح استعماله والنسبة على الأسماء من صفة وموصوف إذا لحقتها التاء تفيد المصدرية فيقال: عجبت من حجرية هذا أي من صلابته.

وقالوا كثيرًا: الفاعلية والمفعولية والشاعرية وهلم جرا.

وأما استعمال شوقي بك البرهة بمعنى هنيهة فهو استرسال إلى اصطلاح العامة أو عدم تحقيق.

ومثله الصدفة بمعنى المصادفة، فقد غلب استعمال الناس لها وهم لا يعلمون أنها عامية أو ما [4] استعمال (العائلة) بمعنى الأسرة فهو وارد وتخطئة **البيان** له مع قوله: كأنها تصحيح قول العامة: (عيلة) بالتشديد. فهذا فيه نظر وهو من الحريري في درَّة الغوّاص، وقد تعقَّبوه بما أظهر خطأه، وروي من الحديث **(أتخافين العيلة وأنا وليهم)** وفسَّروه بالعيال. والأرجح أن يكون أطلق على أسرة الرجل الْعَيْلَة التي هي الفقر لكونهم سبب الفقر كما قيل: قلة العيال أحد اليسارين.

هذا ويجوز أن تكون عائلة بمعنى معولة، وليست هذه بأول مرة ورد فيها فاعل بمعنى مفعول. فقد قالوا: ساحل بمعنى مسحول. سحله ماء البحر وهلم جرا.

وأما **(الهوادس)** فالحق فيها مع **البيان** إلا أن تكون غلطة طبع.

نصل إلى قول شوقي بك في التاريخ المصري: **(إن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر فهي عين تارة وأثر تموت بحجر وتحيي بحجر).**

أقول: هذه عبارة شبيهة بالشعر لكنها من أبلغ ما قرأت في الكلام العربي وأتأسف أن يكون البيان تعمّد مثلها في الانتقاد.

ومعناها ظاهر، إذ لا يخفى أن التاريخ المصري القديم مبني على الآثار الحجرية والكتابات الهيروغليفية، وأن معظم مُعَوّل المؤرخين لأعصر الفراعنة هو على هذه الحجارة لفقدهم القرطاس فيه. فبينما يتقرر عند المؤرخين شيء يظنونه الحقيقة الأخيرة بما يطلعون

---

[3] كان ورد في مقالة لي جملة "أنا مديون بهذا العمل له" أو نحوها وكنا في باريز يوم اجتمعنا سنة ١٨٩٢ فقال لي شوقي: هذا أسلوب إفرنجي ينبغي تركه.

[4] هكذا في الأصل والصواب وأما اتساقًا والسياق. [المحرر].

على كتابة، في حجر، أو نقش على عمود؛ إذ انكشف لديهم حجر آخر كان مدفونًا جاء فيه ما لا ينطبق على الأول، أو ما فيه زيادة عليه، فتغيرت تلك الحقيقة وانقلب ذلك التاريخ.

ولهذا كان ينكشف منه كل يوم شيء جديد وصح أن يقال: إن حجرًا من هذه الحجارة يحيي لقديم مصر تاريخًا، وإن حجرًا يميته. ولا أرى هذه الجملة في شيء من الطلاسم والرقي، كما قال **البيان**، وأعتقد أنها لا تُشْكِل على أحد. فأما إن كان أغاظ **البيان** حذفه إحدى التارتين من قوله: **(فهي عين تارة وأثر)** فالخطب يسير ولا بأس به لأجل الإيجاز ورشاقة الجملة مع قيام الدليل على التارة المحذوفة.

وأما اعتراض **(ما عساي ناولتك مما فات التفاتي قدره)** فأوافق **البيان** فيه من جهة التعمية. على أن قوله: عساي ناولتك يتضمن معنى لعلي ناولتك، فقد حكي الأزهري عن الليث أن عسى تجري مجرى لعل.

وأما قوله: **(مرتين لا متتاليتين ولا متعاقبتين)** فهو غامض أيضًا.

وأما **(تتلاشى متوارية وتتوارى متلاشية)** فهو جائز.

وأما عبارة **(حوار الماء والتيار)** فلم أعلم ماذا سبقها وما هو المراد منها. ولكنها على كل حال مبهمة. وأما جملة **(كان الفصل نيلاً خفيفًا ثقيلاً جفيفًا بليلاً)** إلى آخر ما ذكر فهي بالشعر أليق منها بالنثر.

وأما **(فرغت الزجاجات ولم يفرغ من الشراب)** فالمعنى فيه ظاهر. وهو أنه لا يفرغ من طلب الشرب. أما قوله: **(تركه شيئًا ليس بالحي)** فلا أعلم ماذا تقدمه وماذا تأخر عنه. لأني لم أظفر بالرواية مجموعة وما هو منثور منها في الجريدة لم يحفظ عندي وإنما أقول: إنه إن كان ما بعد ليس بالحي قوله: ولا الميت فهو مقبولاً وإلا فلا.

وأما **(أجهد أذنيه)** فإن كانت بغير معنى أتعب سمعيه فلا تأتي.

غير أن قوله: **(أخذ النوم يطمئن بمقاعده من الأجفان)** فضلاً عن كونه ليس محلاً للاعتراض فهو كلام شعري بديع.

وأما **(ارتجال النظر)** فهو غريب ومثله ارتجال النور ولا مسوغ لذلك. فإن كان بعض فحول البلاغة من كتاب الإفرنج وشعرائهم، مثل بوسويه وهوجو مثلاً قيل عنهم: إنهم كانوا يرتجلون الألفاظ لمعانيهم ويسخرون اللغة لمقصودهم، وكان الناس لا يكبرون عليهم هذا الأمر بما بهرهم من فصاحتهم وبلاغتهم فلم يكونوا يأتون ما أتى من هذا القبيل عند وجود المناسبة بين اللفظ والمعنى. وأي مناسبة هنا؟

أما **(للفكاك)** الذي أخذ على استعماله **البيان** في قوله: **(مانع للفكاك)** فيقصد به الحركة والانطلاق من قولهم: كل شيء أطلقته فقد فككته. ويؤيد ذلك تأكيده بقوله: **(مفقد للحراك)**.

وأما **(الشراك)** فلا يأتي بمعنى حبائل الصائد وإنما هي الشرك حسبما قرر **البيان** وأما **(غير قادر المشيب)** فلم أفهمه جيدًا.

وأما قوله: **(ثم تواكل الثلاثة بالباب فلم يزالوا به حتى كسروه)** فأظن أن المقصود توكل بدون ألف وأن الألف زائدة من غلط الطبع. وأن أديبًا راسخًا مثل شوقي بك لا يخفى عليه مثل هذا. وغلط الطبع يقع كثيرًا حتى في نفس البيان مع كثرة مراجعات الشيخ في تصحيح المسودات، ألا ترى أنه ورد فيه هذه المرة **(بحيث كان كل منها ضاربًا ومضروبًا)** بدل كل منهما.

ثم انتقد **البيان** بعض أبيات الرواية من جهة الوزن، واستغرب وقوع الناظم في مثله، مع ما هو معروف به من طول الباع في صناعة الشعر. ولا بد من تصويب قول **البيان** في انتقاده هذا، من الوجه العروضي، إلا أنه لا ينكر أن مثل ذلك وقع أيضًا للشعراء حتى الفحول منهم، وأنه مما لا يقدح في شاعرية شوقي بك. لأن الشعر غير الوزن وكل منا يحفظ **(وقل أنا وزان وما أنا شاعر)**. على أن الظاهر من شوقي بك أنه قليل الاحتفال بهذه الصور الظاهرة، بل نراه قد يتحدى الإفرنج في شعره فلا يبالي مثلاً بأمر القوافي التي يكررها كثيرًا بالمعنى الواحد، كما لاحظته في همزتيه الشهيرة ولا يعبأ بتجاوزات أخرى أعرفها له، وأخشى أن يتمادى به احتقار القيود الشعرية إلى أن ينظم أخيرًا بدون قافية نظير شعراء الإنكليز.

وإني لأعذره عند النظم حينما يكون خاليًا به شيطان الشعر مستغرقًا في التأمُّل، غائصًا في أبحر التخيل، في عدم إسفافه إلى تفعيل المنسرح والسريع وتقطيع كل بيت بل كل شطر مما ينظم.

ولكني أنصحه باجتناب هذه الأبحر التي في ركوبها خطر الوقوع وإزباد علماء في العروض مثل الشيخ، والله يعلم أنني ما نظمت عليها شيئًا أرويه ولي ندحة في الطويل والكامل وأشباههما، عن هذه الأوزان العرجاء، وغني بركوب تلك الأبحر الواسعة عن هذه الخُلْج العوجاء.

هذا ما عن لي إيراده من محاكمة هذين الفاضلين لا أقصد به تهضم جانب أحد منهما، ولا الاستطالة على أحد. فإني أول من أقر بعجزه ولي من مودة كل منهما ما يكفل لي تصحيح دعواي هذه.

وبالجملة فلا أبرئ **البيان** من التشديد في مؤاخذة شوقي بك والتحجير في الواسع، كما لا أبرئ شاعرنا الشهير من النزوع إلى أبعد مذاهب الشعر أحيانًا في كتاباته، ومن تسلط

التأمّل على مخيلته إلى حد الذهول الذي يجعله أن يقع في فرطات منشؤها السهو، وأن يقـول مثلاً في بائية الحرب:

**تنـام خطـوب الملـك إن ظـل سـاهرًا وإن هـو نـام اسـتيقظت تتألـب**

إذ كيف يظل ساهرًا والسهر إنما يكون في الليل ولا حاجة هنا للمجاز؛ إذ يمكننـا أن نقول: بات ساهرًا فلا جرم أن مثل هذا سهو صريح أدى إليه ذلك الذهول [5].

ومع هذا فلا يحزنن أخي شوقي انتقاد **البيان** ولا غيره فليس في انتقاد ما يكفر بـاهر حسناته، ويخفض من مقامه المنفرد في الشعر.

وليقل القائل ما شاء فلن يزال أحمد شوقي بلبل مصر وصناجة العصر. **(شكيب)**.

* * *

(5) كان شوقي بعد أن تفارقنا في باريز يكاتبني ويرد على كل كتبي إلى أن انقطع أخيرًا عن الإجابة من دون سبب فانقطعت أنا أيضًا عن مكاتبته وما زلت منقطعًا إلى أن جاءني منه ألوكة (*) يقول لـي فيهـا: مـا قصرت في جوابك لسبب وإنما هو الذهول الذي لا تسلم منه نفسي. فأنا أعرض له هنـا بالـذهول الـذي اعتذر به.

(*) ألوكة: رسالة [المحرر].

## ﴿تذييل﴾

## (على الجزء السادس عشر من البيان)

## ﴿الأمير شكيب أرسلان ورواية عذراء الهند﴾

وردت علينا عدة مقالات في الردّ على ما نشرهُ الأمير شكيب أرسلان دفاعًا عن رواية عذراء الهند الهند لصاحبها أحمد شوقي بك مما عدل فيه إلى المغالطة والمماحكة والتمويه، بما لا يفيد علمًا، ولا يدفع اعتراضًا. وهو مجالٌ لا نحبّ التفرّغ لهُ لما فيه من إبرام المطالع بما لا فائدة منهُ، وإضاعة الزمن على غير طائل. وقد علم القراء أن ما نتوخاهُ أحيانًا من الإيماء إلى بعض ما نراهُ من الهفوات فيما نقف عليه، من الكتب المنسوبة إلى خاصة الكُتّاب والأدباء، إنما نفعلهُ بقصد الإرشاد إلى وجوه الصواب، والتنبيه إلى مواقف العثار لا بقصد العداء أو التشفي، ولا طلبًا للمناقشة والجدال، على ما توهمهُ الأمير، ورأيناه يعرّض فيه بذكر الغالب والمغلوب، مما لم يخطر لنا قط ببال، ولا جري في خَلَدنا أن نتعرض لمناولته أو منازلة غيره.

ولذلك طوينا تلك الردود مع الشكر لأربابها، ونحن على يقين من أن كلام الأمير لم يصب من اعتداد أولي العلم موضعًا، ولم يقيموا له وزنًا، لأنه لم يشتمل إلا على السفاسف والترهات، فضلاً عما يستشف من ورائه من حب التشفي، لأمرٍ لم يغب عن أذهانهم لقرب العهد به. وفي أثناء ذلك صدر الجزء السادس عشر من **البيان**. وفي آخر بعض النسخ منهُ ملحق لأحد رجال الدين في أحكام انتخاب البطاركة، أفردناه بنفسه لخروجه عن أغراض المجلة وليمكن فصله عنها إذا أُريد ذلك. فلما انتهى هذا الجزء إلى بيروت ووقف فاحص البريد على الملحق، توهَّم أنَّهُ يدعو إلى ثورةٍ في البلاد، فقضي بوجوب الحجر عليه ومنع تسليمه إلى المشتركين، واتصل الأمر ببعض الوجهاء من أهل الخير وذوي الغيرة على الآثار العلمية، فسعوا في إزالة هذا الوهم، أو سلخ الملحق عن الجزء وتسليمه إلى أربابه. ولكن أهل الفساد الذين لا يخلو منهم موضعٌ وقفوا سُدًّا في وجه الأمر وتلونت مساعيهم لقطع كل وسيلةٍ في الإفراج عنه، حتى أفضوا بالمسألة إلى طورٍ من الهزؤ ولطّخوا الجزء كله بهذه الجريمة في زعمهم، بدعوى أن بين الجزء والملحق اتصالاً بالخيط... وانتهى إلينا من غير واحد من أفاضل إخواننا هناك أن في طليعة الساعين بهذه المفاسد الأمير شكيب أرسلان. وقد دبَّ إلى جماعةٍ من أرباب المخرقة والنفوذ، وسعي بهم بين أيدي أولي الأمر في تأكيد الحجر كيدًا وتشفيًا ودفعًا للفضيحة عن نفسه، لأنه توهَّم أن هذا الجزء يتضمن الرد على ما هذر به في

الأهرام، مما تقدمت الإشارة إليه. فليبشر الأمير أنَّهُ قد نبَّه منّا غير غافل، وأذكر غير نـاس، وقد أبدلنا الملحق المذكور بهذا الذيل ننشر فيه إحدى المقالات المشار إليها، من قلم أحد فتياتنا النجباء، ولهُ بعد ذلك منا ما يسرَّهُ إن شاء الله، وهذا نص المقالة المذكورة:

قد وقفت على المقالة التي نشرها الأمير شكيب أرسلان في أحد أعداد الأهرام تحـت عنوان "**لعل للعذراء عذرًا**" زعم أن يرد بها على **البيان** فيما انتقد به روايـة **عـذراء الهنـد** لمؤلفها أحمد شوقي بك، فوقعت عندي وعند كل من اطّلع عليها في أقصى مكان من الغرابـة لإقدام الأمير على مثل هذا الموقف الحرج، وتهافته على مواطن الخزي والفشل. ولا سيما بعد ما اشتهر من عهدٍ قريب ما كان من عاقبته في هذا المجال، ممَّا عاد به من السخرية والهوان مما لم يرض إلا أن يزيد في طينته بلة حتى لا يبقى كبيرٌ ولا صغير ولا قريبٌ ولا بعيد، إلا يتحدث بتهوُّرِهِ وفشله، ويكون على بيِّنةٍ من مبلغ علمهِ وعقلهِ.

وقد علم كل من وقف على كلامه في هذا الرد أنَّهُ ينقسم إلى ثلاثة أقسـام: **أحـدها:** المماحكة على غير طائل، ومحاولة ستر الحقيقة تحت براقع السفسطة والتمويه. **والثاني:** سرد كلام لا معنى له ولا محصول سوى القعقعة والتخليط بكثرة النقل في غير محله، لإيهام مـن لا يعلم أن هناك علمًا باهرًا واطلاعًا زاخرًا. **والثالث:** وهو أهمها ولعلَّ السر فيه الاعتـراف لجانب كبير من مآخذ **البيان** بأنَّهُ حقٌّ لا ريب فيه، بل التجاوز أحيانًا إلـى تغلـيط صـاحب الرواية فيما هو خارج عن الرواية. وهذا كما تراه لا ينطبق على عنوان مقالته المذكور، وما يوهمهُ في بادي الرأي من أنه ينوي الانتصار لهُ والنصح عنهُ.

فإذا تأمّلت هذه الجهات كلها، أيقنت أن الأمير لم يقصد إلا المكيدة لصديقه شوقي بـك وتوسيع الخرق عليه، والتسبب في إذاعة هفواته وتكرار الحديث في سقطاته، حتى يصيبهُ من ذلك ما أصاب الأمير في أمر الدرّة اليتيمة، مما لا يزال حديثه دائرًا على الألسنة إلـى هـذا اليوم. والذي يظهر لي بعد ذلك كله، أن الأمير يطوي لصاحبه غلاًّ، كمـا يطـوي لصـاحب **البيان**. فهو يقصد بفكره الدقيق، وحكمته الخفية، أن يتشفى من الفريقين في وقت واحد. فكمن لأحدهما وراء ستار البحث الأدبي، وللآخر وراء ستار دعوى الحب والتشيع.

على أن شوقي بك لو علم أن للرد مساغًا، أو كان ممن يؤثر المغالطة والمكابرة فـي الحقائق، لما احتاج أن يستعير قلم الأمير ويستعين بمثل كلامه في هذا الرد، الذي لا يُعـد إلا ضربًا من الشماتة به والاعتداء عليه، وبعدُ فما للأمير وعذراء الهند يحاول الدفاع عنها فيمـا لا تعود عليه منهُ تَبِعة ولا تلزمهُ فيه غضاضة. وثَمَّ عذراء أخرى هي أولى بحميته ودفاعـهِ عنها بأقلامه الطويلة، ألا وهي عذراء لبنان التي تُعرَض هذه الأيام في إحدى الجرائد السيَّارة تسافر بها في البر والبحر، وتترامى بها ما بين شرقي أوستراليا وغربي أميركا، وهي مماطلة

اللثام ممزقة الخدر، مخدَّشة الجبين والصدر، على كونها أقرب منه مكانًا وأعلق بــه نسـبًا، وأوجب عليه حرمةً، وأدعى له إلى الأنفة والغيرة فما بالهُ تركها بين أيدي العابثين، ولم يبـالِ بما يرى من تشهيرها وتشويرها، وانصرف بحماسته وعزّة نفسه الكبيرة إلـى الـدفاع عـن عذراء الهند، وهي عنهُ في ذلك كله بمسافةٍ ليست بأقل مما بين لبنان والهند.

وبعد هذا وذاك فلو كان الأمير من أهل المقام الذي اقتحمه، لكان في تعرضه له مـا يحتمل المعذرة والإغضاء، ولكن كل أحدٍ يعلم أنه من صيارفة اللفظ وأنه إنما يحسـن تلفيـق كلماتٍ يعربها عن الجرائد السياسية فيأتي بها عربية الحروف كردية الألفاظ. وما علمنا قط أن لهُ إلمامًا باللغة ولا غيرها من علوم الأدب ولا أنه وطئ عتبة أهل التحقيق فـي شـيءٍ ممـا يسمي علمًا. أفليس من الغريب بعد هذا أن نرى مثله يتعرّض لنقـد الكـلام والتمييـز بـين صحيحه وفاسده، وهو لا تكاد تخلو له عبارة عن غلطةٍ أو ركاكة، ثم لا يرضى حتى ينصب نفسهُ حَكَمًا ليحاكم مثل **البيان**.

هذا، ولما كنت أعلم أن صاحب **البيان** لا يتنازل للرد على تلك السفاسف، ولا يحطب مثل هذا الكاتب في حبلهِ، دفعتني الحمية أن انتدب للرد عليه، لا دفاعًا عن **البيان**، فإنـهُ فـي غنى عن ذلك، ولكن غيرةً على الحقائق العلمية أن تبرقع بمثل تلك الخزعبلات، وحرصًا على الأذهان الضعيفة أن تضلّل بتلك الترّهات، وردعًا لهذا المدَّعي وأمثاله عن التطاول إلـى مـا ليسوا من أهلهِ. أذكر ذلك بقدر ما يتسنى من الاختصار، وأحصر كلامي فيما هو من الغرض العلمي، دون ما تورك به من التقعرات التي لا فائدة من الرد عليها؛ إذ لـو أردت أن أتتبـع كلامهُ جملة جملةً، وأبين ما فيه من الزيف والشطط لطال بي المجال إلى ما يورث الملال.

فهلمَّ الآن يا سيدي الأمير نحاكمك فيما جعلت نفسك حَكَمًا فيه، فإنْ وجـدناك مصـيبًا اكتفينا بتحذيرك من العود إلى مثل هذا التطفل، لئلا يصادفك فيهِ ما يردك عنـهُ فَشِـلاً، وإلا أنزلناك من مقام الحكم وحكمنا عليك.

فقد بدأت احتجاجك بالكلام على إهداء الرواية فذكرت أنك لم تفهم المراد مـن إنكـار **البيان** إهداءها إلى المقام الخديوي، وهو عجيبٌ من مثلك وأنت علم اللغة وفيلسوفها. والكـلام هناك أوضح من النهار في عين البصير. إلا أنك لم تلبث أن فسَّرت كلامهُ بما دلَّ على أنـك فهمتهُ فكفيتنا مؤونة التطويل. ثم قلت: وقد يعتذر ناسخ الرواية بأن ليس ثمة ما يمنـع تقـديم كتابٍ يتصل بتاريخ مصر القديم إلى عزيز مصر الآن، وهو نفس العذر الذي اعتذره **البيـان** عن المؤلف، وإن لم يعده عذرًا مقبولاً، نسختهُ عنهُ ولكن بعد أن كسوتهُ حلةً من ركاكة لفظك وادعيت أنه من مقولك.

ثم حاولت الاعتذار عن قوله الكاتب وما كتب غراس نعمائك، فتفلسفت هناك ما طلب لك، ثم كانت نتيجة حكمك أن قوله هذا مثل ما طالما تكلم به الشعراء والكُتاب، في معنى أن إنعام الممدوح هو مصدر فصاحة المادح.. قلنا: أجل أيها الأمير لعلنا رأينا ذلك مرةً، لكن كان يجب عليك قبل هذا القول أن تميز بين مدح المادح وقَصَص المؤرخ. ويا ليت شعري هل كانت هذه الرواية خطبةً أو قصيدةً عدّد فيها المؤلف المناقب الخديوية حتى يقال: إن نعمة الممدوح كانت تملي على الكاتب عبارات المدح والشكر، أم كانت سرد حوادث قديمة لا علاقة لها بالمُهْدَى إليه ولا ذكر له فيها؟

ثم انتقلت إلى قوله وجني ظللك ومائك فكان احتجاجك عن هذا القول: إنهُ لا غراس بلا ظل، وإن الظل غير مانعٍ من الجني. هذا لفظ بنصِّهِ الشائق وفيه دليلٌ على دقّة فهمك وقوّة بصيرتك في إدراك المعاني. ألا ترى أنك جعلت الظل للغراس لا للمُهدَى إليه، مع أن المؤلف يقول: وجني ظللك بإضافة الظلّ إلى ضمير المخاطب فهل كان يخاطب الغراس بهذا القول أم يخاطب المُهدَى إليه؟ ومن كان هذا مبلغ فهمه مع هذه الصراحة، فلا عجب أن يكون كل صوابٍ عندهُ خطاءً. ثم تحذلقت بعد ذلك لما لا يفي به وصف فزدتنا علمًا بأنك تعلم العناصر التي يتغذى منها النبات، فعدّدت من تلك العناصر الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين، فما زدت على أن جعلت الحرارة عنصرًا. لله درك ما أطول باعك في كل علم.

وانتقلت بعد ذلك إلى قوله: فإذا وُفِّق ليرفع إليك عملاً فقد أسند أفعالك إلى أسمائك. فقلت: إنك لا تجادل في غموض هذا القول. لكن اعتذرت بأن المؤلف غالبٌ عليهِ الشعر فحسب نفسهُ، وهو في النثر أنهُ في النظم، فما زدت على أن اتهمت صاحبك بالصرع والذهول والسياحة في عالم الخيال. فلله درك من مناضلٍ بصير.

ثم أفضيت إلى الدفاع عن قولِهِ: أحب إخوته الكثيرين على الأمم فتقعرت بما لا مزيد عليه، وزعمت أن تصحح اعتراض الخفاجي على الحريري في تخطئة هذا التعبير، فلم تزد على إيراد قول الخفاجي نفسه، مما لا نخالك فهمت شيئًا منهُ. ولا يسعنا شرحهُ لك في هذا المقام. غير أننا نفيدك بالاختصار أن أفعل التفضيل قد يخرج عن وضعه إلى معانٍ أُخر تختلف باختلاف مواقعه من الكلام. منها أنهُ قد يُخلع عنهُ معنى التفضيل، ويراد به مجرّد الوصف بمعنى ما اشتق منهُ كما في قول الشاعر:

**إن الذي سمك السماء بنى لنا   بيتًا دعائمهُ أعزٌ وأطولُ**

فإنهُ لا معنى للتفضيل هنا؛ إذ لا يُقصَد التنظير بين دعائم البيت الذي بناهُ لهم وشيء آخر هي أعز وأطول منهُ. ولو ذهبنا إلى التفضيل لم نجد في البيت ما تنظَّر به تلك الدعائم إلا السماء فتأملهُ. ومنها أن يكون التفضيل غير مقيد بالمفضّل عليه المذكور في العبارة. وقد

مثلوا عليه بقولهم يوسف أحسن إخوته يريدون هو أحسن الناس من بين إخوته. وعلى هذا يُحمَل ما في البيت الذي اخترتهُ من منقولات الخفاجي وهو قول العتبي: يا خير إخوانه وأعطفهم، وأنت تحسبه مخرجًا آخر من مخارج أفعل. وقد تمطقت بعد ذلك بقولك: وحسبك أن نحويًا مثل ابن خالويه أجاز هذه العبارة، وأنت لا تعلم بأي معنى أجازها، ولو تبصرت ما هناك، وكنت ممن يدرك سر كلامه لوجدتهُ غير خارج عما نقول. والحاصل أنك لو عرضت عبارة العذراء على كل ما فُسر به أفعل في قول الخفاجي وغيره لم تجد لها تفسيرًا يمكن إخراجها عليه، إلا أن يكون أفعل فيها بمعنى التفضيل المقيَّد. وعليه لا يأتي معنى العبارة إلا فاسدًا طبقًا لما تقرر لك في نقد **البيان**.

وما أضحكنا إلا اعتذارك عن قوله: "**وأمتنهم أعلاقًا في القلوب**" حيث تمحلت أن الأعلاق هنا جمع عَلَق بفتحتين بمعنى النكرة وأداتها، وبمعنى الحبل المعلّق بالبكرة، وبمعنى الرشاء، أي حبل البئر. ثم استشهدت على هذا الأخير بما أنشدهُ في اللسان عيونها خريرٌ لصوت الأعلاق، وإنما هو شاهدٌ على المعنى الأول. فتأمل بربك هذا التخريج وتصوَّر الحب في القلوب بصورة بكراتٍ قد نُصبت أداتها في جوانب الأضلاع وعُلّقت عليها الحبال معقودةً أطرافها بالدلاء، وتلك البكر تصرّ صريرًا منكرًا حتى تخزز من صوتها العيون تقبضًا واشمئزازًا. لعمري إننا لنترحم على عشاق العرب أنهم لم يسبقوك إلى هذا المعنى يذكرونهُ في أغزالهم ورقائق استعطافهم. وإذن لكان لهم ما يصطادون به المحبوب قسرًا إذا سمع صرير تلك البكر، فخزرت عيناهُ دهشًا وخرّ من الذعر صريعًا.

ولا يقصر عن هذا احتجابك عن الرأي العام؛ حيث قلت: أما الرأي فهو الرأي لا ريب فيه **(ما شاء الله)**. ثم قلت: أما اتصافه بالعام، فهو كاتصاف البلاء بالعام **(العياذ بالله)**. ثم خلطت بين العام والعمم، وأطلت بما لا معنى له، من الشواهد على العمم إلى آخر ما تحذلقت به، مما لا حاجة إليه، ولا هو في شيءٍ من البحث الذي أنت فيه. وحاصل ما يُفهَم من قولك: إثبات أن كلاًّ من الرأي والعام كلمة غريبة. ففي جواب ماذا أوردت هذه الجعجعة كلها، وأين قيل لك: إن شيئًا من هاتين اللفظتين غير عربي؟ وهل يكفي لفصاحة العبارة أن تكون كلماتها واردة في كتب اللغة؟ فأين صورة التركيب التي عليها مدار علم البيان؟ بل أين منك علم البيان؟ وبأي باصرة ينظر إليه أمثالك؟ ثم ماذا ترى لو قلنا لك في مكان الرأي العام: الرأي الشامل، والرأي الجامع؟ أو لو قلنا لك: الرأي الكلي والرأي الجمهوري؟ أليست هذه الألفاظ كلها عربية لا ريب فيها؟ بل كأني بك تصحح كل ما سردتهُ لك ههنا، لأن أكثر كلامك من أمثال هذه التراكيب التي لا تصح في قياس، ولا يقبلها ذوق.

ولقد أعجبني بعد ذلك ما أوردتهُ من الاعتذار عن قوله: مدينٌ لنصحها الثمين؛ حيث جزمته بأنهُ غير معذور في هذا الاستعمال، لأنه كان قد نهاك عن مثلهِ أيام اجتماعكما في باريز، حتى إذا أقلعت عنه إكرامًا للعربية ولخاطره كما تقول عاد هو إلى استعماله. أصبت أيها الأمير، إن مثل هذا لمما يستحق عليه أشدَّ اللوم فقد كان عليه إذا عزم أن يعود إلى هذا الاستعمال أن يجعلك على بيّنةٍ منهُ، لا أن يدفعك عنهُ ثم يستبد به دونك.

ثم قلت: وأما باحوا بسر المأمورية فلا يمكن لي أن أعد المأمورية ممَّا لا يصح استعمالهُ. قلتُ: من موجبات الأسف إن ذلك لا يمكن لك، فإنه متى لم يمكن لك لم يمكن لأحد سواك، لكن أفدني عن قولك: يمكن لي هل هو مما يصح استعمالهُ وما هذه اللام هنا وأين رأيت فعل الإمكان يتعدى باللام إلا في كلام إضرابك من غلمان الصحافة. لا جرم أن من كان هذا مبلغهُ من معرفة اللغة لحقيقٌ بأن يتحكم فيها إثباتًا ونفيًا ويتصدَّر في منصّة أحكامها. فيقول: هذا يمكن لي وهذا لا يمكن لي.

وانتهيت بعد هذا إلى استعمال شوقي بك البرهة والصدفة فسلّمت بأنهُ مخطئٌ فيهما جهارًا منهُ بأنهما من ألفاظ العامة، وما كان هذا شرط دخولك في هذه المناقشة والتماسك للعذراء عذرًا. فإن كان هذا عذرها عندك فكيف يكون الذنب؟ ومثلهُ ما ذكرته في استعماله الهوادس بمعنى الهواجس فقلت الحق فيها مع **البيان**، إلا أن تكون غلطة طبع فزدت هنا على التحذلق رقاعة.

ثم انتقلت إلى استعماله العائلة بمعنى الأسرة فحتّمت بأنهُ وارد إلا أنك لم تفدنا أين ورد ولا في أي كتاب رأيتهُ ولكنك انصرفت عنهُ إلى نقل كلام الخفاجي في العيلة وأنها تجيء بمعنى العيال، خلافًا لما ذهب إليه الحريري. فأين هذا من ذاك. على أن كل مستند الخفاجي إنما كان على عبارة الحديث أتخافين العيلة وأنا وليُّهم. وقد نقلت هذا الحديث، وقلت: وفسروهُ بالعيال. والصحيح أن الذي فسرهُ بذلك ابن الأثير. وبين القولين فرقٌ لا يخفى على ذكائك. على أن قول ابن الأثير: لا يسلَّم به حتى تُعلَم قرائن هذا الحديث، وما ورد قبله. فالأظهر أن الضمير من قوله: وأنا وليّهم، يعود إلى مذكورٍ قبل لا إلى لفظ العيلة؛ فتكون العيلة فيه بمعنى الفقر وهو ما أجمعت كتب اللغة على تفسير هذا اللفظ به. ولو كان ما قالهُ ابن الأثير صحيحًا لم يتغاضوا عن نقله، ولا سيما أن الكلمة من ألفاظ الحديث وعنايتهم بالحديث أشهر من أن تذكر.

وهنا انتهيت إلى قوله في الكلام على التاريخ المصري: إن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر... فتقعرت ما شاءت فصاحتك ووسع علمك، ثم عمدت إلى تفسير قوله تموت بحجر فزعمت أن المعنى فيه ظاهر، كأنك تزعم أن الناس كلهم في طبقة ذكائك وعقلك. ثم اندفعت

في التفسير بما عُرف في كلامك من الركاكة والتعسف، وأسهبت في الشرح إلى ما يشهد بنقض ما ادعيتهُ أولاً من ظهور المعنى في هذه العبارة. لو أنك بعد ذلك كله أدركت المراد منها وفسرتها بما ينطبق على الصواب. وأنا أنقل لك بعض كلامك في هذا الموضع، لتعلم ما فيه. فإنك تقول: إنهُ بينما يتقرر عند المؤرخين شيء يظنونهُ الحقيقة الأخيرة بما يطلعون على كتابة في حجر؛ إذ انكشف لديهم حجر آخر كان مدفونًا جاء فيه ما لا ينطبق على الأول فتغيرت تلك الحقيقة وانقلب ذلك التاريخ.

هذه عبارتك بنصها الفصيح وأسلوبها الرائق. وحاصل ما فيها أنك جعلت تلك الكتابات متناقضة، يكذّب بعضها بعضًا، ولا ينطبق فيها خبرٌ على خبر. وإذا كان الأمر على ذلك، فلم تعيَّن في رأيك أن يكون ما انكشف من تلك الكتابات آخرًا أحقّ بالثقة مما انكشف منها أولاً، بل إذا تناقض خبران من مثل ذلك، فكيف يمكن أن يرجح بينهما وبأي سبيل يُعرَف الصادق من الكاذب؟ ألا ترى ما يراهُ كل عاقل أنك بتفسيرك هذا قد أفسدت المعنى، وجئت في كلامك بالمحال، على بُعد ما ذهبت إليه، من وجود التناقض بين تلك الكتابات.

وإنما المعنى الصحيح في ذلك، أنه لما كانت حقائق تاريخ المتقدمين مسطورةً على الحجارة لا يمكن أن تُعلَم من غيرها، ترتب على ذلك أن كل حقيقةٍ منها ظُفِر بالحجر المكتوبة عليه عاشت تلك الحقيقة، وأثبتت في التاريخ. وكل حقيقةٍ فُقِد الحجر المكتوبة عليه أو بقي مدفونًا، بقيت ضائعةً لتعذُّر الوصول إليها من طريقٍ آخر.

ثم ذكرتَ قوله ما عساي ناولتك مما فات التفاتي قدرهُ فتنازلت هنا أيضًا إلى موافقة صاحب **البيان** على ما فيه من التعمية، وإن لم تفهم ما فيه من الخطأ. وكذا قوله مرتين لا متتاليتين ولا متعاقبتين، فإنك سلمت بما فيه من الغموض (كذا) لكنك لما انتهيت إلى قوله تتلاشى متوارية وتتوارى متلاشية لم تزدنا على قولك فهو جائز (بخ بخ). واعتذرت عن قولهِ جوار الماء والتيار بأنك لم تعلم ماذا سبقها وما هو المراد منها. فيا ليت شعري ماذا يفيدك الوقوف على ما سبق هذه العبارة، ثم ماذا فهمت من اعتراض **البيان** عليها. وكذا جملة كان الفصل نيلاً.. حيث ذكرت أنها بالشعر أليق منها بالنثر. فلله درك لقد أسكرتنا بتفننك في هذا الردّ. وقوله: سنجدهم إما في السكر وإما نائمين من السكر؛ حيث قلت: إنك لا تعلم ماذا أُشكل (كذا بصيغة المجهول) على **البيان** منه وكأنك ترد كل اعتراض إلى الإشكال. وقولهُ: فرغت الزجاجات ولم يفرغ من الشرب؛ حيث قلت: المعنى فيه ظاهر، وهو إنهُ لا يفرغ من طلب الشرب وهذا أيضًا من أدلة ذكائك وسعة علمك بتأويل الكلام. وقس على ذلك [ ] (6) ما تحذلقت به في هذا الموضع مما أظهرت فيه تمام الفهاهة وأنت ترى أنك قد لبست لنا ثوب

(6) غير واضحة في الأصل [المحرر].

المداهاة والمؤاربة، ثم أنحيت على صاحبك بالتنديد والإزراء حتى اتهمتهُ بالـــذهول والســـهو، عودًا على بدء، وعبتهُ في أشياء من شعره، لا دخل لها فيما أنت فيه، مما أتفادى من بيان ما أتيت فيه من الشطط لضيق المقام، كما أُغضي عن بقية ما فرط لك من الأغلاط في هذا الرد، خلا ما نبّهت عليه في مواضعه، وإنْ أحببت المزيد فبين يديّ من أغلاطك في رواية آخر بني سراج ما إن ندبتني إليه أتيتك أسرع من وَرْي الزناد، والسلام على من اتبع الهدي.

**نقولا بدران**

## تعقيب شكيب أرسلان

### رد للمؤلف على اليازجي

والآن أعود فأنقل جوابي لليازجي على رده هذا:

### كل ينفق مما عنده

قد ترددنا في جواب **(البيان)** على ما أتى به في جزئه الأخير مما لا خلاف في كونه ليس بجواب على خطابنا، وكنا نحب الإمساك عن كل كلمة في الرد عليه، تاركين الحكم في هذه القضية لأرباب العلم، وأهل الذوق السليم، ليفتحوا بيننا وبينه بالحق معتقدين أن الحق ليس بضائع عندهم، ولكننا رأينا السكوت مطلقًا عن جميع ما أورده قد يوهم بعض من لا تحقيق عنده أن قوله: كان الفصل، وأن الرجل قد ألزم وأفحم وأنه إنما يغرف من يم.

فاخترنا نشر هذه السطور تعزيزًا لبعض ما حاول دفعه، ودفعًا لما اعترض به علينا جديدًا. فأما سائر ما أتى به مما هو خارج عن موضوع المناظرة، فلو شئنا لكان للأقلام مجال طويل في رده إليه وعكسه عليه؛ ولكن ذلك ليس من شأننا فنقول:

أما **(الكاتب وما كتب غراس نعمائك)** فقد أصبحنا في غنى عن تأييدها بما نتركه لمحفوظ القراء من هذا المعنى الذي لما لم يسع صاحب الرد هذه المرة إلا التسليم بوروده عاد يقول: **(لعلنا رأيناه مرة)** وما رأيناه إلا مرارًا. بل لقد سمعنا فيه المثل. وناهيك بما أصبح مضربًا للأمثال يكون مطروقًا.

فأما قوله: كان يجب عليك أن تميز بين المادح وقصص المؤرخ ويا ليت شعري هل كانت تلك الرواية خطبة أو قصيدة عدّد فيها المؤلف المناقب الخديوية حتى يقال: إن نعمة الممدوح كانت على الكاتب عبارة المدح والشكر.

فجوابه. أن قول صاحب الرواية: **(الكاتب وما كتب)** هكذا على إطلاقه لا يفيد **(بما كتب)** هذه الرواية وحدها.

وقد **(كتب)** غيرها كثيرًا وأسال من المداد جمًا مستمدًا من كتابته بنعمة مولاه الخديوي التي هو غذي درها وغارق في أبحر آلاء هو ناظم درها.

وهو الذي ملأ الآفاق بالمدائح الخديوية وسير أوابد الشعر في هذا البيت الكريم، وحسبك أن صفته الملازمة له، أنه شاعر الخديوي، وقد امتلأ حوض العزيز من نظمه.

ولا نعلم بعد هذا من أين جاء الشيخ هذا الشرط الذي قاله وهو: إنه يجب أن يكون كل ما يكتبه الكاتب، خطبة أو قصيدة، يعدد فيها مناقب سيد له منعم عليه، حتى يجوز له التحدث

بنعمة ذلك السيد. فإذا خرج من ذلك المعرض مرق من فضل مولاه عليه، وانقطعت مادة إمداده له، فصار محظورًا عليه التحدث بنعمته بين الناس وانقطع ما **(بين النعماء والإنشاء)** كما هو مقتضى كلامه.

وأما **(جني ظلك ومائك)** فبعد أن قلنا له: إن الظل هنا مجازي، لم يبق محل لإظهار معارفنا في علم النبات والتشاغل بالظل والجني وما يتعلق بهما.

فأما قوله: إننا أضفنا الظل إلى الغراس لا للمُهْدى إليه. فمن يرجع إلى عبارتنا الأولى علم مقصودنا، وقاس درجة هذه الدعوى من الصحة. كما أن قوله: إننا جعلنا الحرارة عنصرًا فحسبنا لتفنيده إعادة عبارتنا بالحرف وهي هذه:

(ليس من الضروري في سجعة كهذه استيفاء جميع العناصر التي تخرج الثمر وذكر الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين) نعرضها على جميع علماء العربية. هل يستفاد منها أن الحرارة محمولة فيها عنصرًا من العناصر؟ وهل يقول ذلك أحد؟ إلا إذا شاء تحريف الكلم عن مواضعه.

وأما تركيب **(زيد أفضل إخوته)** فالله يعلم أننا لم نكن ممن يستعمل هذا التركيب وإنما قصدنا بالدفاع عنه أن مسألة خلافية كهذه قد حصل فيها من الأخذ والرد ما لا يمكن أن يكون غاب عن أديب راسخ، مثل صاحب عذراء الهند، وأن شوقي بك لم يعدل إلى مثل هذا التركيب، إلا وهو يرى رأي الذين أجازوه ولم يحجروا فيه، وذلك مثل ابن خالويه، وهو يحفظ منه قول العتبي. وقول صاحب **البيان:** إن ليس هذا مقصود ابن خالويه لا يسلّم به بلا دليل. والخفاجي قد نقل ذلك عنه وهو ممن يعلم ما ينقل ويفهم ماذا يقول.

ولما كان اعتراض **البيان** على هذه العبارة مأخوذًا، كغيره عن درة الغواص، وهي بين الأيدي، وكان الخفاجي قد تعقبه هناك فمن شاء مقابلة الأخذ بالرد فعليه بمراجعة ذلك في محله، ولا حاجة بنا إلى إضاعة الوقت في نقله. ومنه يعلم أدلة الفريقين.

وأما **(الأعلاق)** فلا ينس **البيان** أنه منعها في البداية قولاً واحدًا، بمعنى العلاقات فقال ما نصه: (يريد بالأعلاق العلائق وهي لا تأتي بهذا المعنى، إنما الأعلاق جمع عِلق بالكسر وهو الشيء النفيس. فمقتضى كلامه الذي لا يحتمل أدنى مغالطة أن الأعلاق هي النفائس منحصرة في هذا المعنى. بدليل قوله: (إنما) فقلنا له: بل الأعلاق تأتي بغير معنى النفائس، فتأتي جمعًا للعَلَق محركة. وهذا يأتي بمعنى البكرة والحبل المعلق بالبكرة وبمعنى الرشاء مطلقًا، وأنشدناه هذا الشطر من اللسان:

## * عيونها خزر لصوت الأعلاق *

دليلاً على عدم انحصار الأعلاق في معنى النفائس كما ذهب إليه؛ فظاهر أن صوت الأعلاق في هذا الشطر لم يقصد به صوت الأشياء النفيسة.

ثم قلنا في هذه الأدوات وهي البكرة والحبل من معنى التعليق والعلاقة ما يسدد ارتباطها بالقلوب، وذلك لأن المجاز يقع لأول ملابسة، وهنا الملابسة شديدة؛ فكان من الشيخ أنه طوى كشحًا على كلامنا هذا، ومال إلى التهكم بتأويل الأعلاق بالحبال والبكرات، وأخذ يترحم على عشاق العرب الذين لم يسبقونا إلى هذا المعنى بزعمه ولا ذكروه في أغزالهم الرقيقة وقال: (وإذًا لكان لهم ما يصطادون به المحبوب قسرًا، إذا سمع صرير تلك البكرة فخزرت عيناه دهشًا) إلى آخر ما ذكره.

ومقتضاه أنه يلزم تفسير اللفظ بمعناه الحقيقي ونفي المجاز من اللغة العربية حال كون المجاز هو فصاحتها وبيانها. وعليه فصار يلزم من الآن فصاعدًا، إذا أردنا تفسير **(أذاقها الله لباس الجوع)** أن نتخيل للجوع ثيابًا ونتصور تلك الثياب في الأفواه وقد أنحت عليها الألسنة تلوكها.

وإذا قيل: حمي الوطيس. امتنع أن نفهم منه سوى مجرد حمى التنور. وإذا قيل: جناح الذل، تبادر إلى الذهن جناح ذو قوادم وخواف فيه من الريش طائل وشكير. وإذا قيل عن رجل: إنه بحر العلم، وجب أن تلتطم بين جوانحه الأمواج، وتمر فوق رأسه السفن. وإذا قال **البيان** في نفس عبارته التي تهكمنا بها (يصطادون المحبوب) بمعنى يجتذبونه، تعين أن يكون المحبوب غزالاً قد صيد بشرك نصب له، أو سهم شك فؤاده فأخذ وسلخ، وشوي على النار كما يفعل بالصيد! وإلا فالمحبوب لا يصاد في الحقيقة.

وهكذا نمضي في تفسير العربي كله على هذا النمط. وناهيك ما يتسع لدينا حينئذ من محال الهزوء لا بأعلاق القلوب فقط، بل بأكثر معاني هذه اللغة الشريفة، مع أن الكلام لا يخفى على واسع علم المعترض، منه حقيقة ومنه مجاز. والحقيقة هي اللفظ الدال على ما وضع له في الأصل. والمجاز هو ما أريد به غير المعنى الموضوع في الأصل، وهو من جاز أي انتقل، كأنما يريدون به الانتقال من مقصد إلى آخر.

فإذا قيل: زيد أسد حال كون زيد إنسانًا والأسد حيوان، كأنه قد فصل المجاز من الإنسانية إلى الأسدية لوصلة بينهما هي الشجاعة.

أو قيل: زيد بحر، فالوصلة هي الكرم. وهذا هو أهم أبواب البيان بل قال بعضهم: إنه علم البيان بأجمعه.

ومن العجب أن المسمى **بالبيان** اليوم يوجب تفسير كل لفظ بمعناه الأصلي، متخيرًا صرير البكر وذعر المحبوب من ذلك الصرير المنكر مما لا محل له؛ إذ الملابسة بين الحبال والقلوب في معنى الارتباط تدرك بأدنى تأمُّل.

وأما ترحمه على عشاق العرب الذين يسبقونا إلى هذا المعنى، فرحم الله من لم يتركوا معنى إلا وقد سبقونا إليه.

وهل لنا من عاشق أرق غزلاً وأفصح لهجة من مجنون ليلى، فهو الذي يقول:

**فشب بنو ليلى وشب بنو أبيها وأعلاق ليلى في فؤادي كما هيا**

ومجنون ليلى هذا حجة، وقد استشهدوا بكلامه في كتب النحو. وقال الشريف الرضي: وهو الذي يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه:

**ومن حذر لا أسأل الركب عنكم وأعلاق وجدي باقيات كما هيا**

وأظن أننا أتينا من هذه النصوص بما فيه مقنع. ولم يبق جدال في كون **(أمتنهم أعلاقًا في القلوب)** جائزة سائغة وأن الأعلاق تأتي بمعنى العلائق أيضًا، إلا إذا كان المعترض أعلم بلغة مضر من مجنون ليلى والشريف الموسري وحينئذ لا كلام لنا:

نصل إلى (الرأي العام) وقد أوردنا رأينا فيها ولا نزال نقول: إن قول الشيخ **(أهواء النفوس)** لا يؤدي حقيقة معناها، وأنه حيث كانا لا يوجد فيها شيء يخالف القواعد، فلا بأس بالتسامح فيها. وتهوينا للأمر قسناها على الأمر العام وقلنا: قالوا أمر عمم وفسروه بأنه عام.

فأجابنا بأننا خلطنا بين العمم والعام، فإن نكن خلطنا فقد خلط لسان العرب والأصح أن ابن منظور كان يعلم ماذا يقول، وهو الذي فسر أمر عمم بقوله: أي عام تام فلم نعلم ما وجه الخلط بينهما؟

ثم إنه هذه المرة لم يتعرض (للعائلة) وخصص نفيه بالعيلة ورد قول الخفاجي بجوازها بحجة أن كل مستند الخفاجي هو الحديث (أتخافين العيلة وأنا وليهم).

فقال: إن الذي فسّره بالعيال هو ابن الأثير وحده، وإن قول ابن الأثير لا يسلم به حتى نعلم قرائن هذا الحديث. فقد كان صاحب البيان في غني عن تخطئة مثل ابن الأثير في علم الحديث، والرجل من أكابر المحدثين وكتابه (النهاية في غريب الحديث) أشهر من أن يذكر. وهب أن صاحب **البيان** قد طالع في حواشي الكتب بعض الأحاديث، فهو علم لا بد فيه من الأسانيد، ولا يصح تلقيه بلا رواية. فتعرض المعترض لجرح قول ابن الأثير في هذا المعنى، واقع بغير محله كما لا يخفى.

على أن الخفاجي لم يقتصر في تأييد تلك اللفظة على إيراد هذا الحديث وحده، بل قال: لعلهم أخذوها من قوله: عاله عيلة إذا قام برزقه. أو لعلها أطلقت على أسرة لكونهم سبب العيلة أي الفقر أي من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه. وفي توجيهه هذا ما لا يخفى من الوجاهة. ولا يؤاخذني قارئ بأنني استعملت (العيلة) في كلامي بمعنى الأسرة لأنها من الألفاظ التي وقع فيها المراء، والتي أغناني الله عنها بأفصح منها.

فإن قيل: فلماذا تحريت الدفاع عن استعمالها مع أنها مما لا ترضاه لنفسك؟

أجبت: على المنتقد الذي ينصب نفسه (لإرشاد الخاصة) إذا شاء الانتقاد أن يرينا وَرْى زنده ولا يعمد إلى ما قد نسج عليه العناكب من المآخذ، التي صارت إلى صغار الطلبة فضلاً عن خاصة الكُتّاب، فإظهار الطول فيما لا مزية فيه يحدو المرء إلى المقابلة بالمثل، خصوصًا في علم العربية الذي لا عبث فيه أكثر من التحجير في الواسع، والقطع بعدم جواز هذا وعدم ورود ذاك ظنًا بأن اللغة قد انتهت عند الذي طالعناه.

وأما قول شوقي بك في التاريخ المصري: (إن الحقيقة معه لا يستقر بها خبر، فهي عين تارة وأثر، تموت بحجر وتحيا بحجر) فقد كان قول البيان فيه هكذا بالحرف: (انظر ماذا أراد بقوله تموت بحجر وماذا يفهم بالحجر هنا؟ وهل هذا إلا ضرب من الرقي وشكل من أشكال الحروف؟).

فلما أوضحنا لك أن العبارة ليست ضربًا من الرُقي ولا شكلاً مما ذكر، ضرب عن الجملة صفحًا، وجاء يجادلنا في توجيه المعنى من جهة التاريخ المصري، محاولاً أن يوقعنا في التناقض حال كون كلامنا هناك نيرًا.

وملخصه: أن حقائق التاريخ المصري غير ثابتة، لاختلاف ما ينكشف كل يوم من الآثار الحجرية التي قد يناقض منها تال سابقًا، ثم يأتي ما يؤيد الذي كان قد نقض فهي لذلك بين موت وحياة مما لا يحتاج فهمه إلى إمعان.

هذا وقد بقيت هناك اعتراضات منها ما سكت البيان عنه علامة التسليم به مثل ما أوردناه على (المأمورية) وقوله: (أخذ النوم يطمئن بمقاعده من الأجفان) ومنها ما لم يجاوبنا عليه بغير التهكم والازدراء، وهو سبيل سهل لمن أراد سلوكه، لكنه ليس سبيل المناظرة، ولا يغني صاحبه من الحجة شيئًا.

إلا أنه أخذ علينا قولنا: **(يمكن لي)** في محل **(يمكنني)** بحجة أن هذا الفعل لا يتعدى باللام.

وفي الجواب لا نقول له: إن اللام تأتي لمجرد التوكيد ولتقوية المعنى دون العامل، كما قالوا (ملكًا – أجار المسلم ومعاهد) وربما نستغني عن أن نقول له: إن اللام تأتي

للاختصاص كما في قولهم (شكرت له) في مكان (شكرته) وكما قرأت في أحد التواريخ الكبيرة (بايعوا له) والأصل (بايعوه).

ولو شئنا لقلنا له: إنه لما كانت الأفعال التي تعلقها بمفعولها ما بين الوضوح والخفاء قد تتعدى باللام، كما نص على ذلك الفخر الرازي وكان يمكن اعتبار فعل (أمكن) من هذا القبيل فلا حرج في مجيئه متعديًا باللام.

ولكننا نقول: إن (يمكن لي) بمعنى (يتيسر لي) وذلك من باب تضمين الفعل معنى فعل مراد له. فإن الأفعال قد يتضمن بعضها معنى بعض، ألا ترى أنه لما قال الكوفيون بتضمين الحروف بعضها معنى بعض، أنكر عليهم البصريون ذلك، وقالوا: إن التضمين للأفعال لا للحروف، وأوّلوا شربت بماء البحر بمعنى رويت "فأمكن لي" متضمنة معنى تيسر لي، أو تهيأ لي، كما أن لفظة (ممكنة) في قول عنترة:

*** والشاة ممكنة لمن هو مرتمي ***

هي بمعنى متيسرة. وبعد هذا كله فهب أن الأولى أن يقال: (يمكنني) فما على الشيخ إلا أن يقيسها ببعض تجوزاته كقوله مثلاً: (زحف عليه) بدل (زحف إليه) وكقوله: (ينيف عن كذا) محل (ينيف على كذا)، وكقوله: (كما أشار) والواجب (كما أشار إليه) وهلم جرا.

ولكن نحب أن يخبرنا الشيخ ما معنى (الصحافة) في قوله تلك الجملة التي اعترض بها على ما يمكن لي (غلمان الصحافة)؟ فقد لاح لنا أنه يقصد بها الكتابة في الصحف أو صنعة تحرير الجرائد كما مشي على ذلك بعض المعاصرين.

ومن كان يرد في كلامه مثل (الصحافة) بهذا المعنى، ومثل: (العالم الأدبي) فأي حق له في تخطئة (الرأي العام) وادعاء تخليص الكلام من المواضعات الجديدة.

ثم همز بنا لأجل همزة (أشكل) الواردة في الأهرام بالضم من غلط مرتب الحروف، ونسي أننا لسنا نظيره في المطبعة، وأن بيننا وبينه أبحرًا فلا يتيسر لنا تصحيح المسودات بذاتنا كما يتهيأ له رد المرتب ما شاء من المرات. والظاهر أن الشيخ لا يسلم بغلط الطبع إلا إذا وقع في كلامه.

وأما تهديده إيانا بالإسراع في إيراد أغلاط (آخر بني سراج) فلا مانع من أن نكون وقعنا في الغلط في ابن سراج، وفي غير ابن سراج لأنه ليس أحد بمعصوم من الخطأ، ولكن سبحان الذي أوقعنا ولم يستثن غيرنا. وإن شاء أسرعنا إليه من قوله بمثل ما أوعد به من قولنا.

على أننا لا نفر من وجه الحق، ونحن نقر بكل ما يرد علينا منه، وكان الأولى بمـن يضع نفسه في منازل أهل التحقيق أن يعترف بالخطأ. وقد أولد له النص والشاهد وأن يحتذى مثال السعد التفتازاني حينما ناظر السيد وأقر له، وهو أحدث منه سنًا فإنه ما على الجـواد أن لا يكبو، ولا هفوة العالم مسقطة له من رتبة فضله، خصوصًا إذا عرف خطأه وتـذكر قـول القائل:

**أيـــذهب يـــوم واحـــد إن أســـأته بصـــالح أيـــامي وحســـن بلائيـــا**

بقي علينا شيء ليس من باب المناظرة في اللغة، ولكنه من باب الحقيقـة، وهـو أن صاحب **البيان** اتهمنا بالسعي في منع الجزء الأخير منه توهم أن فيه ردًا علينا ففضـلاً عـن كوننا علمنا من مصر في نفس البريد الذي ورد فيه ذلك الجزء أن ليس فيـه شـيء علينـا، وأصبحنا في أمن من ذلك الخطر، يعلم الله وأولياء الأمور أننا براء من هذه التهمة.

هذا وأما الشخصيات فلا شغل لنا بها، والله المسئول أن يبصرنا ذنوبنا ورحم الله مـن أهدى إلينا عيوبنا. أ. هـ.

# ﴿عذراء الهند﴾

## جرجي زيدان

هي رواية غرامية تاريخية لناسج بردها الشاعر المصري الطائر الصيت أحمد بك شوقي، أحد موظفي الديوان الخديوي. ضمَّنها تاريخ مصر على عهد **رعمسيس الثاني** الملقب **بسيزوستريس**، الذي اشتهر بفتوحه وغزواته. فبيَّن علاقاته السياسية بالهند والشام وسائر العالم المغمور، منذ نيف وثلاثة وثلاثين قرناً فتخلل ذلك بسط عادات المصريين والهنود وأخلاقهم وخرافاتهم ومعتقداتهم في تلك الأجيال المظلمة، وزيَّن الوقائع بأشعار زادت الحديث طلاوة ورقة. والرواية سلسلة العبارة رشيقتها، سهلة المأخذ مع بلاغة ودقة تدل على سلامة ذوق مؤلفها. وقد حلي جيدها باسم مولانا الخديوي المعظم، فجعلها تقدمة لسموه إقرارًا بما للأمير أعزه الله من الأيدي البيضاء في تنشيط العلم وأهلِه.

ونستميح حضرة المؤلف الفاضل في الإشارة إلى بعض المواضيع التي أشكل علينا أمرها، لمخالفتها بعض ما نعلمه من شئون التاريخ. على أن بعضها وقع منه سهوًا سبق إليه القلم عفوًا، منها قوله صفحة ٧ أن حوادث الرواية وقعت منذ خمسين قرنًا. ومعلوم أن رعمسيس الثاني من أهل القرن الرابع عشر قبل الميلاد. فلا تتجاوز حوادث الرواية القرن الثالث والثلاثين. ويبعد أن يقع منه ذلك عن جهل في التاريخ لما نعلمه من علمهِ وفضلهِ. وخصوصًا بعد تصريحهِ في المقدمة أن رعمسيس هذا حكم مصر منذ ٢٢٠٠ سنة. ومنها أنه ذكر بلادًا سماها الهند الغربية. والهند الغربية على ما نعلم يطلق على جزائر في قارة أميركا لم تكن معروفة قبل أواخر القرن الخامس عشر للميلاد. أم لعلهُ يريد انقسام الهند إلى مملكتين شرقية وغربية في عصر رعمسيس مما لم نقف عليه.

ويؤخذ من سياق الرواية أن الهوى تمكن من قلبي **آشيم وعذراء الهند** مع قصر مدة اجتماعهما وهما طفلان، مما لم نسمع بمثله. وذكر صفحة ١٠٢ ممارسة التنويم المغناطيسي فهل يريد أنه كان معروفًا في تلك الأزمان وما دليله. ورأينا الشيخ الهندي السائر في تلك البوادي المقفرة (صفحة ١٨) يستضيء بسلك معدني يشعله، فهل يراد به معدن المغنيسيوم المعروف الآن؟ وهل دلهُ التاريخ على استخدام ذلك المعدن في عهد الرعامسة؟

وورد في خلال الرواية ذكر كثير من الحيوانات الخرافية الغريبة كالثعبان الهائل الذي ينير نورًا باهرًا، والأفيال العراض الطوال في أجرام الجبال، والبشر في صورة القردة، والببغاء الأسود، وغير ذلك من غرائب المخلوقات، ويخال لنا أن المؤلف إنما أراد بإيرادها

بيان ما كان يعتقده أهل الهند في تلك العصور، ولكنه أورد خبرها على لسانه كمن يعتقد حقيقتها أو يشير إلى اعتقاد أهل هذا العصر ذلك.

تلك أمثلة مما خطر لنا استيضاحه، وقد يكون لحضرة المؤلف عذر فيها أو وجه لتعليلها. وهي في كل حال لا تحط من قدر حضرته ولا تمس شيئًا عن طائر شهرته (*).

* * *

(*) المصدر: الهلال، الجزء ١١، فبراير (شباط) سنة ١٨٩٨، السنة السادسة، ص ص ٤٢٣ - ٤٢٤.